فواز حداد

خطوط النار

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS



فواز حداد

خطوط النار

كان وقد استُفِزّ من الطبيب يبغي استفزازها.

"ما دام الجنود بعيدين عن وطنهم، فهم في حالة حنين يضطرهم إلى استعادة ذكرياتهم بوسائل حتى لو كانت شريرة، تبيحها حالتهم التي تستثير التعاطف معهم في محنتهم".

أراد أن تكون على بينة من العلاج، بإطلاعها على المعنى العميق لوسائل الطبيب الحضارية، الذي يحيل الاغتصاب إلى فعل عادي، صحي أو اضطراري، أو اختياري، أو ما شاء له.

ولهذا عليها تفهم ظروفهم والتسامح معهم، والتغاضي عما حصل لها.

كان قد حصل على ما يبتغيه: أثار غضبها ضد الطبيب.

هتفت بثينة: الطبيب مخبول!!

قال المترجم: بل أحمق.

والتفت نحوه، بدا الطبيب أحمق فعلاً، قال له بانفعال:

"لماذا لا يغتصبون المجندات اللواتي معهم؟".

"أغلب المجندات إما سحاقيات أو مسترجلات".

"هذا لا يمنع من اغتصابهن".

هتف كيلي: القوانين الأميركية تمنع الاغتصاب.

رد أبو سعيد: القوانين العراقية تمنع أيضاً.

قال كيلي: لا تحول الحديث بيننا إلى مباراة. ترجم ما تسمعه فقط.

(من الرواية)

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

فـواز حـداد

خطوط النار

روايـــة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Lines of Fire
Novel

Fawwaz Haddad

First Published in May 2011

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21 - 501 - 4

الطبعة الأولى: أيار (مايو) ٢٠١١

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

مقدمـة

(لم يثر كيلي اهتمامي عندما صادفته في بهو الفندق، ماذا يكون غير رجل أعمال أميركي، جاء لتسويق بضاعة كاسدة في سوق تبتلع كل شيء، ستدر عليه مالاً، وتفتح أمامه آفاقاً رابحة. لم يجلس على مقربة مني، لكن ضيق الركن المنعزل، قرّب الواحد منا للآخر، كانت نظراتنا تتقاطع ووجوهنا صوب الباب الدوار. كان ينتظر زبوناً، وأنا أنتظر صديقاً، كلاهما تأخرا، واعتذرا عن القدوم. وكأنما هناك من اختلق سبباً، لكي نتبادل الحديث معاً).

هذا الانطباع سجله كاتب هذه السطور حول ظروف لقائه الأول والأخير مع دونالد كيلي، لكن حدسه لم يحالفه الصواب؛ الأميركي لم يكن رجل أعمال، كان طبيباً نفسياً، عمل قبل سنوات في صفوف قوات جيش التحالف

خلال الاحتلال الأميركي للعراق؛ ما يدل إلى أن فراسته بالأشخاص، إن لم تكن ضعيفة، فهي ليست بالمستوى المطلوب.

كذلك أخطأ عندما ظن أن الحرب العراقية لم تعد تعني الطبيب كيلي، على العكس، ما زال يتابع أخبارها، وإن بلا هدف محدد أشبه بالفضول، وكانت محملة بالتفجيرات والاشتباكات المسلحة والخلافات المذهبية الدموية. كان إحراز هذا البلد بعض التقدم الوئيد نحو الاستقرار، ثمنه باهظاً، ومن دون ضمانة.

هذا المشهد الذي مازال غامضاً في ذلك الحين، حفز كيلي على سرد بعض ما لاقاه هناك من أهوال وصعوبات لم يفرغ من تذكرها إلا بعد منتصف الليل؛ أبرزها حادثة كان أحد أطرافها جرت معه في ظروف حالكة السواد، وزمن كان سواداً كله.

لم يُضع كاتب هذه السطور وقته سدى، كان قد عثر على قصة يكتبها. فبينما كان كيلي يروي الحادثة، أخذت تتشكل في ذهنه على مهل معالم رواية. لم يدعها تمر وكأنها قصة عابرة قابلة للنسيان، إذ لم تكن عابرة بالنسبة إلى كيلي، ولم تعد كذلك بالنسبة إليه.

وليس من الغريب أن يتبادر إلى ذهنه هذا الخاطر؛ كتابة رواية!! لقد كان كاتب هذه السطور روائياً، وهذا ما دفعه إلى وضع هذه المقدمة التي تُقرأ الآن، أي هناك من يروي وهناك من يستمع.

فاتحه بما خطر له، وهو تحويل قصته إلى رواية، فعلق كيلي:

«لا أعتقد أنها فكرة جيدة أن تكون بديلي».

المأزق الذي أشار إليه الطبيب، خطر للروائي لحظة فكّر بكتابتها، وهو بالذات ما شجعه على المحاولة، واعتزم تذليله ليس كي يتفاداه، بل ليواجهه، مع أن الفكرة، لم تكن قد نضجت بعد في ذهنه، كانت مجرد خيوط باهتة، لكن مغرية جداً.

تواعدا على متابعة الحوار بينهما عبر الرسائل، ضيق الوقت لم يسمح لهما بالنقاش، كان هناك طائرتان سيستقل كل منهما واحدة لتنطلقا في اتجاهين متعاكسين.

اعتقد أن موافقة كيلي لن تستغرق أكثر من تبادل رسالة أو رسالتين، لكنها امتدت إلى عشرات الرسائل. رأى كيلي في الفكرة مغامرة غير سليمة، فلم يشجعه عليها، وأظهر تردداً:

إن استعادة هذه الحادثة وأمثالها من شأنها أن تضعنا على خطوط التماس الخطرة.

ولم يكن جواب كاتب هذه السطور مناقضاً:

... بل على خطوط النار القاتلة.

كيلي تقبل هذه المغامرة، لكنه في المقابل ارتأى أن يكون

السارد الوحيد، أي أن تكتب الرواية من وجهة نظره، وسوف يتحمل وحده مسؤوليتها.

كاتب هذه السطور أيضاً أبدى استعداده لتحمل المسؤولية، لاسيما أن مساهمته فيها ستقتصر على تفسير أمور اعتقد أن كيلي لم يُعن بها، أو أخفق في تفسيرها. وتمحور دفاعه حول نقطة لم يتهاون فيها:

«إذا كان لا يجدر بي أن أحل محلك، فبالمقابل لا يجوز لك أن تحل محلنا».

وتعهد له بأن ما سيقوم به يسمح له بكتابة ما جرى كما تصوره صاحبها، هذا في جانب منها، أما عن تدخله فيها، فلإتاحة المجال لأخذ حيز في رواية (نحن) طرف فيها.

«الرواية لا تقتصر عليكم وحدكم، ومن الغبن لنا، والتبجح لكم، أن تحتلوا الصورة كلها، ما دام أنها روايتنا جميعاً».

كانت خشية كيلي ألا تُكتب قصته، بل قصة أخرى.

ومع هذا تمنى له النجاح، لكنه شكك في النتائج.

* * *

لا يدري كاتب هذه السطور إلى أي حد كان موفقاً في ما انتواه، ألا يكون كيلي بطلها الوحيد، بل واحد من أشخاص عدة. لم يمض في الكتابة بعيداً، عندما أدرك أنه خالف بعضاً من وعوده، تلك التي لم يتعهد له بها، وإن

شعر أنه ملزم بها تجاهه، لم تكن بالمخالفة الجسيمة، بل مخالفة يطيقها تعدد جوانب الحدث نفسه. وهذا ما استدعى خلال كتابته للرواية استمرار تبادل الرسائل والتساؤلات بينهما.

ولقد سمح كاتب هذه السطور لنفسه باستخدام مقتطفات من رسائل كيلي. فعل هذا لكي يعطيه أكثر من فرصة يبرر بها وجهة نظره، أو يستعرضها، وربما تبرئة نفسه... بالإضافة إلى أمور أخرى. وذلك باختيار طريقة بسيطة تفصل بين السرد الروائي، وتعليقات كيلي وتوضيحاته.

وهكذا أصبحتْ جزءاً من الرواية.

1

هل يمكن تحويل فتاة إرهابية تسعى للموت إلى فتاة مسالمة تحب الحياة؟

لم يشعر الطبيب دونالد كيلي بالأمان إلا بعد وصوله إلى بغداد واجتيازه حواجز التفتيش العسكرية ودخوله المنطقة الخضراء الحصينة. كان قادماً من «مثلث الموت» مصطحباً معه مريضه الجندي جاك بيرنز.

سارع إلى مقره في الساحة الخلفية المجاورة للمستشفى العسكري، في البناء الحديث المؤلف من طابقين والمُشيد على عجل أوائل العام الماضي. احتل الطبيب الجزء الشمالي من الطابق الثاني في بداية فصل الشتاء، على أن يؤسس مركزاً مستقلاً مختصاً بالإسعاف النفسي للإصابات الطارئة الناجمة عن عدم التكيف في ظروف الحرب. الفكرة تأجلت وأُلحق المركز والطبيب بإدارة الشؤون الطبية العسكرية، وبقي على حاله في طور

التأسيس دائماً، وإن تغير اسمه من مركز إلى وحدة لا تزيد على غرفتين، الواسعة منهما عيادة متصلة بفسحة انتظار صغيرة، لا أحد ينتظر فيها، ومن دون لافتة تدل إليها، كأن وحدة «الإسعاف النفسي» من الأسرار العسكرية للجيش الأميركي، لا يجوز الإعلان عنها.

لن يطول الوقت عندما سيدرك أنه كان جزءاً من الجانب الذي لا ينبغي الإفصاح عنه، إذا كانت الجيوش تعالج أمراضها الجسدية على الملأ، فهذا لا يشمل معاملة أمراضها العقلية بالمثل، كان القرار إخفاءها. هذا لا علاقة له بتحويل المركز إلى وحدة، ولا بالتكتم الذي أخذ يحيط بعمله.

لا تضم الوحدة سوى الطبيب كيلي، وكان ارتباطه بشخص واحد، رئيسه الميجور أدامز من الإدارة الطبية، الذي شغل الطابق الأول من المبنى نفسه؛ كانت الوحدة جزءاً من مهماته الإدارية الكثيرة.

كان من المفترض تزويد المركز، حتى بعد تقلصه إلى وحدة بطبيب إضافي، مع ممرضين ضخام الجثة للسيطرة على المرضى الشرسين والساخطين وترويض جنونهم وانحرافاتهم، وممرضتين شقراوين لطيفتين تلبسان الأبيض توحيان أن هذا المكان، وإن كان في قلب الجحيم، لا يخلو من ملائكة للرحمة. اشترط الطبيب أن يتمتعن ببعض الرقة والكثير من الأنوثة، ربما حرضن المرضى على التماثل السريع للشفاء، والتصرف كأناس أسوياء، على أمل أن يحظوا بموعد عاطفي ولو كان تحت الخطر. على كل حال، الفكرة ألغيت لاحقاً.

علّل الميجور أدامز كفَّ النظر عنها بأن عمل كيلي المتنقل مقتصر على معالجة الحالات الخفيفة، بينما الحالات المتفاقمة فوق أرض المعركة، ستُحال إلى وحدات نفسية متخصصة خارج العراق في ألمانيا أو أميركا.

أنا أيضاً لم أهتم بتطوير عمل الوحدة، ولا بالدفاع عن اختصاصي الذي لا يميز بين الحالات الخفيفة والثقيلة. كنت راغباً في إنهاء وجودي في العراق بأقرب فرصة ممكنة، والتخلص من حرّ النهارات الطويلة، والجو المشبع بالرطوبة العالية، وتفجيرات لا تهدأ إلا لتتجدد، وصواريخ عشوائية لم تفلت منها مواقعنا الآمنة، والأشد منها: السأم القاتل المشوب بذعر مفاجئ، وتعاسة لا أجهل أسبابها، أحدها الافتقار إلى علاقات عميقة، في ظروف لا تتيح سوى علاقات سطحية.

كانت أجواء التوتر تختلق صداقات سريعة لا تدوم أكثر من تبادل عدة أنخاب، وأحاديث لا مبالية تجري بفعل الملل والحذر. علاقات قابلة للزوال في أية لحظة، مخلفة وراءها إحساساً بأنها إن لم تكن تنويعاً على الخوف، فشكل من أشكاله.

غير أنني نجحت في عقد صداقة معقولة مع الليفتنانت كليف روبنسون، الضابط في الشرطة العسكرية، شاركته في مجازفاته الرعناء، وكانت مثمرة، لكنها تستنزف الأعصاب.

كان تبديد السأم بالرعب، غير مأمون الجانب.

أودع كيلي مريضه بيرنز في العيادة التي لم يكتمل تأثيثها بعد، غرفة متقشفة كانت بمثابة المختبر الذي يمارس فيه جلسات التحليل النفسي؛ تحتوي على كرسي مريح، وخزانة حديدية تضم بضعة ملفات وأكداساً من الأوراق البيضاء، وطاولة بأدراج يكتب ملاحظاته عليها، ويستند بمرفقيه إليها وهو يرسل ببصره من خلال نافذة أشبه بكوة في زنزانة، تبدو السماء من خلالها متجهمة شاحبة الزرقة.

ملحق بالعيادة ركن أشبه بمطبخ في زاوية الغرفة، يفصله عنها بارفان خشبي. المطبخ لا تزيد موجوداته على الأدوات الضرورية، ما يسمح للطبيب بممارسة مواهبه في إعداد بعض الوجبات الخفيفة.

الأهم مما سبق، تحتوي الغرفة على الوسيلة التي تشكل أداته الرئيسة في المعالجة وهي «الأريكة»، سينام عليها الجندي بيرنز اليوم ليلاً، ريثما يجد له مأوى يبات فيه. أما في النهار، فسوف يدعه يتمدد فوقها ويسترسل في الكلام والكوابيس والأحلام وفلتات اللسان والنشيج، أخيراً لا مفر من البكاء. لن يستمع إليه. هذا هو العلاج. ثم يعيده من حيث جاء به إلى سامراء، مركز التمرد السني، حيث تتمركز الفرقة ١٢ على ضفة نهر دجلة.

أما الآن، فالميجور أدامز سيخطو نحوه الخطوة الأولى، وكان كيلي يعرف فحواها، سيلومه على اختصار مهمته، وعودته قبل انتهاء المدة المحددة بيومين، مخالفاً خطته العلاجية التي أطلعه عليها وحازت على قبوله قبل المغادرة.

توقعه لم يكن في محله، استدعاه الميجور ولم يوجه إليه لوماً،

استعرض مهمته غير المنجزة، ولم يتلق منه أية ملاحظة سلبية. وبالمقابل لم يكشف كيلي عن السبب في إنهائها المفاجئ، لو عرف الميجور أن أوهامه سرّعت عودته، فسوف ينال علامة سيئة، لن تكون في صالح سجله المهني المتواضع؛ يفترض به كطبيب نفساني أنه منيع على المخاوف المرضية وغير المرضية بأنواعها الحقيقية والكاذبة.

علق أدامز على عودته المبكرة:

«جئت في وقتك تماماً».

لم يلحق أن يخمن ما وراء تعليقه المقتضب من احتمالات، فلم تشلم هواجسه من سوء ظنونه، لاسيما حين امتدح مهمته المبتورة وأتى على ذكر الجندي العصبي الملامح الذي جاء به معه من سامراء، وكان قد رآه قبل قليل يعبر الساحة برفقته، وكأنه يجره وراءه.

استغرب كيلي، لاسيما أن الميجور تبرع بتعليل أدهشه، أعفاه من التقصير:

«حالة الجنود لا تستدعي قضاء أسبوع كامل معهم، يمكنك متابعة أوضاعهم من خلال هذا الجندي، ماذا قلت لي اسمه؟».

«بيرنز، جاك بيرنز. حالة نموذجية».

تابع أدامز من دون أن يلقي بالاً للجندي أو لحالته، وأبلغ كيلي بالمهمة الموكولة إليه وكانت إنقاذ فتاة عراقية من وساوس مرضية استحوذت عليها!!

وأشار من خلال الفراغات المستطيلة للنافذة المصفحة بإطار معدني عريض وقضبان حديدية ثخينة إلى رجل وامرأة يتخايلان في الساحة، وقفا تحت رواق إسمنتي عريض مهشم الحواف يتقيان أشعة الشمس، كان عائداً لبناء لم يكتمل. الفتاة تلبس عباءة سوداء اللون، بينما كان الرجل الواقف إلى جوارها أميل إلى القصر، بديناً في نحو الخمسين من عمره، وعلى مقربة منهما جندي من الشرطة العسكرية الأميركية مسترخٍ في وقفته، يحرسهما ولا يحول بصره عنهما.

كان المطلوب تخليصها من أفكار يائسة تراودها بين حين وآخر، قد تدفعها إلى عمل أخرق.

«هل نحن مسؤولون عن معالجة العراقيين؟».

«أمرها يهم القيادة».

الفتاة ساهمة تنظر إلى الجدار، والرجل أسند ظهره إلى الحائط، يبدو عليه التعب، محنيّ الظهر قليلاً، يمسح العرق عن جبينه بكفه، ثم يمسح يده ببنطاله.

«ومن يكون الرجل الذي معها؟».

«المترجم».

«ما الذي تشكو منه بالضبط؟».

«حالتها بسيطة، تعاني من اليأس والحصر».

قالها بخفة، كأن حالتها لا تزيد على صداع في الرأس.

لم أستسغ معالجة فتاة عراقية، عملية الترجمة ستكون شائكة، النساء العربيات يتحرجن من الكشف عن خصوصياتهن، فكيف عن طريق مترجم؟! جلسات العلاج ستفتقر إلى أهم وسائلها؛ التلقائية والتداعيات الحرة. ما تعانيه الفتاة من وساوس ومخاوف، كان من الأحاسيس الشائعة القابلة للاستمرار والتفاقم لا للتحسن في أوضاع كهذه متردية وقلقة، تنحو غالباً نحو الأسوأ.

وهذا ما يحيلنا إلى تأثير تلك الحرب، أو على وجه التحديد الفوضى العارمة التي دفعت جميع الأطراف المتنازعة إلى القتل من دون تمييز بين مدنيين ومقاتلين، أو نساء وأطفال. ما المتوقع أن ينجم عنها... أناس أصحاء؟! الإحباط واليأس هما السائدان، هذه الأعراض أمر طبيعي، وإذا كان هناك ما بعث التفاؤل والرضا في داخل هؤلاء البشر، فبسبب عوامل تافهة على الأغلب، كالحصول على القليل من الوقود، أو الخبز والخضار، وعدم انقطاع الكهرباء لفترات طويلة... وحاجيات لا يعلم بها في هذا البلد إلا الله.

«المعالجة النفسية في العراق تُعدّ رفاهية، لا أحد يعتقد بضرورتها».

«من أين جئت بمعلوماتك هذه؟» تساءل أدامز مستنكراً.

«قالها لي مسؤول عراقي، عدّها تبديداً للمال على أمراض وأوجاع لا وجود لها».

«الأفضل أن تسأل سؤالاً جيداً».

تذكر أن أدامز ينفر من تعليقاته، هذه المرة كان على حق.

«لماذا تهتم القيادة بها؟!».

كان سؤالاً جيداً.

«لقد تعرضت لحادث اغتصاب، والفاعل جندي أميركي. الأرجح أنها تنوي الانتحار».

أدار كيلي وجهه صوب النافذة، وتأمل الفتاة.

«ما المثير فيها؟!» قال لنفسه.

وجد أكثر من عذر للفاعل، الوحدة والحرّ ومشاعر الوحشة، والتهديد المستمر بالموت... في هذه الظروف الضاغطة، لا يمكن الاختيار بشكل سليم، تصبح أية امرأة شهية.

«الأمر ملتبس بعض الشيء، لا أعتقد أنه اغتصاب، كانت على علاقة مع جندي، تركها وعاد إلى الوطن في عملية تبديل القوات، يبدو أن مشاعرها تأذت» قال أدامز.

«وهل القيادة حريصة على مشاعرها؟ كاد أن يسأله ساخراً.

أحجمت مفسحاً المجال للقليل من الغباء لئلا أتورط بسؤال لن يجده جيداً ولا جدياً، ما يدفعه إلى الإجابة عنه بحدة شديدة. كنتُ بغنى عن تفسيراته. كان يحاول أن يبدو جندياً طيباً، وكان أبعد ما يكون عنه.

السؤال الثاني الذي خطر لي سيبدو فضيحة من فرط ما هو جيد، ومن الصعب طرحه: ماذا وراء هذه القصة؟

إذا كانت غرامية، فهي مهينة للجيش، يمكن للقيادة الاعتراف بالاغتصاب لا بالغرام.

كيلي لم يتساءل. ابتسم قائلاً:

«أرسلوها إلى عنوان الجندي».

«هذا ليس وقت المزاح».

وتابع أدامز مؤكداً خطورة الحالة:

«الفتاة تريد أن تموت، والقيادة لا تريد».

«ما أدراهم أنها ستنتحر؟».

«تهديدها بالانتقام، لا تتصور كم هي حاقدة!».

«هل ستقتل أحداً، أم ستنتحر؟».

«قصتها مشوشة بعض الشيء، وربما كانت مختلقة بالكامل».

«ما دام الانتحار رغبتها دعوها تمارس حريتها».

أدرك الميجور أدامز أن الطبيب في واد آخر، يمارس إحدى سخافاته، ولو تركه لاسترسل ولم يتوقف قبل أن تتشظى أفكاره في الاتجاهات كلها، عدا الهدف المطلوب، مع أنه كان الأقرب ومتوقعاً.

«إنها فتاة إرهابية، مؤهلة لتكون انتحارية».

كان البون شاسعاً بين القصة الغرامية والعملية الإرهابية. هتف كيلي مستغرباً:

«إرهابية!!».

«الضحايا نحن، وربما العراقيين المساكين».

استدرك كيلي تداعياته فوراً، وذهبت أفكاره إلى ما سمع عنه ورأى آثاره في سامراء: صانعو الألغام الأشرار لم يعودوا انتقائيين في حشوتها، أي شيء يصلح مادة للتفجير: رجل، شاب صغير السن، ولد معوق، وربما حمار أو بقرة أو كلب ميت؛ كانوا يفخخون جثث قتلاهم أيضاً، ولا يُستبعد أن يتحول الإرهابي الجريح إلى قنبلة حية... ما الغرابة في أن تكون القنبلة امرأة أو فتاة؟ توقع اليوم خلال عودته أن تصادفه على الطريق عبوة ناسفة، احتاط لكل شيء، ما عدا أن تستوقفه امرأة مفخخة، طبعاً لن يقف لها، حتى ولو كانت عارية.

لاح الطبيب مهموماً، فبدا أكثر انضباطاً.

بينما أخذ أدامز يسرد القصة التي كان عليه أن يبدأ حديثه بها: أحد العملاء العراقيين صادف الفتاة في ساحة التحرير، سألته عن محطة الباصات إلى محافظة ديالى، تريد السفر إلى مدينة بعقوبة. لاحظ أنها مرتبكة وتبدو غير طبيعية، فاسترسل في الحديث معها، فعرف عن نيتها الاتصال بمنظمة إرهابية إسلامية تجهز النساء للعمليات الانتحارية، فأبلغ عنها. أدركوها وهي في المحطة على وشك ركوب الباص، قبضت عليها دورية جيش عراقية أميركية مشتركة، واحتفظ الأميركيون بها. كان التحقيق معها عسيراً، أنكرت أنها تنوي الاتصال بالإسلاميين، وتعللت بالسفر إلى أقاربها. لكنها تنكر رغبتها في تفجير نفسها بحاجز أميركي. خلال التحقيق ذكرت حادثة غامضة عن تعرضها لاغتصاب، لا يمكن الجزم بها، على الأغلب مزعومة، أو علاقة عابرة مع جندي، ولا يستبعد أن يكون مع شاب عراقي.

المهم أن تسترد حالتها الطبيعية.

استمع إلى الميجور مستغرباً القصة والاحتمالات المتعددة، واستغرب أكثر أنه أخذ يحدد له عمله القادم بشأن الانتحارية: لابد من ابتكار هدف لها في الحياة يدفعها إلى إعادة النظر في قرارها، تستعيد من جرائه صوابها وثقتها بنفسها وتجدد رغبتها في العيش، ويؤجج في داخلها التوق إلى الانطلاق...

ما أكثر ما هو مطلوب منه؟!

لم يسترع انتباهه سوى طلبهم الأحمق: «تأجيج التوق في داخلها إلى الانطلاق...».

مثلاً إلى أين؟!

«انظرْ إليها، تبدو كأن الموت استأثر بها».

أعاد النظر إليها، بدت بلباسها الأسود أشبه بتابوت واقف على طوله.

راق له هذا التشبيه الجنائزي، لا يعدم لمسة صارخة من فعل بات عادياً في أجواء غير عادية. وبما أنها على أهبة مفارقة الحياة، فلا يعود تفجير جسدها إلا إجراءً شكلياً للخروج من عالم لا يؤسف عليه. أراد القول وامتنع. وإن عقَّب:

«تبدو لغماً متحركاً».

«إنها صغيرة السن». قال أدامز آسفاً.

هل هناك حقاً من يرغب في شفاء فتاة إرهابية؟ لماذا حياتها؟ وما جدوى إعادتها إلى حالتها الطبيعية؟

الأنكى، من الذي يروج لهذه الأفكار الإنسانية؟ أدامز رجل المهمات المميتة... كان ما يتناقله ضباط القيادة عنه مروعاً ومشرفاً في حرب تحللت من الموانع. كان مسؤولاً عن العمليات السرية القذرة، الأقذر على الإطلاق.

كانت مهمتي التي تحت إشرافه جزءاً من الغطاء الذي يعمل من خلفه. أما الغطاء فكان في منتهى النظافة، ومعقماً أيضاً، كان عمله المعلن على علاقة بتأمين إمداد الجيش بالمواد الطبية.

«ماذا كانت حالتها الطبيعية من قبل؟!».

ملمحاً بسخرية إلى أنها لا تزيد على حالتها الرثة هذه.

«وفّر أسئلتك».

لكنه لم يوفر تعليقاً جاءه عفو الخاطر، لم يستطع كبحه:

«يبدو أن لدينا الكثير من الوقت للأعمال الخيرية».

حيرني الاهتمام بها، وانزعجت من الإصرار على طلب علاجها، بدا دعائياً أكثر منه فعلياً. لم آخذه حتى على محمل الشفقة، وإنما على أنه من أنواع الرأفة الكاذبة غير المبررة، ما دام هناك المئات من القتلى والجرحى العراقيين يسقطون كل يوم، ولا أحد يأبه بهم، مع أنهم كانوا ضحايا نموذجيين طبقاً لهذا المعيار.

اليوم إذا كنت أعيد النظر، فلأنه فاتني وقتها أكثر من سؤال: لماذا يهتمون بفتاة قد تتفجر في «جنودنا»،

وليس «ربما في العراقيين المساكين» الضحايا الدائمين لأخطائنا العرضية من جراء قصف طائراتنا؟ لولا «جنودنا» لما أرادوا معالجتها، هل هذا سبب معقول؟ كان أكثر من معقول، ما دام المستشارون يقترحون أكثر الأفكار غرابة وتكلفة، وربما اخترعوا لتقليل خسائر العراقيين بنداً في برنامج إعادة الإعمار لمعالجة القتل بغير القتل، بل على أنه مرض قابل للشفاء.

لا غرابة في هذه الفكرة، كانت على نمط الأفكار التي تمرر على أنها خلاقة.

استدرك كيلي تعليقه اللاذع، وسارع متظاهراً بمعاتبة الميجور:

«إنهم يسعون إلى قتل جنودنا، بينما نحن نسعى لإعادتهم إلى الحياة!!».

«تعرف، هذا ليس رأيي».

بل وأعرف أنه لو صدر أمر بقتل العراقيين لما تردد أدامز لحظة واحدة في تنفيذه وذبحهم عن بكرة أبيهم، والتمثيل بجثثهم، ربما شفى غليله منهم، دون أن يعرف أحد لماذا يريد الانتقام منهم على هذا النحو. أنا أيضاً، لا أعفي نفسي، أحياناً دهمتني لحظات تمنيت العراق أرضاً محروقة، أو أن تسحق من على سطح الكرة الأرضية، وأحياناً أخرى ساءتني أحوال العراقيين، كانوا يستحقون العيش بسلام بعد حروب طويلة وعبثية، ولم أكن واثقاً في ما إذا كنا نريد لهم حياة أفضل في وقت كنا نُعِدهم لحياة أسوأ.

آنئذ، وأقولها صراحة، لم أتحمس لشفاء الفتاة، كان هناك العشرات من جنودنا في سامراء يشكون من عوارض غامضة، والأمل في شفائهم التام مجرد تخمينات مبالغ بها، ولا يستبعد أن تنقلب إلى عكسها مادامت الحرب مستمرة. كان اعتقادي أن هذه العراقية وأشباهها يُخلقون هكذا، مشوهين أو معلولين، أو...، لا ينفع فيهم شيء، يعيشون ويموتون على هذه الشاكلة، الحصار والنفط والحروب وفرت لهم فرصة للدخول إلى العالم، عندما ننسحب من بلادهم، سينسحبون من العالم، ولن يفتقدهم أحد.

أسكت أدامز الطبيب آملاً أن يضع حداً لآرائه، أكثر من مرة دخل نقاشاً معه، يلوح مثمراً في البداية، لكن كيلي لا يدعه ينضج أبداً، سرعان ما يزجه في متاهة من الاستنتاجات التافهة. لم يعد يناقشه، كان يصدر إليه الأوامر فقط. الآن الأمر يختلف، هذا رأي القيادة، ولا مبرر لبذل أي محاولة لإقناعه. لم يفكر بإجابة مقنعة، بل أن ينقل إليه الإجراءات:

«هذا القرار ليس محل بحث ولا جدال. القيادة تصر على معالجتها بتكتم ومن دون اعتراض. إذا نجحتَ بتأهيلها للعيش، سيجري التغاضي عما كانت ستفعله، ولن يبخلوا عليها بالعون اللازم من خلال بعض الحوافز. إنهم على استعداد لمكافأتها بمنحها حق اللجوء إلى أميركا مع أي شاب عراقي تختاره».

أورد أدامز المحفزات المغرية حانقاً. كان غير راض عنها. ثم تابع كلامه:

«الهدف، حسب تأكيداتهم، إجراء تجربة، هل يمكن تحويل فتاة إرهابية تسعى للموت إلى فتاة مسالمة تحب الحياة؟».

«قل لهم ألا يتفاءلوا».

«إنهم حريصون على النجاح».

ألقى كيلي بنظرة إلى الساحة، الفتاة مازالت واقفة في مكانها تحدق إلى الحائط. والرجل المتعب الواقف إلى جوارها، يبعد بيده الذباب المحوّم حول وجهه المتعرق. والجندي الحارس وضع يده على مسدسه وأخذ مسافة منهما، تحذيراً للإرهابية الصغيرة، من أنه سيطلق عليها النار، لو حاولت الهرب. إذا كان جاداً فعلاً، فلا ريب أنه أصيب بضربة شمس أثّرت في عقله.

إلى أين تهرب في هذا البقعة المزحومة بالقناصة؟

بعد هذا التمهيد المطول، ثمة المزيد مما يريد إبلاغه إياه:

«هذه الفتاة ليست إرهابية بالمعنى الدارج الذي تروج له هذه الجماعات، رغبتها في الانتحار ترجع إلى اليأس، لا غيرة على الدين، وإذا أرادت أن تبدو شهيدة فلكي تتخلص من الفضيحة. تريد القيادة إثبات أن الدين الإسلامي بريء من أكاذيب من يدعون أنفسهم بالجهاديين الاستشهاديين».

تابع أدامز، لم يعد إبلاغاً بل تحليلاً لما أصابها:

«تدعي أنها ستجيّر انتحارها للدفاع عن الإسلام، لكنها تكذب، السبب الحقيقي تفريطها بعذريتها، العذرية لها شأن كبير لدى المسلمين، الجماعات الإرهابية تستغلها وتقايض عليها، وتعوضهم

بالجنة عن العذرية. ينبغي تفنيد هذا الزعم، وتبيان أنهم يستخدمون الدين لاصطياد ضحاياهم».

لم يفت كيلي أن الطلب لا يقتصر على العلاج عموماً، بل حددت وجهته نحو غاية محددة كان لها الأولوية القصوى.

> **المنحى الذي ارتأته القيادة بالنسبة إلى العمليات الانتحارية، أنه لا ينبغي أن تعزى إلى نوازع دينية تأمرهم بالتضحية بالنفس، وتعدهم بالجنة؛ المنتحرون لديهم دوافع أخرى لا تمت للدين بصلة، وإنما للتطرف والجهل... مع أخذ التخلف العقلي بالحسبان، وأيضاً معوقات مادية ومعنوية ليس بالوسع حصرها وتخمينها، كلها تجد من يتلقفها ويمنحها صبغة دينية، تساعد على التغرير بالرجال والنساء.**

أدامز يُحسن تلقّي الأوامر، ويجيد توصيلها.

> **لكنه أخطأ باختياري، كنت الشخص الذي لا يفي بالغرض. كان أدامز يعرف؛ عذره أنه لا يوجد غيري، ولا بديل متوفر سواي.**

الفكرة لم تجد لدى الطبيب كيلي تجاوباً، لن تنجح، رأيه لم يعلنه. كانت تجربته مع المسلمين ملتبسة، غير مشجعة ولا سارّة، عدا أنها تدحض براءة الدين الإسلامي.

كان ذلك قبل نحو أقل من سنة، في يوم الحزن الشامل.

2

طقوس السيف والدم

لم يدرك أنه ضالع في مغامرة مثيرة، وإن كان قد استعد لها هو وصديقه كليف روبنسون بتنكر كل واحد منهما بارتداء بنطال جينز وقميص ملون، بينما تكفل وجهاهما الملوحان بالشمس، بجعلهما أشبه بالعراقيين منهما بالأميركيين.

أوقف الليفتنانت كليف الآليات الثلاث المرافقة في زقاق جانبي خارج حي الكاظمية، وهي من المناطق الشيعية الآمنة أكثر من المناطق السنية التي تكثر فيها الاشتباكات، وتخرج أحياناً بضعة أيام عن سيطرة الجيش الأميركي والشرطة العراقية. اخترقت قافلتهم الصغيرة شوارع بغداد، بعد حلول فترة منع التجول وقبل غروب الشمس بقليل. أمر الليفتنانت كليف الجنود بعدم الاقتراب من مدخل الكاظمية، أو التحرك من أماكنهم، لئلا تلفت ملابسهم العسكرية وأسلحتهم الأنظار إليهم.

تعرف الطبيب كيلي إلى الليفتنانت كليف بعد شهرين من وصوله إلى بغداد، جمعت بينهما المصادفة في طائرة نقل، كان كلاهما متجهين إلى قاعدة بلد الجوية؛ كليف ليحقق مع جندي مشتبه فيه، كان رؤساؤه يتسترون على بيعه تاجراً عراقياً كميات كبيرة من المعلبات الغذائية. جاء كليف بنفسه إلى القاعدة لأن التحقيقات عن بُعد لا تصل إلى نتائج. بينما جاء كيلي للاطلاع على حالة جندي يتصنع المرض مختبئاً في الخندق هارباً من الاشتباكات من دون أي إحساس بالمسؤولية. الجندي لم يكن يتصنع المرض، كان مصاباً بما يدعى «اللامبالاة الجميلة»، وهي عرض من أعراض الهستيريا، ما أدى إلى شلل أصاب يده اليمنى، ولم يعد يقوى على حمل السلاح. أعاده معه من القاعدة المحاطة بالأسلاك الشائكة وكبائن المراقبة إلى الصفوف الخلفية ليعمل في المطبخ مستعملاً كلتا يديه في جلي القدور والصحون.

ربط بينهما التذمر من حرب توفر لصوصاً محتالين ومرضى جبناء، لكن أفلح السجن والحجر في تأهيلهم لارتكاب جرائم أكثر إحكاماً، أو لذهانات وعُصابات لا شفاء منها إلا على المدى الطويل، غالباً أطول من بقائهم أحياء. بدت صداقتهما مؤقتة، ريثما يموت أحدهما أو كلاهما. أصبحا يلتقيان كلما سنحت لهما الفرصة، يمضيانها بالشرب والتندر والتفكير في القيام بمغامرة طائشة، تكسر الإيقاع السقيم لقلق بات رتيباً، ورجاء ليس غامضاً؛ النجاة ولو معاقين من حرب عمياء.

كان كليف يعتقد أن لكل شعب عاداته الغريبة وطقوسه الدينية العجيبة. فلم يرد أن يفوّت عليه فرصة مشاهدة مناسبة دينية محلية هي الاحتفال باختتام الذكرى

السنوية لأفجع مأساة عرفها المسلمون في تاريخهم، مقتل حفيد نبيهم قبل ما يزيد على ألف وثلاثمائة سنة. كانت حدثاً تراجيدياً، حتى أنهم أسبغوا على القتيل لقباً في منتهى الرفعة: سيد الشهداء. وأصبح شخصية مقدسة يتبركون بذكراها كل سنة في اليوم العاشر من عاشوراء. مغامرتنا كانت في الموعد نفسه، المصادف لمقتل الإمام الحسين، حسب التقويم الهجري، وهو تقويم يبدأ من يوم هجرة نبي المسلمين محمد من مكة إلى المدينة.

الكاظمية تترنح في العتمة الخفيفة، ولولا البصيص الواني المتمزق من ضوء النهار، لكانت قطعة من ليل مدلهمّ بالنساء المتشحات بالسواد، والرايات السوداء المنتشرة في كل مكان محمولة بالأيدي، أو معلقة على الجدران والشرفات والنوافذ. مظاهر الحداد جللت الشوارع والأزقة وعشرات السرادق في جميع الاتجاهات، لم يبدد حلكتها خفق البيارق المتفرقة ذات اللونين الأحمر والأخضر، ولا أضواء المشاعل والمصابيح.

لم يكن احتفالاً عادياً، كان عزاءً ضخماً، يعج بالبشر يُعزّون بعضهم بعضاً، يدوم عشرة أيام، يستعيدون مجريات الموقعة الدامية التي جرت أحداثها في كربلاء، ويستذكرون مع الكثير من المبالغات النهاية المروّعة للإمام، خلالها ينتهزون الفرصة ليستعيدوا مصائبهم وآلامهم، والبكاء على حظوظهم البائسة، يُعزيهم أنها لا شيء يذكر بالمقارنة مع ما وقع على الحسين من ظلم، وما لحق بأهله كبارهم وصغارهم وأعوانه من قتل وتمثيل.

لم يمنح الإمام الحسين ولاءه للحاكم المستبد يزيد بن معاوية مغتصب السلطة، رفض مبايعته قائلاً له: مثلي لا يبايع مثلك. فأرسل إليه أهل الكوفة المراسيل إلى محل إقامته في مكة، وحثوه على القدوم إلى العراق لمبايعته أميراً عليهم. لكن الذين تعهدوا بمناصرته، نكلوا وعدهم له. فيما بعد ندموا على خذلانهم له.

على أرض كربلاء، كانت المذبحة، أحاط بالإمام وجماعته الصغيرة جيش الطاغية يزيد من كل جانب، جيش عرمرم كثير العدة والعدد. منعوا عنهم الماء والطعام، حتى أشرفوا على الهلاك من العطش. فطلب الحسين من أفراد عائلته وأتباعه الفرار قبل فوات الأوان. فقال له أخوه العباس: ولم نهرب؟ ألنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً. انهال عليهم محاصروهم رمياً بالسهام ورشقاً بالحجارة وضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح. دافع العباس عن أخيه حتى الموت، حتى بعد أن قطعت يده اليمنى. فشهد الإمام موت أخيه وكان عينه التي يبصر بها، وبكى مصرع طفله الرضيع وأخوته والخلص من أصحابه، رآهم يبقرون بطون الأطفال، ويضرمون النيران في خيام النساء، وخيولهم تطأ جثث أحبابه بحوافرها مقبلة مدبرة فوقهم. ظل ثابتاً في مكانه، قاتل وأثقل بالجراح، لم يفر من محاربيه، جراحاته كانت من وجهه، إلى أن تمكنوا منه وقتلوه. فصلوا رأسه عن جسده، داست الخيل على جسده الشريف، وحُمل رأسه على الرماح وطيف به من ولاية لأخرى. لم يكتفوا بهذا، كانوا يضربون شفاه الرأس المقطوع وأسنانه بالعصا.

كانت القصة معروفة ومتداولة، تحكى وتُمثل في المجالس الحسينية، حتى أصبحت من محفوظات

العراقيين الدارجة، سر جاذبيتها التهويل في العنف والتنكيل.

قصة لا يملون من روايتها.

بالإضافة إلى عناصر الأجهزة الأمنية والاستخبارات بملابسهم المدنية، كان الحي محاطاً برجال الشرطة العراقية بزيهم الأزرق، ومطوقاً بقوات كبيرة من جنود الجيش العراقي. الطرق المؤدية إلى الاحتفال قطعت، وأغلق الحي بكامله. التحرز الأمني كان شديداً، استدعته التفجيرات التي جرت قبل يومين. عندما تسلل شاب انتحاري وفجّر حزامه الناسف بين جموع الزائرين لضريح الإمام الكاظم. أعقبه انتحاري آخر فجر نفسه بين المندفعين الفارين من الانفجار الأول، تلاه تفجير لانتحاري ثالث، فامتلأ صحن الضريح بالجثث وضج بصراخ الجرحى المستغيثين. حاق التدمير داخل المسجد وخارجه. وحتى بعد نصف ساعة، كانت الرؤية غير واضحة، الدخان يتصاعد، الأرض ملطخة بالدماء، الجثث مغطاة بشراشف بيضاء، وإلى جوارهم أكوام الأحذية العائدة للضحايا، أيدي وأرجل بعض القتلى الذين لاقوا حتفهم في الخارج، أوصلتها التفجيرات إلى الشرفات العالية للأبنية المحيطة والمجاورة.

في اليوم التالي، شاع خبر في المنطقة الخضراء يقول إن قيادة التحالف كانت على علم بتوقيت العملية وحجمها، واعتبرت نجاحاً باهراً لأجهزة الاستخبارات.

كان أحد العملاء قد أفلح في اختراق تنظيم للإرهابيين الإسلاميين وأخبر مسؤولاً في الاستخبارات الأميركية،

أن مسجد الإمام الكاظم سيستهدف بتفجيرات انتحارية. كان ذلك قبل يوم واحد من تنفيذها. المسؤول كان أدامز.

في تلك الفترة، كان الاتجاه قوياً نحو تسعير النزاع الطائفي في العراق لتخفيف الضغط عن القوات الأميركية. أيدت الإدارات المختلفة اقتراح أدامز، الذي حذر من القيام بأي إجراء مضاد يمنع المجزرة، أو حتى إبلاغ قيادة الجيش العراقي والشرطة بالاشتباه بعملية انتحارية لئلا يعملوا على تخفيف الخسائر في أرواح المدنيين. توخى أدامز من ورائها تصعيد الاشتباكات بين الشيعة والسنة، متوقعاً أن تنطلق على أثرها حملة انتقامية يقوم بها شيعة الكاظمية ضد سنة الأعظمية، ومنها تمتد الفتنة إلى سائر المناطق.

خلافاً للمتوقع، وهذا ما سجله التقرير اليومي: أن أهل الأعظمية هبوا لمساعدة جيرانهم، فحملوا الجرحى إلى مستشفى النعمان بسياراتهم، والماء والطعام للزوار الوافدين عبر جسر الأئمة، وعُلقت اللافتات على جدران مسجد أبي حنيفة وهو أكبر مسجد في الأعظمية: ليس فينا من يفرق.. بيننا من جسور المحبة ما لا ينتهي.

غير أن الفتنة كان وقودها جاهزاً، أخفقت هذه المرة في الكاظمية، لكن أفلحت أكثر من مرة، وفي أكثر من مكان.

غاصاً في الزحام بين البشر، لا شيء يوحي بالخوف أو ينذر بالخطر، كأن شيئاً لم يحدث قبل يومين. العزاء مستمر وفي ذروته.

مواكب الرجال والشبان والأولاد تتدفق إلى الشوارع من الحسينيات، وتطوف الأحياء متوجهة إلى مسجد الإمام الكاظم، يحملون الشموع وأغصان الآس، يهتفون بالشعارات الحماسية الدينية، يرثون الإمام الشهيد على إيقاع الدفوف. الوجوه محتقنة يتصبب منها العرق، والنادبات لطخن رؤوسهن ووجوههن بالطين. الفضاء يختلج بحرارة أصواتهم المكلومة، النحيب يتصاعد مبحوحاً، يعلو من حناجر تتفجر بالشهقات المكبوتة. رجل في المقدمة يلوّح بيده: يا مولاي. يرددون وراءه بأصوات مبحوحة: يا حسين... يصرخ الرجل: يا سيدي، يرددون: يا حسين. يصرخ بصوت أقوى: يا مظلوم. يرددون: يا حسين.

كلمات كأنها السحر تشحنهم بالإيمان والتضحية.

يشاركهم الأهالي بالتعبير عن حزنهم بإقامة مجالس العزاء، كلّ منهم على طريقته، بنحر عجل وطبخه مع كميات كبيرة من الأرز، وتوزيع وجبات الطعام والعصير وزجاجات المياه والشاي والسكر والقهوة مجاناً، يرتجون الأجر من الله.

المواكب تتتالى، شبان أجسادهم عارية حتى الخصر، يضربون بقبضاتهم على صدورهم، يقرعون أكتافهم بالسلاسل الحديدية الثقيلة، الجراح تخط الدماء على الظهور. طلقات الرصاص في الفضاء تلهب المتسوطين فيغدو ضربهم أقوى، واللطم أشد. العويل يتعالى، فيضج الهياج بالمحتشدين ويتصاعد صراخ النساء،

فيما أصوات قرع الطبول والصنوج ترجّ الأرض والفضاء بدويّ يصمُّ الآذان.

الفجيعة الصارخة تتابع مسيراتها الجنائزية في جحافل اللطامين الحفاة، العزائم مشدودة، والتصميم على أشده، يتقدمون كأنهم يرقصون على وقع ثلاث تسويطات، ثم لحظة سكون، فخطوة إلى الأمام...

> **عيونهم تبرق فيها نشوة الألم المبارك بالقداسة، والقسوة تسخو عليهم بلذة لا تحدها أية متعة.**

يظهر من بين الجموع الهادرة موكب الضرّيبة من الرجال والشبان المنذورين «محبي الحسين»، يلبسون ثياباً بيضاء ترمز إلى الأكفان، يحمل كل منهم سيفاً، يضرب به رأسه، يشقون رؤوسهم، الدماء تنفر وتصبغ الوجوه. يسيرون على طريق الشهادة، لو مات أحدهم في الموكب، فقد ظفر بالميتة الأكثر ثواباً.

تتصلب ملامحهم وتتحجر، والضرب يزداد عنفاً. أحد الضَرّيبة الشبان، فدغ رأسه وارتد بالخنجر على مدى ذراعه ليهوي به على جبهته، سارع أكثر من رجل، أحدهم أمسكه من المعصم، وآخر من الساعد، لئلا يأخذه الحال ويقتل نفسه. كاد ضرّيب آخر أن يقتل الرجل الذي حاول كبح جماحه. امرأة تتفرج ولولت وسقطت على الرصيف. اشتدت حرارة الضرب، الأيدي والرؤوس تتعالى مضرجة بالدماء، والقمصان تصطبغ باللون الأحمر القاني.

بعض المتفرجين أخذهم عنفوان الضرب، وأطارت صوابهم رائحة الدم، فالتحقوا بالموكب بملابسهم، منهم جنود من الجيش

والشرطة المكلفين بحفظ الأمن، باشروا اللطم والضرب. عجوز ورجلان أغمي عليهم وانهاروا على الأرض، بينما الذين يتقدمون الصفوف يتباهون بجراحهم تنزف دماً، وآثار الضرب على صدورهم، يسددون أبصارهم نحو المتفرجين، ثم يرفعون رؤوسهم نحو الشرفات، يشملونها بنظراتهم مزهوين بقوتهم، يجتذبون نظرات الإعجاب من النساء، مثلما يستجلبون نظرات الحسد من المتفرجين الشبان.

> **بدا الشارع الممتد أمامي أشبه بالأريكة التي في مكتبي، والجموع المحمومة مستلقية عليها، تطلق مكنوناتها الجريحة دونما رقيب ولا حسيب. ماذا يكون ما أراه سوى احتفال غرائزي لنوازع مقموعة يعلنها بشر خاضعون لتوترات عصابية، حُرموا من الإشباع الجنسي الطبيعي، يضجون بشهوات تتواطأ فيها الطهارة والدنس، يعانون من كبت مزمن جراء تحريم الممارسات الجنسية قبل الزواج.**
>
> **هذا الذي على مد النظر، إيمان متوحش، وفحش مقموع لا يقل عنه توحشاً مكبوحاً، وسعار جنسي يحجبه الفداء السخي بالنفس.**

الاحمرار على الظهور، والدماء تنز، الخناجر والسيوف مشرعة، ضرب الزناجير، الصراخ والنواح. بينما تتوالى في الشارع دون توقف، الوجوه الشابة، الصدور العارية، العضلات المفتولة، تلاحقهم العيون المضمخة بالكحل الأسود.

> **ماذا يكون الضرب واللطم؟ أليس تهدئة للغرائز معفاة**

من الخطيئة بعقاب يوقعه الفاعل على نفسه؛ أشبه بما انتاب قديسينا من عذابات لإماتة شهواتهم والتغلب على مكابداتهم الجسدية، بينما كانوا يدعون أنهم يقاتلون الشيطان!!

تدنو المواكب إلى المسجد تعج بالأكفان والوجوه الملطخة بالدم.

مأتم هائل، الجزع والأسى يعمّان الشوارع والأزقة.

عالم يأخذ مجراه نحو الهستيريا.

في المسجد، الشبان ينزفون وقد غطاهم الغبار، يزحفون على أيديهم وركبهم نحو القوس الذهبي المؤدي إلى ضريح الإمام المقدس، وآخرون يدورون حوله، يلطمون صدورهم ويضربون ظهورهم بالسلاسل، أو يجرحون رؤوسهم الحليقة بخناجر خاصة، بعض الحضور يضمدون جراح بعضهم الآخر.

يهرع القادرون من الرجال ويحملون إلى الخارج شباناً جراحهم لم تلتئم تماماً، يساعدونهم على تسلق عربات تجرها الحمير، ليعرضوا على الناس قمصانهم تقطر دماً.

يستقبلهم بشر حزانى، يذرفون الدمع، يندبون الحسين وآله.

كيف تتجمع هذه الحشود الغفيرة وتتآلف تحت سطوة حدث جرى قبل ثلاثة عشر قرناً، وتتفق على الثأر من بشر غادروا الدنيا، إلا إذا كان ما يجمعها شيء أقوى من الزمن؟!

لن تفهم ما يجري أمامك إلا إذا فكرت فيهم على أنهم أناس يجمع بينهم اللاوعي وغياب العقل. توقفت بهم دورة الحياة هناك، وتجمدوا على هذا النحو مأخوذين بمأساة هي مأساة كل واحد منهم؛ الحرمان.

أعاقهم الزمن المتأخر عن المحاربة في صفوف الحسين، فلم يقاتلوا من قاتله، أو يعادوا من عاداه. يستعيدون زمنه ويعاهدونه ألا ينسوا مصابه طوال الدهر، ويكون عليه بدل الدموع دماً... وحتى الموت. يرتعون في مصيبة تقتات من ارتكاب جريمة نكراء لا يُكفر عنها بالضرب على الوجوه حتى العمى، ولا بإسالة الدماء الغزيرة حتى الغرق. يرتضون شعوراً بالذنب يتمرغون بذكراه، ويتجدد كل سنة!! وفي ذهابهم إلى أقصى الألم، الدليل على قناعتهم بأنهم لن ينالوا الغفران، ما داموا هم أحياء.

كأن لا طريق للخلاص إلا في استعذاب العذاب.

لم تمض جولتهما بسلام، تنبه إليهما أحد الشبان، مع أنهما كانا يتكلمان همساً، أشار بيده نحوهما وصرخ بأعلى صوته: جواسيس... جواسيس.

3

الموت أنشودة تنتظر من يطلقها

سارع كليف وشدَّ كيلي من يده، جرّه معه، وخرجا من الجامع بسرعة جنونية، لحقهم الشبان وهم يتنادون للإمساك بهما، حاول بعض المتجمهرين إيقافهما، ولم يتمكنوا منهما. كليف أخرج مسدسه ولوح به في وجوههم مهدداً، وهو يصرخ: أمريكان، أمريكان. فتزايد عدد المُطارِدين. اخترقا الموكب وحاولا الوصول إلى دورية قريبة للشرطة العراقية. الزحام أبطأ من سرعتهم، عرقلهم رجل سمين تصحبه امرأة سمينة مثله، سدا الطريق أمامهما. فلم يستطيعا إيجاد منفذ بين الجموع المتدافعة، ولا الإفلات من مطارديهما. اعترضهما بضعة شبان، هجموا عليهما أحاطوا بهما وأسقطوهما أرضاً. لم يقاوما، السيوف والخناجر لامست حنجرتيهما، تخيلا رأسيهما مقطوعين والأقدام تقذفهما بعيداً عن الموكب نحو الرصيف.

أسلموهما إلى شبان من المشرفين على تنظيم أمن الاحتفال، قادوهما إلى مكتب قريب احتُجزا فيه. بعد أن فتشوهما وانتزعوا منهما ما يحملانه من أسلحة وأوراق وبطاقات تدل على شخصيتهما، أجروا اتصالاتهم، وطمأنوهما إلى أنهم أعطوا وعداً لضباط في الجيش العراقي بإطلاق سراحهما بعد التحقيق معهم.

التحقيق لم يجر، استضافوهما، قدموا لهما وجبتين من الأرز مع قطع كبيرة من اللحم على روح الإمام المفدى. ثم أدخلوهما إلى شيخ بعمامة سوداء لحيته خالطها الشيب، كثيفة ومهندمة بعناية، جالس فوق سجادة تبريزية جميلة النقوش، قعدا مواجهته. كان قد عرف أنه ليسا صحافيين بل ضابطين في الجيش الأميركي، تجاوزا تعليمات قيادتهما بمجيئهما إلى الكاظمية في اليوم الأخير من عاشوراء.

لم يسألهما سوى سؤال واحد: ما الذي جاء بكم متخفين؟ فأجاباه بكلمة واحدة: الفضول.

لم يأمن الشيخ على سلامتهما من مترصدين يحومون في الخارج، ربما كانوا يعملون لحساب عصابات الخطف. أبقاهما لديه. ما زال هناك وقت لتسليمهما إلى الجيش العراقي كي يفتحوا لهما طريقاً آمناً إلى خارج الكاظمية حيث كانت الآليات مع الجنود رابضين في الزقاق. كان يرغب في التحدث معهما، كي لا يدعهما لاستنتاجاتهما، فيغاليان بتفسير مشاهداتهما، ويعتقدان أنهما أحرزا سراً، يؤولانه على قدر عقولهما.

أكرمنا الشيخ باستقباله لنا، وكان له الفضل في تقريب ما يفعله أولئك الشبان بأنفسهم من لطم وتمزيق

للملابس ونواح وزحف على البطون والأيدي وتجريح للصدور والظهور وتطبير للرؤوس.

لا، ليس ما يفعلونه استعراضاً لمهاراتهم في استعمال السيوف والخناجر، ولا لقدرتهم على تحمل العذاب، ولا المخاطرة بالسير على حافة الموت، إنما هو تذكرة وحض على مقارعة كل سلطان جائر، في أي زمان جاء، وأي مكان حلّ.

الفجيعة ما تزال حية في النفوس، ساكنة فيها. وإذا كنّا نتماهى مع من تخلوا عن الإمام، فلكي نتعرف إلى الظلم ونعانيه بالجسد والروح.

هذا الحزن، حزن نبيل، الإحساس بآلام الرسول وأهل بيته ومواساتهم في تذكر مصابهم بحفيده الحسين. وتشبث بالإيمان على الرغم من انتصار الظالم، والإيمان بالحق، حق الله، حق الإمام، حق الإنسان في الحياة الكريمة.

«فأمعنا أيها الأميركيان النظر إلى هذه المعاني».

«أعتقد أن الإمام الحسين أخطأ في حساباته».

أظهرتُ استغرابي للشيخ وقلت له، إن لدينا الكثير من أمثال شهيدهم الحسين، طمحوا إلى الحكم والسلطة، وربما هدفوا إلى الثورة ضد الظلم من أجل حياة أفضل، لكنهم أخفقوا وذهبوا ضحية مطامعهم أو مبادئهم النبيلة. نحن لا نقيم لهم مثل هذا العزاء الضخم الذي يتجدد كل سنة، وكأنهم ماتوا الآن، ولا نبكيهم كأننا نحن الذين قتلناهم. لقد ذهبوا إلى التاريخ، هناك

مكانهم الجليل أو الوضيع، وإذا كانوا قد هزموا أو انتصروا، فلأنهم أخطأوا أو أصابوا في خططهم.

ابتسم الشيخ، تبرع بالجواب كي لا يسهما بتأويلات أخرى غريبة تتلاءم مع أفكارهم وتنسجم مع عقولهم، وقال:

في مثل هذا اليوم أريق الدم السماوي.

لو أدركتم أن الحسين دم الله المسفوك على الأرض.

لما خطر لكم هذا التفسير.

استشهد الحسين عالِماً بنهايته ونهاية أهل بيته، وخرج مقاتلاً ليُسفك دمه وتسبى نساؤه. إن مغالبته لجيش الطغيان في معركة خاسرة، لا علاقة لها بالحسابات الأرضية، ولا بحسابات السلطة والإمارة والخلافة، وإنما اتباعاً لأمر إلهي. الرسول صلى الله عليه وسلم ظهر للحسين في الرؤيا وقال له: «إن الله شاء أن يراك قتيلاً».

وكأنه مسيح آخر.

«هل هناك توارث للندم؟» سأله كيلي.

قال الشيخ، هناك توارث للضمير، ضمير الحسين، إذ يسري من جيل إلى جيل، ويطالبنا بأن نكون الأشد إيماناً، والأفضل خلقاً، والأكثر بذلاً للمال والنفس.

لم أقل له إن الضمير لا يساعد على العيش قدر ما يبرر الفشل. في فيتنام عانينا منه فخرجنا مهزومين. لو أن

لدينا قدراً ضئيلاً من هذا الضمير المتطلب، لما فكرنا بالقدوم إلى العراق. اليوم لو استيقظ لرحلنا دونما إبطاء.

هل تتصور أن يستيقظ؟

إذا حدث ورحلنا، فلحسابات أخرى.

إحياء يوم عاشوراء الحزين ما هو إلا احتفاء بالحسين بما هو رمز للشهادة ولقيم الفداء، وبكاء لا نهاية له عليه، واحتجاج على طغيان الحكام، والنضال ضدهم، وعدم الرضوخ لهم.

ليس ثمة أسمى من الاستشهاد في عاشوراء. في هذا اليوم أبواب الجنات الثمانية مفتوحة للشهداء على مصراعيها.

«لقد رأيتم وسمعتم، ليس هؤلاء فقط، بل مئات الملايين، إذا استدعت الحاجة فلن يبخلوا بحياتهم، في حال تلقوا أمراً من الله بالشهادة».

بدا الشيخ وكأنه يمثل الله.

والموت أنشودة تنتظر من يطلقها.

ولقد امتد الحديث به من فجيعة إلى فجيعة.

ليست مأساة إمام واحد بل رهط من الأئمة، اثنا عشر إماماً قتلوا جميعهم بالسم عدا آخرهم، اختفى وعمره ثماني سنوات، لتبدأ غيبته الصغرى، خلالها اتصل بالعالم بواسطة أربعة وكلاء إلى أن ماتوا، لتبدأ الغيبة

الكبرى التي ستنتهي في آخر الزمان، عندئذ يعود ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

... وأشياء أخرى تشبه شعوذاتنا حول المسيح الدجال وقيامة المسيح ابن الله ليحكم العالم طوال ألف عام من السعادة، ريثما نصعد إلى السماء ويحل الأبد.

خلف مشهدية الدم، يكمن أكثر من منظر:

استعجال رجعة المهدي بالرجاء والبكاء.

تناقل انتظاره من جيل إلى جيل.

التداعي إلى طلب الشهادة في سبيل الحق.

هؤلاء البشر لا يجهلون خلاصهم مادام أنهم يتأثرون طريق الإمام الشهيد، ونصب أعينهم رأس الحسين المقطوع في كربلاء؛ ووراءه يكمن وجه الله.

وكان من الممكن أن يمتد الحديث إلى أساطير أخرى حتى الصباح، لولا أن استأذن ضابط شرطة بالدخول إلى الشيخ.

التمس الضابط من الشيخ أن يغادر ضيوفه المكان فوراً، وإلا فلن يستطيع حمايتهم، ولا ضمان سلامتهم. كان قد جلب معه دورية شرطة مدعومة بفصيل من الجنود العراقيين كي يجد لهما منفذاً إلى خارج الكاظمية.

احتج كليف، كان يرغب في الاستزادة من حديث الشيخ.

«بعد قليل لن أكون مسؤولاً عنكم، سأترككم لمصيركم» قال الضابط مهدداً.

هب الشيخ من مكانه واندفع إلى الشارع لردع الثائرين وتفريقهم، لكن الضابط اعترضه عند الباب وانتحى به جانباً وتكلم معه هامساً في أذنه، فنصحهما الشيخ بالمغادرة حالاً.

تشبث كليف بالبقاء، وعندما رفض الشيخ، سأله عن سبب نكوله عن استضافتنا، وعدم رغبته في وجودنا. فاضطر الشيخ إلى الكلام، كان الضابط قد همس في أذنه بما تسرب إلى علم الناس في الخارج من أحد المتعاونين مع سلطة الائتلاف: العمليات الانتحارية التي وقعت قبل يومين، كانت القيادة الأميركية على علم بها ولم تمنعها.

لو أننا تقاعسنا في الخروج أصبحنا لقمة سائغة لغضب الشيعة، وأجهزوا علينا ركلاً ودعساً بالأقدام.

كان الناس في الخارج بحالة هياج شديد.

كانت طلقة واحدة في الشارع كفيلة بتحويل المكان إلى خندقين، قوات الجيش والشرطة ضد عناصر من الميليشيات الشيعية. معركة لن تنتهي إلا بتعليق جثتيهما على الأعمدة. لكن الرشاشات المشرعة في وجوههم أوقفتهم في أماكنهم. كما كان من حسن حظهم، أن الميليشيات الشيعية لم تكن عناصرها المتواجدة كافية لخوض معركة مع الجيش، لو حصل تأخير، ووصل باقي العناصر إلى المكان، فلن يتردد مسلحوها في قتال أية قوة تعترضهم واقتحام منزل الشيخ واعتقالهما.

في اليوم التالي، قلت لأدامز عما جرى معنا في الكاظمية، ولمحت له إلى أنهم يعتقدون بأننا نحن الأمريكان وراء العمليات الانتحارية الأخيرة. فقال لي: إذا أردت أن تسمع للعراقيين فسوف تسمع الكثير من هذه التخيلات، إنهم يتهموننا بسرقة الكهرباء من العراق وإرسالها إلى تكساس.

قال كيلي لكليف بعدما غادرا الكاظمية:

«ظننت أن السنة هم الذين يفجرون أنفسهم فقط».

«والشيعة أيضاً. في بيروت قتلوا عدة مئات من المارينز في عملية انتحارية. فلا تستبعد في أية لحظة أن ينقلبوا ضدنا».

«هل يكرهوننا؟».

«على التأكيد، كانوا يروننا محرِّرين، اليوم يروننا محتلين».

لا أعتقد أنني أخطأت عندما ربطت بين ما حدث في العراق قبل مئات السنين مع ما يحدث الآن، سواء كان القتل بالسيف أو بالسم. هؤلاء الناس لديهم سوابق في قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث... والإبحار في الدماء!! الشعور بالندم تسلط عليهم، توجيه هذه المشاعر ضدنا يعني أن شعباً بأكمله لديه المقدرة على التحول بلمح البصر إلى قنابل بشرية.

لا تسألني المزيد، في ذلك الوقت تساءلت: هل العرب شعب يسير نحو الفناء؟ إذا كان، فعلينا إفساح المجال لهم ليخرجوا من العالم.

لا أدري ما هو نصيب هذه الأفكار من الصحة. عندها، فكرت هكذا، واعتقدتُ أنني كنت على صواب. الآن، لا أريد مناقشة هذا الأمر.

لذلك عندما سألني الميجور أدامز عما أقترحه بشأن الفتاة، حرضني ما عرفته عنهم على التبرع بحل طريف، لم أتعمد فجاجته الإرهابية إلا كي أغيظ أدامز رقيق القلب الفاجر.

«أرى وضع الفتاة في منتصف الساحة، بعد تزنيرها بعبوة ناسفة، ثم تفجيرها عن بعد».

بان على وجه أدامز الامتعاض من سخرية كيلي الذي أخذ يشرح له بلا مبالاة الفائدة التي ستُجنى من قتلها في ساحة المستشفى الخلفية:

«وبذلك نوفر استعراضاً متشفياً للجنود المعاقين والجرحى الذين سيطلون من نوافذ غرفهم ويرونها تتمزق أشلاء في الفضاء. أما المشرفون على الموت، فسوف يساعدهم صوت الانفجار على لفظ أنفاسهم بارتياح».

لم ترق له طرفته، كالمعتاد كانت سخيفة، وتمييعاً للموقف. كيلي لم يهتم، تابع، من دون أن يغمط الفتاة أيضاً الفائدة التي ستحظى بها:

«كما يوفر عليها مشواراً بالباص، ألم تكن ذاهبة لتموت على هذا النحو؟».

نهره الميجور:

«الموقف غير طريف البتة».

أوقف كيلي اقتراحاته السمجة، صفن قليلاً، من أين لأدامز هذه الرأفة بالعراقيين؟

كان لا مفر من معالجتها. ولقد أخذت الأمر في سري كنوع من التسلية، لن أرسلها إلى بيتها إلا بعد دفعها إلى الجنون، أو الانتحار كمداً. ربما خلال بضعة أيام، سأجعلها تقتل نفسها وهي في سريرها، سواء كانت نائمة أو صاحية.

حدد كيلي لها موعداً للمعالجة في الأسبوع القادم.

عقب الميجور بلهجة آمرة:

«بل غداً، الحالة مستعجلة».

«هناك أكثر من مائة جندي على خط النار حالتهم مستعجلة».

«حالاتهم مهما تفاقمت، فهي عرضية، وغير مستعصية، وقد يشفون وحدهم بالتقادم».

وجد كيلي رغم تصميمه، أنه مضطر إلى تخصيص وقت لها:

«حسناً، غداً الجلسة الأولى ستكون لبيرنز، والجلسة الثانية لها».

4

إنهاك المعركة

السبب الآخر الذي دفع بكيلي إلى اقتراح إعدام الفتاة بتفجيرها في الساحة، أنه ما زال واقعاً تحت تأثير مهمته الأخيرة في سامراء.

وصل ظهراً إلى معسكر الفرقة ١٢، بطائرة مروحية صغيرة الحجم، على أن تكون عودته بعد أربعة أيام. لم يكن قد وضع قدمه فوق أرض المعسكر، عندما عاندته الطبيعة الصحراوية للمنطقة. عاصفة رملية فاجأت المروحية بعد أن حطت على المهبط الصغير، فاضطر إلى البقاء داخلها أكثر من ساعة، بينما الرمال الناعمة تنفذ من خلل الأبواب والنوافذ مع أنها محكمة الإغلاق، سببت له ضيقاً في التنفس، واحتقاناً في العينين. أنجده القبطان ببخاخ موسع للقصبات. لم يجد بأساً في الاستماع لنصيحته. كانت علاقته بالأدوية غير النفسية ضئيلة جداً. أغمض عينيه، وأخذ

شهيقين من البخاخ كانا كافيين لكي لا يموت اختناقاً.

حالما نزل من المروحية ألزموه بارتداء سترة واقية من الرصاص وخوذة معدنية، ثم لم تفتر صفارات الإنذار عن الزعيق، ركض حانياً ظهره، فتعثر والتوى كاحله، تابع الركض وهو يعرج، بالكاد وصل إلى الملجأ، وارتمى منبطحاً يلهث فوق الأرض الإسمنتية، بينما كانت الانفجارات البعيدة تصل إلى سمعه قوية.

قال له الكولونيل مارش قائد الفرقة في أول لقاء معه: لا تخف، هذا يوم استثنائي.

لا، لم يكن استثنائياً، كان المعسكر يتعرض من حين لآخر لرشقات المورتار والقذائف الصاروخية، أصيب منذ يومين جندي إصابة مميتة فيما كان جالساً في المرحاض الميداني. وخلال الأشهر الماضية، قتل القصف اليومي بالهاون وجرح جنوداً كانوا في التدريب، أو عاكفين على تنظيف أسلحتهم، أو ذاهبين إلى المطعم أو الندوة.

زار كيلي المعسكر نفسه قبل ستة أشهر. استدعى قدومه استشراء حالات ذهول بين الجنود، قاموا بتصرفات غير مسؤولة من دون وعي بما حولهم، الحالات كانت محدودة، جرى إخلاؤها إلى مستشفى في القاعدة العسكرية الأميركية بألمانيا.

كان المعسكر حينها، عبارة عن إحدى استراحات الرئيس المخلوع التي اتخذت مقراً لقيادة الفرقة ١٢ وهي فرقة مشاة ميكانيكية عتادهم دبابات أبرامز وعربات برادلي القتالية ومدفعية ثقيلة ومروحيات أباتشي الهجومية. الجزء الباقي من الفرقة كان بمهمة في تكريت.

في القاعة التي ضمت خمسة ضباط انكبوا على الخرائط يتأملونها بإمعان، وتصرفات جنودهم تتخايل لهم بين الإحداثيات والرموز، كان اليأس مسيطراً عليهم، بينما في الخارج توزعت الآليات حول المقر في وضعية دفاعية بين أشجار النخيل. لم يقدم لهم حلاً، فقط بعض المهدئات وإجابات لا تشفي الغليل، لم يشفهم سوى استجابة القيادة لهم في استعجال القصف. كان الأداء جيداً، حصيلة القتلى كانت مرتفعة.

خلال فترة وجيزة، أقيمت عدة أبنية في الجوار، وتجنباً للخسائر البشرية نقل سلاح الجو المزيد من الجنود بواسطة طائرات النقل. توالت بعدها عمليات المداهمة لسامراء والقرى المحيطة بها ومعها المزارع والحقول القريبة.

> **بعد انتهاء مهمتي الأولى، ألقيت نظرة على الأرض والطائرة ترتفع بي في الجو، كان منظر المعسكر الرابض بطمأنينة تحت الشمس، يوحي بأن الفرقة ١٢ ستبقى هناك إلى الأبد.**

هذا الأبد، لم يكن مقنعاً ولا مطمئناً للمقيمين في المعسكر. قبل أسبوع أُجري لهم مسحٌ للصحة العقلية، وكانت النتيجة مخيفة؛ نحو خمسين بالمائة من الجنود معنوياتهم في الحضيض، بينما أقل من عشرة بالمائة كانت معنوياتهم مرتفعة جداً. هذا ما استدعى حضوره ثانية.

«المتفجرات هي العدو الحقيقي للجنود» قال الكولونيل متجهماً.

كانت بمثابة أسلحة التدمير الشامل التي لم تعثر عليها فرق التفتيش، ظهرت بعد الاحتلال في وقت مبكر، على نحو بدائي،

وتطورت بسرعة، وتفوقت عليها بأنها سلاح فعّال وغادر.

«الأنذال، لو لم يكونوا جبناء لخرجوا لقتال جنودنا».

كانوا يلاحقونهم ويقتلون منهم بالعشرات، بينما تكفل القصف المدفعي والصاروخي بقتل المئات.

كان الكولونيل قد استرد شيئاً من مهاراته الدعائية.

قال كيلي لنفسه، عسى ألا يستطرد.

الكولونيل لم يستطرد، كان عند حسن ظنه.

أرهقته تنقلاته داخل الفوج، الرباط الضاغط الملفوف حول كاحله أعاقه عن المشي. كان يعرج متجولاً بين الجنود في مهاجعهم، وقاعات الطعام، والخنادق، والملاجئ، وأكواخ الحراسة، وساحات التدريب بين العربات والدبابات، قضى معهم ساعات تراوحت بين اللهو الخشن والثرثرة البذيئة. لم يعرف الجنود لماذا كان الطبيب يسألهم عن أسمائهم والمهمات الموكولة إليهم، ويتبادل معهم الحديث حول كل شيء، وإن بدت لهم عن لا شيء. لم يعرفوا سوى أن الكولونيل طلب منهم تسهيل مهمته. لكن ما هي؟!

خمنوا أنه يقوم بجولة تفقدية، للعمل على تزويدهم بمواد ترفيهية، فطالبوا بتدارك ما ينقصهم من لوازم وضروريات أسوة بالمعسكرات الأخرى؛ مطعم يقدم وجبتين ساخنتين في اليوم، وحمامات دوش، وتواليتات مجهزة بمياه جارية، ومركز لتمارين الكمال الجسماني، محل حلاقة، ومصبغة لتنظيف الملابس.

كانوا متوفزين وضجرين. لم يهتموا به، مادام سيعود من حيث أتى، ويرفع تقريره إلى قيادة الجيش، ومنها سيُرسل إلى البنتاغون:

كل شيء على ما يرام، عدا بعض النواقص ينبغي تأمينها من أجل أداء أفضل.

لكنهم لم يعرفوا أنه هنا لفحص سلامتهم العقلية.

كان الوضع على الأرض سيئاً، حالة من اللاجدوى تسري بين الجنود ذوي المعنويات المنخفضة، كانوا مصابين بما يسمى «إنهاك المعركة»، بعضهم يشعرون أنهم موتى على قيد الحياة، والجنود الأحسن حالاً، يحسون أنهم هائمون على وجوههم ريثما يقتلون. الموت لم يكن بعيداً، كان قريباً ومبذولاً في المعسكر وعلى الطرقات، دون قتال... مجانياً، بشكله العبثي الأكثر مرارة.

في الشهر الجاري كبدتهم العبوات الناسفة وحدها خسائر كبيرة، سبعة قتلى، الكابتن باري ومعه جندي قتلا في مستهل الأسبوع الأول بمتفجرة أطاحت بهم وبمدرعتهم البرادلي. وقبل ثلاثة أيام، الليفتنانت دمبسي ومعه سارجنت وثلاثة جنود قتلوا بمتفجرة مدفونة في كوم قش. رُحلت جثثهم إلى بغداد تمهيداً لنقل كل منهم إلى ولايته. الإجراءات معروفة، والنهاية معروفة، سيُدفنون تحت الرخام الأبيض، وتزين قبورهم بأكاليل الورد. لن يسمح لزوجة الليفتنانت دمبسي بإلقاء نظرة الوداع عليه ولا فتح النعش، لم يبق منه ما يسمح لها بالتعرف إليه. بينما كان قبل ساعات من موته متشوقاً للعودة إليها، ويحلم بحفلة شواء في الهواء الطلق.

القنوط بادٍ على ملامح الجنود الذين قصوا عليه حكاية ميتته الشنيعة، فأحس بالقنوط نفسه يتسلل إلى داخله.

لأول مرة في حياته، يرى الأعراض التي قرأ عنها في الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الفيتنامية، تتكامل على وجوههم، وكأنه يقرأها في مرجع جامعي عن الاضطرابات النفسية الظرفية، فسرها للكولونيل تفسيراً علمياً دقيقاً وموجزاً جداً:

«إنها تشير إلى تفكك في الأنا».

بيَّن له أن هذا التفكك هو رد فعل على ضغوط حادة تتخطى مهاراتهم التكيفية، كان من نتائجها تعطيل فاعليتهم.

استرعى نظره رد فعل الكولونيل، الذي ارتاع لتصوره أن كل واحد من الخمسين بالمائة من جنوده مفكك الأوصال إلى قطع معطلة عن العمل تحتاج إلى غيار:

«كم هي الفترة المتبقية حتى يصابوا بالجنون؟».

كان الكولونيل بسؤاله يطرح تحدياً على نفسه، هل سيقاتل بنصف جنوده؟ استدرك الطبيب تلك الفكرة السخيفة:

«سيدي، لا تأخذك الظنون بعيداً».

تابع الكولونيل مبرراً حنقه:

«إنهم يتناقصون معطوبين».

لم يدر كيلي كيف واتاه الصبر، ولم يسخر منه، واساه قائلاً:

«هذه حالات عادية، تشفى بقدر ضئيل من العلاج».

كان الكولونيل يخشى أن تتطور إلى حالات انتحار. طمأنه كيلي إلى أن مبعثها القلق من التهديد بالموت الماثل خارج المعسكر وداخله، أو الخوف من إصابات ينجم عنها إعاقة أو تشويه.

في سره قرر ألا يسأله عن حوادث الانتحار، لم يرد توسيع شقة البحث. كانت مهمته رفع معنويات الخمسين بالمائة المنهارة!! أغلبهم صغار في السن لم تتجاوز أعمارهم الثالثة والعشرين. العلاج ينبغي أن يكون علمياً تماماً، شرحه بصعوبة:

«بإعادة اللُحمة إلى الأنا خلال فترة قصيرة من الزمن».

وقبل أن يعتقد الكولونيل أن ثمة تمزقاً في أجسادهم بحاجة إلى رتق أو ترقيع، حدد كيلي المقصود به: تمزق في الشخصية. أعاد بعدها على مسمعه ما كتبه ليلاً في مذكرته عن أعراض حالة تختلف من جندي لآخر: نزق، عجز عن التركيز، وهن عضوي، همة محطمة، تردد في السيطرة على الذات، تشوش في الفكر والإدراك، نسيان... تابع مهوناً عندما رأى الكولونيل يكاد أن يصاب بصدمة من فرط تكاثر الأعراض:

«إنها وعكة لا مرض، نهتم بها لكي يدرك الجنود أن ما يحسون به لا يصمهم بالجبن. هذه المخاوف شائعة في الحروب».

بعدما أقنعه بعدم خطورة الحالة، قال إنه سيأخذ معه جندياً واحداً، ويقيم له مختبراً مصغراً يدرس فيه حالته والتي بالضرورة، تختلف ببعض التفاصيل الصغيرة عن حالات الحروب السابقة، إذا كانت النتائج جيدة، فسوف يطبق العلاج على الجميع.

اختياره هذا لم يأت من خصوصية الحالة العراقية، الحرب واحدة، ونتائجها لا تتخلف عن الظهور مهما اختلفت في دوافعها أو أهدافها، عادلة كانت أم ظالمة، وتخضع للظروف نفسها الرعب والترقب، ودائماً تفتك بالبشر وتطحن الحجر.

> **استحوذ عليَّ حدس قوي، سأموت في هذا المكان المقفر، ولن يطول بي الأجل للرجوع سالماً إلى بغداد. هل يصح الاعتقاد بالحدس؟ الحدس مثلما يميل إلى التفاؤل، يميل إلى التشاؤم؛ لا يمكن الاعتماد على مصادفة غالباً لن تكون موفقة.**

لم ينتظر كيلي المروحية، طلب من الكولونيل قوة حماية ترافقه إلى بغداد. برنامج العلاج يتطلب منه العودة برفقة الجندي العينة. كان قد وقع اختياره على مصاب صادف أنه سائق عربة هامفي، ليُجري عليه بعض الاختبارات النفسية.

الكولونيل لم يعترض، لن يفتقد سوى الآلية الأخرى المرافقة، ليس طويلاً، ستعود مع قافلة صهاريج وقود في اليوم نفسه من المنطقة الخضراء. كانت مسلحة جيداً، قادرة على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم وتبادل إطلاق نيران الأسلحة الخفيفة والقنابل والصواريخ مع المهاجمين.

لكن إزاء الألغام، لا أمان، الموت يتهدد الجميع. الكثير من التدابير اتخذت للوقاية منها، ورغم هذا لم توفر ضمانة على الطرق. من المستحيل تفادي المتفجرات المصنعة محلياً؛ الأنواع الصغيرة منها تبتر قدماً، إن لم يكن يداً، أو تطيح رأساً، أما الأكبر حجماً والأكثر تعقيداً، فتدمر مدرعة أو دبابة.

لم يكن تصميمه على العودة قبل موعده إلا تحت تأثير حادثة اعتباطية جرت معه ليلاً. تلبسه على إثرها شعور بالرعب حثه على الإسراع بالمغادرة. مساء اضطر للذهاب إلى المرحاض الميداني وكان في الخلاء. انتعل شحاطة مكشوفة بسبب الرباط الضاغط، ارتطمت رجله اليسرى بعقرب في الظلام، عقص إصبع قدمه

الكبير. توهم أنه تسمم وشارف على الموت، راجع من فوره طبيب المعسكر، فأراه في قطرميز من البلور ممتلئ بمحلول الفورمول، عنكبوتاً مشابهاً لونه أسمر وبحجم راحة الكف:

«رغم أنه عدواني، عقصته غير سامة، وإن كانت مؤلمة».

لم يرتح لكلامه، فما نام ليلته. صباحاً طلع بقصة المختبر النفسي، واختار العينة؛ الجندي جاك بيرنز؛ حالة مرضية مثالية، الأعراض الإضافية ساعدت على اختياره، كان نحيلاً، عصبياً ويعاني من اضطرابات في النوم.

في طريق العودة، أسلم الجندي بيرنز مقود سيارته الهامفي المصفحة إلى صديقه، ثم استرخى، فغافله النعاس، لم ينم منذ ثلاثة أيام سوى بضع ساعات. بينما عانى الطبيب طوال الطريق من قلق الصحو. لم يكن واثقاً من الوصول حياً. بدا الطريق طويلاً جداً، مع أن المسافة بين سامراء وبغداد نحو ١٢٠ كيلومتراً، ولا تتعدى ساعتين من الزمن. لكنها طالت بضع ساعات عن الوقت المقرر، توقفت خلالها القافلة مرتين، الأولى لإصلاح عجلة، والثانية لانتزاع لغم في وسط الطريق، ظهر فيما بعد أنه رقعة قماش متسخة.

فور وصوله كتب اقتراحاته حول ما يلزم للفرقة ١٢، مما سيساعد على رفع معنويات الجنود: مراحيض حديثة، هواتف، إنترنت. وأضاف إليها بعض الكماليات الترفيهية؛ حوض سباحة وصالة رياضية وآلة لعرض الأفلام ومجلات جنسية.

أما بخصوص التشخيص، فكان صحيحاً: إنهاك المعركة، والعلاج بُدئ به.

5

موت رخيص

استوقفت ملامح الجندي بيرنز نظره حالما أخذ يسأله عن بعض البيانات، ويسجلها لديه؛ ما الجديد الذي طرأ عليه؟ كان منظره قد اختزل عدة حالات على اختلافها وتنوعها. بدا ملتصقاً بخوف يطلّ من عينيه؛ منهكاً تماماً، ومشوش الهيئة؛ عنيداً ومنقاداً، شيء ما في داخله كان في منتهى الهشاشة، يتقصف بأصوات مكتومة. عموماً، حالته ليست سيئة جداً، لم يقع اختياره عليه إلا لأن هزاله وعصبيته يؤكدان معاناته أكثر من رفاقه.

طلب منه التمدد على الأريكة وتركه يتكلم، بينما سرح بأفكاره بعيداً عنه، كان يُعد نفسه للجلسة القادمة. نهض عن كرسيه، وتمشى في الغرفة مسافة بضع خطوات. أطل من النافذة، كانت الفتاة واقفة في المكان الذي رآها فيه البارحة وكأنها لم تغادره طوال الليل وإلى جوارها المترجم، بدا أقصر من قبل. لم يكن

يتعرق، كان يتمايل في وقفته، يتلفت يمنة ويسرة كأنه يخشى أن يراه احد. فيما بدا الحارس اليوم متحفزاً على خلاف الحارس في أمس، كلاهما الفتاة والمترجم كانا هدفه، متربصاً لأية حركة يقصدان منها الفرار، مع أنه يستحيل على المترجم أن يفكر مجرد تفكير بحركة كهذه، كان يعمل في مكاتب القيادة.

تناول المنظار المقرب ليرى ملامحهم بوضوح أكبر دونما ظلال ولا غبش. كان وجه الفتاة على الرغم من سمرتها الخفيفة ذا تقاطيع ناعمة، لا تتعدى العشرين من عمرها. أما المترجم، فكانت تقاطيع وجهه مألوفة، وأكثر وداعة من أن يحملها رجل عراقي، ربما بسبب الانخطاف الواضح في عينيه، والذي انعكس شحوباً على ملامحه، قد يكون مريضاً، أو مصاباً بفقر الدم.

ارتد الطبيب إلى بيرنز، وكان يقول متأففاً:

«... لكن لا تدعنا نشعر بالنصر».

هل كان جواباً عن سؤال وجهه إليه؟ لا يتذكر، كان شارداً عنه، ترى هل سأله عما إذا كان الإحساس بالهزيمة يؤلمه؟ فكان جواب الجندي أن خسائرهم لا تدعهم يشعرون بالنصر.

«نحن نقاتل في ظلام، لا نرى أحداً، سرعان ما يختفون بين الأحراش».

قرر أن يعطيه انتباهه. تابع بيرنز:

«نخوض حرب كمائن وقناصة ومتفجرات، مناوشات متقطعة ومعارك لا يحدث فيها اشتباك إلا نادراً، نواجه أشباحاً».

عذره كيلي، المشكلة ليست في أن الأشباح لا تهمها الحياة، وإنما في أن الجنود يخشون الموت، لِمَ لا؟ حتى لو كان لدى أحدهم رغبة في مفارقة الحياة، فليس في هذا القفر الجهنمي بعيداً عن الوطن.

«لا يتركون وراءهم قتلاهم ولا طلقات الرصاص الفارغة».

وارتفع برأسه عن الأريكة:

«لكنهم يتركون الألغام الأشد فتكاً».

وأخذ يشرح له مدى قدرتهم على إخفائها: تُطلى العبوات القاتلة بالإسمنت، أو بدهان لونه أقرب إلى لون الصخور، تدفن بين النفايات في كوم تراب، أو توضع في برميل على قارعة الطريق، أو تعلق على أعمدة الهاتف، وتموه بأغصان الأشجار، أو بشيء ما لئلا تسترعي النظر، وربما خبئت في جثث الحيوانات النافقة، بطن بقرة أو القفص الصدري لحمار، كان كل شيء قابلاً لأن يكون قنبلة تفجر عن بعد.

لم تكن المعضلة في اكتشافها أو العثور عليها، كانت تزرع بوتيرة أسرع مما تستطيع فرق البحث عنها مجاراتهم بانتزاعها، لا يكادون ينتهون من تنظيف الطريق منها حتى يبدأ المتمردون بزراعتها من جديد، وكأنها لم تحصد قبل ساعات؛ تنافسٌ لا ينتهي بينهما؛ فمثلاً عندما دعمت عربات الهامفي بالدروع الثقيلة، حشّن الإرهابيون المتفجرات بالمقابل، أصبحت أكبر حجماً، مع آلية تفجير أفضل.

«لا نعرف من أين يأتون. نحن في حالة تأهب دائم».

علا صوته بالشكوى، بينما وضع يديه تحت إبطيه، أخفاهما من فرط ارتجافهما، لم يسيطر عليهما، توقف عن الكلام، كانت شفتاه ترتعشان.

لم يتوقع أن تكون حالته بهذا السوء، قد يفقد أعصابه بعد قليل وينهار دونما سبب ظاهر، اللهم إلا هذه المتفجرات. لم يشفق عليه، مع أنه هو نفسه عانى شيئاً من هذا القبيل في المعسكر، لكن الأمر يختلف، هؤلاء جنود، مهنتهم الحرب، يتقاضون رواتب جيدة مقابل تعرضهم لأخطار محتمة. لو تابع بيرنز التحدث عن المخاطر، فسوف يشق عليه حصرها... لن يشجعه في هذه المرحلة المبكرة من العلاج، على استمراء الشكوى.

نهض واقترب من النافذة، تناول المنظار المقرب ثانية. المترجم والفتاة حافظا على وقفتهما في الساحة، الفتاة أشبه بتمثال كاحت اللون، تبدو كمريض مصاب بالكتاتونيا، صادفه واحد قبل أشهر تجمد على هذه الشاكلة أمام العلم الأميركي طوال سبع ساعات احتجاجاً على ماذا؟! لم يجب، لأنه لم يكن يسمع، ولا يدري بما يجري حوله، لم ينفع فيه الوعيد ولا التهديد، أخيراً اضطروا إلى حمله لإقصائه عن الساحة. مثله الفتاة قد تبقى على هذه الحالة ساعات لا يرف لها جفن!! والمترجم الشاحب الوجه أصيب بالعدوى، ثبت في مكانه مستنداً إلى الحائط مغمضاً عينيه، والجندي الحارس تخلى عن حذره وأخذ يتمشى بعيداً عنهما.

بيرنز خالف ظنه، ذهبت به التداعيات إلى الذكريات الجميلة، لم يبق في حدود ظروف الحرب الرهيبة، تذكر متعة الرقص مع الفتيات، والتلذذ بتناول وجبة هامبرغر ساخنة...!! هل هذا وقت الرقص والهامبرغر؟ ثم تابع هذا اللغو، وتخيل عودته إلى الديار،

واستعاد أصنافه المفضلة؛ البيتزا والكورن فلكس مع الحليب بطعم الفريز والتشيز كيك، ومشروب الدكتور بيبر...

بعد قليل من السهو، تبين كيلي أن ذكريات بيرنز تدور تحت وطأة القصف الشديد!!

بيرنز مع صديقه في زورق مطاطي يعبران نهر دجلة، كل شيء هادئ، البدر يرسل نوره، ينسكب ألواناً متلألئة على صفحة المياه المتموجة، النسيم يتخلل أشجار النخيل فتصدر أصوات تسبغ على العتمة موسيقاها المنعشة. كانا في مهمة استكشافية. أخذا وسط السكون يتبادلان الحديث عن أجواء أندية الرقص ليلة السبت. استرجع بيرنز فترة المساء التي يقضيها في محل هامبرغر ماري، كانت لا تنسى. طابت لهما استعادة ذكريات أخرى عن مطاعم وسط المدينة تبيع الأطعمة السريعة، خصوصاً البيتزا الإيطالية.... فجأة لعلعت طلقات الرصاص واندلعت في الفضاء القنابل المضيئة ترسم في قلب الظلام خطاطات من الشهب. الرصاص يتناثر من حولهم، رصاصة مرت إلى جوار رأسه، لم تقتله، قتلت صديقه.

كان المشهد شاعرياً، على الرغم من الرصاص والقنابل، أما الموت فكان في خفته تراجيديا خاطفة، قاطعة وحادة.

«تمكنت من العودة بجثته».

وكأنه حقق انتصاراً. ربما لأنه أخفق في المرة السابقة، لم يظفر حتى بجثة. كان يقود شاحنة ضمن قافلة تموين، في مؤخرة الشاحنة جنديان جالسان ظهراً لظهر فوق أكياس الرمل، يوجهان رشاشاتهما صوب الطريق في تدبير وقائي ضد هجوم مفاجئ،

لمح بيرنز سيارة أوبل عراقية تخرج من درب ترابي جانبي، تراءى له أنها تهم بقطع الطريق، لا، كانت مندفعة نحوه، نحو الشاحنة، ولا شيء سيوقفها. الانتحاري الذي يقودها جزء منها، لا ينفصل عنها. كان الموت هاجماً. قفز من الشاحنة، تدحرج على الأرض وركض بعيداً عنها، احتمى وراء شجرة ضخمة، ظهره إلى جذعها، سمع من خلفه دوياً هائلاً، التفت لم ير سوى الدخان، الجنديان رفيقاه في المؤخرة تبخرا، في اللحظة التالية رآهما يتساقطان قِطعاً من العالي، أكبر قطعة لا يتجاوز وزنها بضع عشرات من الغرامات. أما الشاحنة، فكان اللهب يخرج من نوافذها، والتصقت بسيارة الأوبل وأصبحتا كتلة من الحديد المعجون بجسد الانتحاري.

كان بيرنز يفعل حسناً بتنزيل هذه الحمولات من الرعب عن كاهله، كان مقاتلاً، تعرض إلى الموت أكثر من مرة.

«لم يكن بوسعي تحذيرهما».

هذا يبرر تقاعسه عن أي مخاطرة مستقبلية. فهون عليه:

«أنتم لا تنتحرون بل تقاتلون».

تذكر أن الكولونيل قائد المعسكر أشار إلى حوادث انتحار.

«ألم تصادفك محاولات انتحار؟».

«إنها نادرة».

«أخبرني الكولونيل عن حصول أكثر من حالة انتحار واحدة».

«كانتا اثنتين».

وسكت بيرنز لم يرغب في المتابعة، استحثه كيلي:

«لا بد أنك تعرف شيئاً عنهما».

«لا، لا شيء مهماً».

لم يرغب في التحدث.

لم يبد على بيرنز أنه من نوعية أولئك الرجال الذين يقومون ببطولات ولا حماقات، وإنما جندي ينفذ الأوامر، يحاول قدر الإمكان الإبقاء على حياته، لا يضع قدمه خارج المعسكر إلا مضطراً، ربما كان جباناً، ما المشكلة؟ الأغلبية جبناء، عدا المتهورين.

مرة ثانية أو ثالثة، شرد كيلي عنه. انتبه بعد قليل إلى أن بيرنز كان يعلق على ما يجول في رأسه!! لا بد أنه توارد خواطر.

«موت رخيص، وما يدعونه جرأة كان زائفاً».

كان قد انتهز الفرصة كي ينفي عن نفسه تهمة الجبن باتهام الآخرين بجرأة كاذبة، الآخرون هم العشرة بالمائة أصحاب المعنويات المرتفعة. فسأله:

«سمعت أن المعسكر لا يخلو من رجال أشداء وشجعان فعلاً».

«هل قابلتهم؟».

«التقيت ببعضهم».

«هناك الكثيرون، هل رأيت السارجنت ماغواير؟».

«أعتقد أنني قابلته».

تذكره، كان طويل القامة ذا جسم رياضي ورأس ضخم، عريض الكتفين ومفتول العضلات.

«إنه منهم، يقتلون على مجرد الشبهة».

إلى ماذا يُلمّح بيرنز بالضبط، هل يريد التشكيك فيهم؟

«الحرب لا علاقة لها بالشبهات، تَقتل أو تُقتل».

«أقصد أنهم لا يترددون في القتل».

كاد أن يقول له الأذكياء يحافظون على حياتهم، أما الأغبياء فيفرّطون بها. لا، ليس من المعقول مخالفة ما تعارفت عليه الجيوش، وإلا اتهم بتثبيط معنويات المقاتلين.

«القتل يحتاج إلى شجاعة».

«كانوا يقتلون أيضاً بفعل الخوف».

لم يأخذ بمحاولته ردَّ الاعتبار لنفسه بإثبات أن بطولات الجنود كانت بفعل الضغط السريع على الزناد، لا الشجاعة.

الجلسة أصبحت هراءً ما دام بيرنز يفكر، كان ينبغي أن تمضي بعفوية، دونما أية رقابة أو قيود وحسابات، وبما أنه يناقش ويفند، فالجلسة انتهت.

طلب منه البقاء خارجاً في غرفة الانتظار ريثما ينهي الجلسة القادمة، بعدها سيحاول تدبير مأوى له لهذه الليلة.

لم يُعجل كيلي باستدعاء الفتاة والمترجم، لديه وقت فراغ نحو ربع ساعة، سيسترخي خلالها. قبل أن يتوجه إلى الأريكة، لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة إلى الخارج.

كان المشهد في الساحة الخلفية قد طرأ عليه تغير طفيف؛ الفتاة

والمترجم يتبادلان الحديث!! أخيراً أفلح الملل بدفع المترجم البدين إلى التكلم مع الفتاة، فأخرجها عن صمتها.

بدا المنظر البسيط واعداً بجلسة مريحة؛ لن تمثّل أمامي دور الخرساء، أو أضطر إلى التحاور معها بالإشارات.

6

المترجم العراقي

ليس الملل ما دفع المترجم عباس الزايدي إلى الكلام، ولا اشتداد حرارة الظهيرة، وإن سببت له ضيقاً في التنفس وتسارعاً في ارتفاع نسبة التعرق. كان قد اختار الصمت بعدما انصبّ جهده طوال وقوفه معها على ألا تتقاطع نظراته مع نظراتها. الفتاة أيضاً لم تُعنَ بالنظر إليه، متعمدة ألا يقع بصرها عليه. كان يواري وجهه عنها لئلا تلتقط شيئاً من ملامحه، ساعده أنها لم تعبأ به، لكن تحت ضوء النهار، لا بد ستراه، إن لم يكن الآن، فبعد قليل، عندما سيتواجهان لدى الطبيب.

البارحة صباحاً اضطر إلى مرافقتها، رغم إلحاحه على الاعتذار عن المهمة، أصر الكولونيل جاكمان على أنها لن تستغرق وقتاً طويلاً.

«ستنقذ فتاة عراقية صغيرة من الانتحار».

ومع هذا لم يرق له أن يكون مترجماً لفتاة من بلده.

قبل نحو سنتين، تعاقد المترجم عباس مع الدائرة التي يرأسها الكولونيل جاكمان، وهي دائرة لا تزيد على بضعة مكاتب في مبنى القيادة، رُوعي ألا يستقر عملها على مهام محددة، أُسست بعد الغزو مباشرة كجهة اختصاصها العمل على تحسين صورة أميركا في المنطقة، بعد أن أصبح العراق تحت النار مباشرة، وباقي المنطقة في متناول السلاح الأميركي. ردود الفعل دلت أنه لا يمكن تحسين صورة غدت بمنتهى البشاعة إلا على المدى الطويل، ودونما أمل بتحقيق نجاح كبير، فتحول عملها إلى تحسين صورة الاحتلال على المدى القصير، فتورطت الدائرة على غير إرادتها بحملات دعائية لدحض دعاوى ما سمي بحرب الأكاذيب، ولم تكن الحقائق المتوفرة لدى الكولونيل كافية للرد عليها. كان ما تزوده به الإدارة في واشنطن المزيد من الأكاذيب مما أثار الارتباك داخل الدائرة، ما اضطره إلى شن حملة إعلامية أخرى مختلفة، كانت مضادة لكل ما يخشى أن يوهن عزيمة الجنود في الحرب، بالترويج لما يحرزه الجيش من انتصارات في ساحات القتال، وإشاعة أن الخسائر في الحد الأدنى، فجرى التدخل في صياغة الأخبار اليومية التي توزع على الفرق والأفواج والكتائب، وإحالة بعض ضحايا المناوشات المحدودة إلى نيران صديقة أو حوادث عرضية، في محاولة للتلاعب بأرقام القتلى والجرحى... بالإضافة إلى إطلاق ادعاءات أشبه بشعارات، وعدم الخجل من تكرارها: النصر قادم عما قريب، لم يبق على سحق فلول المتمردين سوى القليل من الوقت. كان الجيش أول من لا يصدقها.

في الوقت نفسه، عمل جاهداً على طمأنة أسر الجنود في الوطن

إلى أحوال أبنائهم المقاتلين في العراق، فلجأ أحياناً إلى التزوير، بإرسال تطمينات إلى الأهالي ليست صادرة عن الجنود. كانت المهام محرجة وأكثر مما يمكن القيام به بصدقية معقولة.

عمل المترجم لم يكن على علاقة بهذه الحملات الدعائية، كان على علاقة بحرب أخرى، حرب الأفكار، وهي دعايات لم يأخذها بجدية، كانت من قبيل الثرثرة الغربية الدائمة حول الحرية والديموقراطية والليبرالية، تستقي أجنداتها من مراكز للبحوث الاستراتيجية تقبع في أميركا وتستلهم من إسرائيل الكثير من غاياتها، يعتقد الباحثون فيها أن لا بلد في العالم عصي على الديموقراطية ما دامت صناديق الانتخابات تقدم الدليل على فعل يمارس على الأرض، يختار فيه المواطن ممثليه بحرية؛ فكان عمله غير فعال، ما دامت الحرية مفتقدة، وممثلو الوطن يتمتعون بامتيازات تستبيح الشوارع والبشر. وهذا ما أراح ضمير المترجم من ناحية أن عمله لا يقدم ولا يؤخر، والمطمئن أكثر أنه لا يساعد على توطيد أركان الاحتلال. لذا كان تباطؤ العمل اللامجدي مبرراً، على الرغم من الأفكار الكبيرة المطروحة التي تبنّاها مختلف الأطراف المتنازعة على الحكم، لكنها لم تقنع واحداً منهم برمي السلاح طواعية، وانتهاج الحل الديموقراطي ولو كان إسلامياً.

ولئلا يبقى المترجم بلا عمل، كُلف بترجمة مقالات مختارة من الصحف العربية اليومية، التي ترصد اتجاهات الرأي العام العربي، وبأعمال مشابهة أخرى، اشترط ألا يمارسها خارج مباني القيادة، بل في الداخل وفي مكان محدد منه، مكاتب ما أصبح يُطلق عليه بتندر: دائرة الإعلام الدفاعي المتغير والمتبدل والمتنوع...

الأمر الذي لم يعرفه، أن الكولونيل بسبب علاقته القديمة معه

وثقته به، لم يعتمد عليه بصفته مترجماً، بقدر ما كان يرتاح إلى آرائه مهما كانت مزعجة، يتلمس من خلالها رأي رجل الشارع العراقي. لم يُظهر له هذا الجانب الخفي من علاقته به، خاصة وقد اعتبره دليله في الغابة العراقية التي تضم وحوشاً مسعورة في أجهزة الحكم، أغلبهم قادة ميليشيات لا رجال دولة، حتى إن إحساساً لازمه بعبثية جهوده، وبأنه كان يتخبط في المستنقع العراقي.

التراجع على الأرض كان مخيباً، مشاريع إعادة إعمار العراق المدمر لا تسير كما بُرمج لها، السبب الرئيسي ليس العمليات الإرهابية، بل تعسرها داخل أروقة القرار؛ ملايين الدولارات تتبخر من دون أن تترك وراءها أثراً، بينما التقدم على جبهة الأفكار حثيث ومثمر!! هذا ما كان يعتقده وقاله للمترجم. تلك كانت طريقته ليسمع آراءه.

بقوله هذا الذي لا يمل من الإشارة إليه، كان الكولونيل يحيل مرؤوسه المترجم إلى ما أحرزه من إنجاز يبرهن عليه الجدل الدائر والذي لم يهدأ في الصحافة العربية حول «ثقافة الموت» و«ثقافة الحياة». وهي فكرة اعتقد الكولونيل أنه أول من روج لها، ولم تكتسب هذا الحجم المثير للاهتمام إلا بفضل تسويقه المثالي لها، كانت مدينة له، مع أنها لم تكن أكثر من فكرة عارضة أطلقها أحد المهتمين الموتورين بالدراسات الإسلامية، صادفت تربة خصبة لدى الذين سئموا من النضال بأنواعه كلها، السياسي وغير السياسي، المشروع وغير المشروع، فأيدوا الاحتلال خفية، وعدّوا أنفسهم دعاة سلام ووئام ورخاء... مع بُعد نظر، وأدانوا المقاومين واتهموهم بكراهية الحياة، ووصفوا العمليات

الاستشهادية بالانتحارية، وأن أصحابها يحبون الموت، وهو نوع من العشق القتّال، توافقوا على أنه لصيق بالإسلام المتحجر، تمييزاً له عن الإسلام المرن.

المترجم لم يغير رأيه في ثقافات الموت والحياة الطارئة حديثاً على المنطقة، كان رأيه على النقيض من رأي الكولونيل: هل هناك من يكره الحياة ويحب الموت؟! لا، وأولهم المتدينون الذين ينهلون من «طيبات ما رزقناكم». أما لماذا الانتحار؟ فلأسباب لا تحصى، على التأكيد ليس أحدها حب الموت.

ولقد تناقش معه حول هذه الفكرة مراراً، ونسب رأيه لغيره. الكولونيل سواء أدرك هذا أم لم يدركه، عدّ انتشار ثقافة الحياة انتصاراً لجهوده، الإحصاءات تقول: على الرغم من تصاعد العمليات الانتحارية، لم تكن الغلبة للموت، الناس يريدون التمتع بالطعام والشراب والجنس والطبيعة والرحلات. صحيح أن الأحوال الحالية لا تسمح بالتمتع إلا بالعيش فقط ومن دون أية ضمانات، لكن في المستقبل ستسمح لهم بكل هذه المسموحات المغرية، الممنوعة الآن والمباحة فيما بعد.

المترجم نصحه بألا يتسرع ويخطط لرحلات سياحية إلى مناطق الآثار، هذا يحتاج إلى زمن يصعب تقديره، وبالتالي ألا ينخدع بما يكتب في الصحافة ويعرض في القنوات التلفزيونية، ما دامت أميركا تدفع ثمنه بالدولار.

على هذا النمط الساخر كانت تجري مماحكاتهما الدورية، والتي سمحت للمترجم بالتعليق على تساؤلات الكولونيل، مع أنها أسئلة جزافية لا على التعيين، واستغلالها لتمرير آرائه، كان أغلبها

تصحيحات لمعلومات الكولونيل نفسه.

بالغ المترجم في إسباغ الأهمية على نفسه، الكولونيل لم يكن بحاجة إلى من يصحح له معلوماته، بمتناوله عدة جهات استخبارية تزوده بالمعلومات الحقيقية، صافية ونقية، مما يجوز أو لا يجوز التصريح عنها. ما الذي كان الكولونيل يفعله بها؟ كان يشوهها.

لم يخطر للمترجم أنه كان إحدى قنوات الكولونيل السرية إلى ما يتناقل من انتقادات خارج المنطقة الخضراء. وإن كان هو الذي أصاب بعض أفكار الكولونيل الأثيرة بالتصدع، وكانت مؤخراً حول تزايد أعداد السياسيين الذين انحازوا إلى الحرية بشكل مطلق.

المترجم عارضه: لم يكن انحيازهم توقاً إلى الديموقراطية، ولا رفضاً للدكتاتورية. بل لأن الأبواب فُتحت أمامهم للنهب. وإذا كانوا يسعون إلى الإعمار والبناء فلأنهم يكسبون من ورائها دعاية انتخابية، لكنها لا تردعهم عن الفساد، ولو شكل فضيحة أخلاقية قد تقضي على المنصب والسمعة... ومستقبلهم السياسي.

الكولونيل لم يوافقه: بالعكس، جرأتهم لا نظير لها، إن إيمانهم بالحرية، يكلفهم حياتهم، على الرغم من الحماية التي يوفرها لهم حراسهم الأمنيون؛ وما شيوع الاغتيالات إلا لأنها أسرع طريقة لقتل الحرية.

ما فاجأ الكولونيل أن الشائع أكثر، هو أن شراء الحراس الأمنيين لم يكن عصياً، والاغتيال يُنسب إلى فاعلين غير مجهولين وجاهزين دوماً لحمل هذا الاتهام، لا ينفونه مع أنهم لم يفعلوها.

وهذه الاتهامات، تصب في أمجاد التنظيمات الإرهابية من دون أن تطلق رصاصة، فتعلن أكثر من جماعة مسؤوليتها. أما الفاعل الحقيقي فيبقى مجهولاً.

اليوم يتخذ السياسيون احتياطاتهم بإشراك الآخرين المتنفذين بالغنيمة.

كانت معلومات المترجم من فرط واقعيتها لئيمة، كان يشير إلى شركائهم من الأميركيين.

انتقادات المترجم المبطنة للديموقراطية والحرية تدل على أنه لم يتخلص بعد من تأثيرات عهد الدكتاتور السابق.

كان كما بدا لي ميالاً إليه.

رشح المدير السابق في وزارة الخارجية مرؤوسه عباس الزايدي للعمل مترجماً في قيادة الائتلاف. كان المدير ممن انقلبوا على النظام بعد سقوطه، وتعامل مع الاحتلال، وأحرز علاقات جيدة مع الأميركان، عجلت بها إقامته في المنطقة الخضراء، قبل أن تصبح خضراء، ومنحته حماية طبيعية دونما خشية من التهديدات، ما دام أنه قاطع بغداد الأخرى. لكن العائدين على ظهور الدبابات الأميركية، عارضوا ترشيح المترجم بدعوى أن عباس الزايدي حزبي بعثي، مع أنه أمسى بعثياً سابقاً. لم يقبلوا هذا العذر، كانوا جادين في اجتثاث الحزبيين البعثيين من وظائفهم، واستئصالهم من الحياة بتمويتهم جوعاً وكمداً، وإذا تمكنوا منهم فإعدامهم رمياً بالرصاص في بيوتهم أمام زوجاتهم وأولادهم، والتشنيع بجثثهم، ورميها في الشارع عبرة لغيرهم، من أمثال المترجم وأشباهه، فلم يحظ بالعمل المنشود.

فيما بعد، كان توظيفه في قلب المنطقة الخضراء منافياً لهذه السلسلة المرعبة من التشفي الأعمى.

> **جرى التساهل مع بعضهم آخذين بالاعتبار أوضاعهم السابقة في نظام لا يوظف أي شخص إن لم يكن عضواً عاملاً أو نصيراً في الحزب. التساهل شمله، راعت القيادة حاجتها إلى مترجمين، وإمكانية الاستفادة منه، بالرغم من ماضيه البعثي.**

عقب تخرج عباس الزايدي من جامعة بغداد قسم الأدب الإنكليزي، كان في عداد قائمة الطلبة المتفوقين المختارين لإرسالهم إلى إنكلترا في بعثة لاتباع دورة في الترجمة الفورية، لم يكن هذا ليتحقق، مع أنه كان الأول على دفعته، إلا إذا انتسب إلى الحزب، فتَبَعَّثَ على عجل، ولدى عودته عُين مترجماً في وزارة الخارجية، وشارك خلال العقد الأخير من عمر النظام بمؤتمرات عقدت في الداخل ضمت ممثلين عن دول صديقة وأحزاب يسارية غربية، وحضر مؤتمرات دولية حصد فيها بعض الثناء على جهوده، وأحياناً أخرى استخدمته جهات أمنية في لقاءات سرية وغير سرية مع مبعوثين أمنيين أوروبيين وأميركان.

طوال سنوات عمله في الوزارة، كانت كفاءته شاهداً على متانة مؤهلاته في الترجمة. وكان لها النصيب الأعظم فيما بعد على تغاضي قيادة جيش الاحتلال عن بعثيته، ليس لأن حاجتهم إليه كانت كبيرة، أمثاله كثر، بل لتدخل مسؤولين أميركان في السفارة تعرفوا إليه خلال زياراتهم لبغداد خلال سنوات الحصار، على رأسهم الكولونيل جاكمان الذي رافق أكثر من وفد إلى بغداد بصفته خبيراً، بينما كان جاسوساً رفيع المستوى. حينها كُلف

بدراسة إمكانية اختراق الحلقة الضيقة المحيطة بوزير الخارجية، وقع اختياره على المترجم، لكنه سرعان ما تراجع عن اعتماده جاسوساً بعد أن جمعته به مفاوضات متوترة، كان المترجم خلالها قومجياً متشنجاً، فأسقطه من حساباته المخابراتية، مع أنه كان يعرف أن التشنج من المظاهر الملازمة لصغار الموظفين، لكن ما استرعى نظره هو وطنيته الساذجة، كانت متصلبة تشكل مانعاً جدياً، أمام الإغراء بالمال، وكان البحث عن إغراء آخر، يحتاج إلى سبر عميق لشخصيته، لاكتشاف عامل قوي يحفزه على التخابر مع قوى أجنبية، دون الالتفات إلى أن عقوبتها الشنق لمجرد القليل من الشك، غير أن العوائق لم تساعد، فالمفاوضات التي دارت حول المناطق المحظورة والمناوشات على الحدود وبرنامج النفط مقابل الغذاء، والتفتيش عن أسلحة الدمار الشامل، أثمرت نجاحات ضئيلة لا تكاد تُذكر، وتهدئات مؤقتة سجلت تراجعات خطيرة لنظام يعاني من الاختناق، أخلفت تباعداً لا انسجاماً بينهما.

خاض المترجم مع الوفود جولات وجولات من المساومات الفجة والمناورات السياسية البدائية، لاحظ جاكمان خلالها محاولات المترجم البائسة في التعامل المرهق مع الطرفين المفاوضين؛ سواء في تخفيف مطالبات الوفد الأميركي غير المعقولة والتي لم يكن هدفها إلا استفزاز العراقيين، أو وهو الأسوأ، تخفيف غلواء مسؤولين عراقيين كانوا على الرغم من تبدلهم من اجتماع لآخر، متمرسين بالغرور والتصلب، وموالين حتى العظم لنظام منخور لا ينفع معه أي جدل أو نقاش، حماقته الكبرى، توهمه أنه سيستمر بالعناد ولن يزول بالقوة، ولولا التعليمات التي كانت تنهال على الوفد العراقي عبر الهاتف، تأمرهم بمواصلة الحوار، وكان بلا

فائدة، لما استمرت اللقاءات، ولولا أيضاً جهود المترجم لانهارت الاجتماعات قبل وصول التعليمات. كان له الفضل في إنقاذها مراراً بتدخلات يائسة لإنقاذ ما لا يمكن إنقاذه، وأدت جهوده رغم أنه مترجم ضئيل القيمة إلى نتائج إيجابية غير متوقعة، من الطبيعي ألا تثمر، قرار الغزو كان قد اتّخذ مسبقاً، ولم تكن المفاوضات إلا مماطلة متبادلة بتواطؤ كلا الطرفين، استثماراً لمزيد من الوقت الضائع سلفاً.

عاد جاكمان بعد الاحتلال وسأل عنه، هل ما زال حياً؟ فلم يتذكره القادمون مؤخراً إلى مسرح الحكم. ظن أنهم يتخفون على ما فعلوه به، لابد قتلوا المترجم الطيب بعد تعذيبه ودُفن بلا طقوس في مقبرة الغرباء، أو ربما قابع في ظلام قبو ما، إلا إذا كانوا يجهلونه كلية، وهذا مستحيل. كان العراقي الوحيد الذي لفت انتباهه. فواصل السؤال عنه بلا جدوى، لم يفطن إلى أنه معروف ضمن دائرة ضيقة لا يُعنى بها أحد؛ المترجمون!! إلى أن رجح اختفاءه بحكم عمله السري والدقيق في مرحلة حساسة، لم تسمح له بالظهور. أو أن نشاطه السابق في الكواليس واطلاعه على الأوضاع المتدهورة في بلده، وهو الأغلب ساعده على الهرب في الوقت المناسب إلى الأردن أو سورية.

عندما صادف اسمه على طلب الترشيح، كان قد مر وقت على التفاؤل الذي وفره دخول الجيش الأميركي، وأصبح تشاؤماً. لم يستوقفه أنه كان مدعوماً بتزكية من مسؤول واحد ذي منصب إداري، لا حول له ولا قوة، ومرفوضاً من ثلاثة مسؤولين لدى كل منهم ميليشيا من الملثمين المسلحين ببنادق أوتوماتيكية. تعجب من وجوده على قيد الحياة في دولة أصبحت على قيد الموت بعد

أن أُبيدت ونهبت خلال بضعة أيام. المفترض إذا بقي في بغداد بعد الغزو، أن يكون من أوائل من أبيدوا ومُثل بهم. ألم يكن مترجماً لمسؤولين كبار اختفوا عن الأنظار بعد سقوط النظام ما بين قتيل وفار ولاجئ ومعتقل؟!

ما الذي أنقذه؟! المفاوضات السرية نفسها التي حافظت على سريتها رغم استمرارها على فترات متقطعة خلال سنوات الحصار الطويلة. السرية شملته مع المفاوضات، فلماذا يكون مشهوراً؟ السرية تتعارض مع الشهرة، النظام السابق لا يسمح لرئيس ولا مرؤوس أن يظفر بها بجهده، أو من تلقاء نفسه. يمكن لأي مغوار أو بطل الظفر بوسام، لا بمنصب فعال صلاحياته تحيي وتميت، أو مركز مؤثر يؤهله للحل والربط، أو حتى لإبداء الرأي. للشهرة مقدمات هي القرابة والنفاق، وكان يفتقر لكليهما. بالإضافة إلى خضوعها لحسابات دقيقة وأثمان باهظة، هناك من يُخطط لها، ومن يحجبها أو يُبرزها. ثم لماذا يحظى بها مترجم، ما حاجته إليها؟! هل يجترح معجزة عندما يكرر ما قاله غيره؟

بالعودة إلى المفاوضات، لم تخل على الهامش من المناكفات الأخلاقية، وكان ضليعاً بها. أعجب به جاكمان، رغم انتقاده إجراءاتهم القاسية التي منعت الدواء عن الأطفال وقتلت الآلاف منهم، وحمّلهم مسؤولية الظلم الواقع على شعبه وجريمة تجويعه. لم يستطع الأميركان الدفاع عن موقف إدارتهم التي قادت هذه الحملة على المستوى الدولي. وهذا ما دفع بالكولونيل جاكمان إلى تقدير سذاجته، وإن كانت في غير محلها ولا وقتها.

تبدت سذاجة المترجم في تنحيته للعوامل السياسية، واهتمامه بالعوامل الأخلاقية فقط، مما أحال سطحية فهمه إلى جهله

لحقائق الصراع بين الدول. لم يكن بليداً، كان نزيهاً في زمن عصيب لا يحتمل النزاهة، وهذا ما جعله أكثر اطمئناناً إليه. ولهذا نصح باستخدامه في وقت لاحق كان عصيباً أيضاً، وكأنه يعوضه عن شظف فترة الحصار الطويلة. لو أنه أثناء المفاوضات أبدى نحوه قليلاً من المودة، لما نفع المترجم دفاعه المحموم عن شعبه، ولأودى به رجال النظام إلى مساءلات، والمساءلات إلى تحقيقات، والتحقيقات إلى السجن، والسجن إلى المشنقة.

> **ويشهد له الكولونيل جاكمان، أنه أثناء المفاوضات أيضاً، لم يكن يكرر ما كان غيره يقوله فقط، كان يُضيف إليه من خبراته المتواضعة وثقافته الأدبية، بعض الطرائف منتقداً بها النظام في العراق، لكنه كان يستثني الرئيس.**

كانت له مواقف مشهودة، تبدت في لحظات وصل فيها الأخذ والرد بين المتفاوضين العراقيين والأميركيين إلى طريق مسدود، وما أكثر ما كانوا يصلون من آن لآخر إلى الطريق المسدود نفسه. لكن في إحدى المرات النادرة، فقد المترجم أعصابه إزاء تعنت الطرفين، فما كان منه إلا أن انتفض واقفاً، وبسط يديه كأنه يشكو للرب أمره، قائلاً بالإنكليزية وبإلقاء مسرحي عالي النبرة ينضح بالأسى والأسف:

«إنه لبلاء الزمان، حينما العميان يقودهم المجانين».

ظن جاكمان أن المترجم نسي حرصه وترجم سهواً ما يتشدق به عادة المفاوضون العراقيون فيما بينهم بأصوات هامسة!! تنادى أعضاء الوفد الأميركي، وعزموا على الانسحاب ليس احتجاجاً

على اتهامهم بالعمى، بل على إهانة رئيسهم جورج بوش، مع أن تشبيهه بالمجنون أحياناً وبالغباء أحياناً أخرى من الأوصاف التي اعتاد بعض المعلقين السياسيين الغربيين إطلاقها عليه.

> **لم يكن عجيباً أن وصفه لأعضاء الوفد بالعميان لم يُغظ أحداً منهم، بل كان اعترافاً منهم بأنهم كانوا يعتمدون على ما يردهم من واشنطن من اتهامات وادعاءات يعيدونها بلا تمحيص. فلماذا يحتجون؟**

المترجم لم يستغرب، كان تجاوزهم لهذا الوصف جزءاً من عماهم.

وانبرى مؤكداً أنه لم يصدر عن الوفد العراقي أي كلام أو معنى بهذا الخصوص. ما قاله مأخوذ بالحرف الواحد من مسرحية «الملك لير» لشكسبير!! إلى هنا ولم يكن قد فسر شيئاً سوى أنه أهانهم بلغتهم الإنكليزية تلك القادمة من القارة القديمة. إذاً، ما زال القول يحتاج إلى تفسير!!

بيّن لهم، ولم يكن الأمر عسيراً، أنه اضطر إلى استعمال هذه الجملة التراجيدية الشكسبيرية لأن أوضاع البلد كانت تراجيدية حتى بدون الاستعانة بشكسبير، وتنطبق على وفد بلاده أكثر مما تنطبق عليهم، هناك مجانين في بغداد يقودون شعبهم إلى الدمار، وإذا كان قد قال هذا دونما تحوط، فلأن أعضاء الوفد يجهلون الإنكليزية، ولا يهتمون بالمسرح، وسماعهم بشكسبير لا يعني أنهم يعرفون الملك لير.

غير أنه نبههم إلى أنه لا يقصد الرئيس صدام، بل أعوان الرئيس.

ثم استدار نحو المفاوضين العراقيين غامزاً من المفاوضين الأميركان، قائلاً لهم إنه أفحمهم باللغة الإنكليزية، وبلكنتها الأم، ومن أحد سادة اللغة الإنكليزية: شكسبير بالذات، شبههم بالعميان ورئيسهم بالمجنون.

فامتدح رؤساؤه حذاقته وتعليقاته اللاذعة، بينما امتدح الأميركان ثقافته وجرأته.

في ذلك الوقت، كان هو نفسه أحد العميان، كان يعتقد بالقائد الضرورة، حتى أنه رضي أن يكون أحد المغبونين في نظام كان يشترط الولاء لا الكفاءة، الخنوع لا الشجاعة، الغباء لا الذكاء. فلم يحظ بأية امتيازات.

بعد الاحتلال، كان صريحاً مع نفسه: سكوته على حروب الرئيس القائد، عاد عليه بالأمان لكن مع المرارة، كانت حروباً خاسرة، وهزائم لا يمكن الدفاع عنها، لكن حينها من يتجرأ على الكلام؟! طالما رغب في تحذير الرئيس من أن أعداء النظام كانوا حوله وعلى مقربة منه، لا المودعون في السجون. آلمه أن صوته كان يقطع البحار والمحيطات ويصل إلى المقيمين في أميركا، ولا يصل إلى الرئيس المقيم في قصره على بعد مئات الأمتار.

دعم الكولونيل جاكمان شخصياً طلب توظيفه، ودافع عن المترجم: بعثي، مخلص لوطنه، خُدع بالشعارات مثل غيره. وضعه الحالي يؤكد أنه أجرى مراجعة مضادة للحزب. علاقته بالنظام السابق، كانت من خلال المبادئ لا المنافع. بالنسبة إلى المبادئ، لا خوف منها، الحرب جعلتها هباء.

وأضاف إلى رأيه تجربته التفاوضية معه: مترجم طيب القلب، لطيف، زلق اللسان، يمتلك من الحنكة قدراً أقل من الحكمة، متمكنٌ أكثر منا نحن الأميركان باللغة الإنكليزية. لم يقل هذا لمجرد التندر فقط.

وهكذا أصبح عباس الزايدي مترجماً في مكاتب الإعلام التابعة للقيادة المركزية للجيش الأميركي.

7

كم تعتقد أنني أساوي في سوق الخطف؟

على الهاتف، بعد أن اعتذر المترجم من الكولونيل عن القيام بمهمة الترجمة بين الطبيب والفتاة العراقية، اضطر الكولونيل إلى الذهاب إلى مكتب المترجم كي يقنعه بالمهمة. وجد مرؤوسه قاعداً فوق سجادة الصلاة الممدودة إلى جوار الحائط، باتجاه القبلة، حيث تربض الكعبة المشرفة في مدينة مكة بالحجاز. تذكر أن هذا وقت صلاة الظهر، لو انتبه إلى صوت المؤذن، لتأخر قليلاً ريثما ينهي المترجم اتصاله مع الله.

لفت نظره فوق الطاولة النسخة العربية من مجلة النيوزويك، على الغلاف صورة لوزير الدفاع دونالد رامسفيلد، كان يعرف أن جنرالات البنتاغون المتقاعدون ينوون إسقاطه، الموضوع الرئيسي يبدو عنه وعنهم. تشاغل بتصفح المجلة، في الداخل صور

للدوريات المشتركة للجيشين الأميركي والعراقي، وتحقيق عن الصين، وآخر عن قاتل بالتسلسل، وموضوع يبدو أنه عن التنحيف بسبب صور النساء البدينات. ألقى نظرة جانبية، المترجم قارب على الانتهاء، كان قد بسط يديه يتمتم بالأدعية.

انتظره بكل أدب ريثما يلقي السلام يمنة ويسرة على الملائكة المتربعين على كتفيه الأيمن والأيسر، وبذلك يكون المترجم قد أنهى صلاته الطويلة. كان الكولونيل يحترم الدين الإسلامي على الرغم من حرب كانت في جانب منها ضد الإسلام والمسلمين. هذا ما نصحوهم به، الاحترام فحسب حفاظاً على مشاعر العراقيين، بعض الأبحاث أكدت أنه لا إسلام بلا إرهاب، وحذرت من استفزاز الإرهابي في داخل المسلم: لئلا ينوي لك الشر؛ التفجير في حال كان بعيداً عنك، والذبح إذا اقترب منك.

لم يصدق هذه المغالطات، إنها الحرب وكفى. اطلع على الكثير من هذه الأبحاث، بالعكس بدا المسلمون في صلواتهم في منتهى الوداعة، وإن وجد فيها على الرغم من حيويتها مخاطبة خانعة للإله في حركات الركوع والسجود، صحيح أنها ليست مرهقة، لكن من أين يأتون لها بالوقت؟ خمس صلوات في اليوم، عدا ما يسبقها من غسل للوجه والأيدي والأرجل!! شكراً يا إلهي، على أنك خلقتني مسيحياً.

كان الكولونيل جاكمان مسيحياً صالحاً، مع أنه لا يواظب على التردد إلى الكنيسة. ولم يعتقد يوماً رغم ثقافته الدينية أن إله المسيحيين والمسلمين نفسه، كان بخلاف المترجم الذي يعتقد أنهما يعبدان إلهاً واحداً.

ولقد بلغ الإيمان بجاكمان أنه أصر على وجود إله واحد حقيقي يختص بعنايته أميركا بالدرجة الأولى، أما «غيرنا» فيعبدون آلهة مزيفة. وارتأى على القيادة في أحد تقاريره أن تصب جهدها على تحويل المسلمين إلى مسيحيين، لاسيما أنهم يبجلون يسوع في كتابهم المقدس، ولا ينكرون عذرية مريم ومسألة الحبل بلا دنس.

لم يفت جاكمان ملاحظة أن المترجم منذ تسلم عمله في الإدارة، قبل سنتين، رافقه وسواس أن يتعرف إليه أحد، فيصبح هدفاً للمقاتلين على مختلف تصنيفاتهم من دون استثناء، سواء المقاومون الذين يقاتلون ضد الاحتلال، أو الإرهابيون الدمويون، أو الجهاديون الإسلاميون، أو عصابات الخطف.

لدى قبولهم بتوظيفه، استغل المترجم سمعته السابقة مشترطاً شرطين، عدم مناداته باسمه الحقيقي، واعتماد لقبه أبو سعيد حتى مع الذين يعملون معه، رغم أنه لا ولد لديه اسمه سعيد، وذلك كنوع من التمويه. أما الشرط الثاني، فإعفاؤه من مرافقة وحدات المداهمة مهما كانت الحاجة إليه ماسة. كان حريصاً على أن يكون موظفاً نكرة، وكان دخوله مثل خروجه من المنطقة الخضراء لا يخلو من اللف والدوران. تبدأ رحلته يومياً من بيته في الأعظمية بالتسلل من مكان إلى آخر حتى يصل إلى مكتبه، لا يدخل من بوابة محددة، لئلا يلاحظ أحد خروجه ودخوله المستمرين. كان يحمل بطاقة موقعة من السفارة الأميركية بالإضافة إلى قيادة الائتلاف، تخوله الدخول من أي بوابة يشاء سواء من ناحية فندق الرشيد، أو من الرصافة عند بداية الجسر

المعلق، أو بوابة جسر الجمهورية، أو مدخل القادسية. وقد يضطر إلى المبيت في المكتب، إذا تأخر في العمل ليلاً.

تقيد بهذه الإجراءات وراعاها بدقة، ليس خوفاً على حياته، بل من أجل أولاده. توفيت زوجته في المستشفى إثر ولادتها الرابعة عند بداية الغزو. أكبر بناته في سنواتها المدرسية الأخيرة، وتتأهب للانتساب إلى الجامعة كلية الأدب الإنكليزي، كانت مثل أبيها متفوقة في الإنكليزية والترجمة البنتان الثانية والثالثة في المرحلة المتوسطة، أما الصغير أحمد فبدأ يتعلم المشي والكلام. تكتم المترجم على عمله بين جيرانه، فلم يعرفوا أن أبا أحمد، هو أبو سعيد الذي لا يعرفونه ولم يسمعوا به. كان الاشتباه فيه كافياً ليهدر دمه. خشي أن يشكل موته تهديداً أكيداً على حياة أولاده. المشكلة كانت، إذا لم يُقتلوا معه!! من يعيلهم من بعده؟!

بعدما طوى أبو سعيد سجادة الصلاة ونهض واقفاً، كلفه الكولونيل للمرة الثانية بمرافقة الفتاة الانتحارية، وكان مصراً. بعث الطلب في داخله القلق من جديد، وأحس بلحظة واحدة أن الهموم ركبته، إلحاح الكولونيل يعني أنه لابد من تنفيذ المهمة، وكاد أن يتهاوى فوق سجادة الصلاة المطوية.

كان عمله الآمن وغير المكشوف، قد بات غير آمن، وفي سبيله إلى الانكشاف.

رفض المترجم المهمة للمرة الثانية، واحتج بأن الفتاة عراقية مثله، وقد تتسرب أوصافه إلى الخارج. الضمانة الوحيدة للحفاظ على حياته هي البقاء مجهولاً، في حال تعرف إليه مخبر، لا محالة سيُقتل، كان بنظر جميع الأطراف عميلاً أو خائناً. هذا قابل

للحدوث من جراء إهمال بسيط. ألن تكون مرافقته للفتاة إهمالاً جسيماً يرتكبه بحماقة وبوعي كامل؟ ولديه أكثر من دليل على ما سيتعرض إليه، ويكفي واحد منهم:

«أليست الفتاة على علاقة بالإرهابيين؟».

الكولونيل لم يرد على سؤاله، اعتقد أن تلميح المترجم سببه الظن أنه تبرع به إلى جهات أخرى في القيادة، ولهذا بدا حانقاً؛ لاعتقاده أنه تخلى عنه، وكلفه بمهمة تضعه في قلب الخطر من دون الالتفات إلى وضعه الخاص.

أكد الكولونيل أنه لم يتخلَّ عنه، وهذه المهمة على علاقة وثيقة بعمله، وستقتصر على الترجمة حصراً، وفي مجال الطب، الطب النفسي تحديداً، ومع طبيب نفسي متخصص، ولمدة محدودة، ليست أكثر من أيام معدودات.

ولمزيد من الاطمئنان، أكد له أن الفتاة محتجزة في المنطقة الخضراء، ولن تخطو خطوة واحدة خارجها. ولمزيد من الأمان، وعده أنه في حال اختطافه من أية جهة ستتولى الدائرة دفع الفدية بالدولار، لن يعيقهم المال.

«كم تعتقد أنني أساوي في سوق الخطف؟» تساءل المترجم.

كان السؤال محرجاً للكولونيل جاكمان، فدية المختطفين الأجانب كانت في ارتفاع دائم، بلغت أحياناً ملايين الدولارات، بينما لا سعر للمترجمين في بورصة الخطف؛ حياة المترجم العراقي لا تساوي أكثر من طلقة في الرأس. عموماً هذه مسألة سوق، والأسعار لا يمكن التنبؤ بها، كانت خاضعة للعرض والطلب.

تجاوز جاكمان كل ما خطر له، وعلق بحزم:

«لن تصل الأمور إلى حد اختطافك».

بعدها لم يأخذ باحتجاج المترجم وتذرعه بتعهداته له. أكد أهمية العملية العلاجية للفتاة العراقية، كانت إنقاذاً لها، مما يعود على العراق بنفع كبير، ويدفع عجلة الترميم والتغيير والإعمار، ويعجل بخروج جيش الاحتلال وازدهار البلد ... حتى بدت الغاية من تحويل الفتاة من إرهابية إلى فتاة عادية، عملية وطنية تستحق العناء. ووعده إذا فشلت ألا تخلف أية ذيول ولا عواقب، وسوف تسلّم القيادة الفتاة إلى العراقيين، بعدها لن تراه أبداً، لأنها لن ترى النور على الإطلاق. وإذا نجحت عملية التحويل فلن يصيبها أي أذى، وحماية لها، لن تترك للعراقيين، سوف تسفّر إلى أميركا، بعد استغلالها دعائياً محلياً وعالمياً.

«طبعاً سنبعدك عن قصة، لا مكان لك فيها أبداً».

لم تكن هناك أية فائدة في إقناع الكولونيل بأنه لا يصلح لهذا العمل. كان الأمر مفروغاً منه تماماً، والمطلوب هو بالذات:

«إذا كان شفاؤها يحتاج إلى طبيب، فالأولى التفكير بمترجم حاذق».

وفات أوان أي اعتراض. كان الكولونيل قد أخذ يتكلم عن سلسلة عمليات قادمة يتوقع لها النجاح، والقيادة تؤمل منها الكثير: منع عشرات النساء من الانتحار.

«وليس في هذا مبالغة، ظاهرة الانتحاريات تُنذر بالتفاقم، وينبغي القضاء عليها قبل أن تستفحل».

رضخ أبو سعيد للمهمة من دون أن يتحمس لها. لكنه أقنع نفسه بها، وكان السؤال:

هل يمكن وصف هذه المهمة التحويلية بالعمالة؟

المهمة وطنية كما يبدو، وإنسانية أيضاً، ستنقذ أرواحاً من الموت، لا فرق بين العراقيين والأميركيين؛ وسوف تنعكس آثارها على الفاعلين، بعض هؤلاء الانتحاريات أمهات، إذا نجح بمهمته ينقذ عائلات من التشرد، وربما فتيات صغيرات السن يوفر على عائلاتهن أحزاناً هائلة.

هل هناك أكثر إيلاماً من فقدان أم لابنتها؟

8

ماذا تكون هذه الإنسانية؟

كانت الفتاة هي التي بدأت الكلام مع المترجم.

التفتت تبحث عن مكان قريب أكثر وقاية من لهيب الشمس، الحرارة لا تحتمل، فتنبهتْ إلى وجوده، أو أنها تذكرته، يوم البارحة كان يتبعها كظلها، يمشي إلى جوارها من مكان لآخر. اليوم انقلب الظل إلى رجل. أصبح أمامها، تفصله عنها بضع خطوات. بدا مختلفاً عن الجميع، فلم تخطئ عراقيته من ملامحه المتعبة، وقميصه القديم المبلل بالعرق. لكنها استغربت ملاحقته لها، وجوده على مقربة منها لا هدف له سوى مراقبتها. نهرته بعصبية:

«ما الذي جاء بك إلى هنا؟!».

كأنه لا مكان في قلعة الأميركان المحصنة إلا لعراقي معتقل.

حاول أن يشرح لها أنه ليس سجانها، ولا يرافقها لئلا تهرب، لقد طلبوا منه بصفته مترجماً، حضور جلسات علاجها مع الطبيب الأميركي، ليترجم بينهما. غمغم منهياً كلامه:

«ما سأقوم به سوف ينقذ حياتك».

«حياتي!!».

تساءلت بأسى واستغراب، كأن لا حياة لها.

«وقد ينقذ حياة الكثيرين غيرك».

فنظرت إليه بازدراء.

تضايق من رد فعلها، مادامت تنشد الموت، فقد أخطأ الوعد. الصغيرة لا تعبأ بحياتها فلماذا تهتم بحياة غيرها، تنوي قتل أكبر عدد من الأميركيين، لكنها لن تقتل غالباً سوى العراقيين. تمالك نفسه، لم يتوقف عند نظراتها المزدرية ولا تساؤلها الجارح، لئلا يستعيد قصتها موجزة جداً كما أخبره بها الكولونيل جاكمان: اسمها بثينة، طالبة جامعية في السنة الثانية كلية الاقتصاد، تدعي أن جندياً أميركياً اختطفها واغتصبها على مدار ثلاثة أشهر، أجهضت خلالها مرتان.

لم يسأل أكثر، لم يرد معرفة المزيد.

جاكمان لم يكذب على المترجم أبو سعيد، وإن كان يختلف عما أخبرني به أدامز الذي كان يعرف ويكذب. ما يعرفه جاكمان عن قضية الفتاة بثينة قليل، وصله هكذا من القيادة، ولم يهتم بها إلا من ناحية أن

المعالجة ضرورية من أجل التحقق من ادعائها، إذا كان صحيحاً فسوف يساعدونها ويعاقبون الفاعل. أما نصيبه من هذه القصة، فهو كما فهمت في ذلك الوقت استغلالها إعلامياً.

في حين كان ما ساقه لي أدامز لتبرير الاهتمام بها هو أن القيادة تسعى إلى دراسة ظاهرة الانتحاريات، لا قضية المغتصبات التي لا ترقى إلى مستوى الظاهرة.

تأملها، أشفق عليها، رأسها الصغير يعج بأحقاد تفوق أمارات التعاسة البادية على تقاطيع وجهها الدقيقة. أنحى باللائمة على نفسه، المسكينة ذاقت الأهوال. كيف لم يخطر له حتى الآن، أنها عانت أكثر مما يمكن أن تطيقه فتاة في عمرها!! قال مهدئاً خواطرها:

«يا ابنتي لا تشغلي بالك».

«لست ابنتك».

«عمرك يماثل عمر ابنتي الكبرى».

تضايق لأنه تقرب إليها على هذا النحو، لم يكن يكذب، وإن كان عمرها لا يماثل عمر ابنته، فهو يقاربه، ربما كانت تكبر ابنته بسنة أو سنتين، عمر ابنته لا يزيد على سبعة عشرة عاماً، وتشبهها أيضاً. لم يرغب في سؤالها عن حقيقة مصيبتها، خشي على ابنته من شيء مماثل أو مقارب، ولو لمجرد خاطر عابر. وتخيل بالرغم منه فزعاً أنها لو كانت ابنته فسوف تفوق مأساته مأساتها، ولن يتركها فريسة لبراءتها المسلوبة، سيبذل المستحيل من أجل... من أجل ماذا؟ من أجل هذا الذي لن يستعاد.

ويحاول أن يصلح ما تحطم في داخلها. ويمنع عنها الأذى، أذية نفسها، وأن يسعى لتعيش، تعيش مع ذلك الشيء الذي لن يمحى أبداً.

تمنى في هذه اللحظة وبكل قواه أن يحتضنها ويضمها إلى صدره، لتشعر أنها ليست وحدها مع مأساتها، إلى جوارها أب، وإن لم يكن أباها.

«ثقي بي، سأساعدك».

«ساعد نفسك».

حركت في داخله حسرة حاول إخفاءها، وجعلته يتورط معها، ويضيف إلى مهمته مهمات أخرى، أراد أن يسقط الأخيرة منها فقط، فأجابها معترفاً لها:

«لو استطعت مساعدة نفسي، لما كنت هنا».

انتترت قائلة:

«كيف تقبل أنت العراقي، أن تكون عميلاً لهم؟».

ضربته على الوتر الذي ينكد عليه. لم يجرؤ على الإنكار، مادام في الجانب الأميركي، فهو يعمل لحسابهم، لو لم يثقوا به، لما وظفوه لديهم، لكنه ليس عميلاً لهم. لن تفهم هذا، ولن يقوله. نبس آسفاً:

«ليتك لم تقوليها».

كانت قد آلمته وذكّرته بما حاول دائماً نسيانه، وجاهداً التنصل منه، لا تسويغه. لن يتذرع أمامها أنه مترجم يعمل مع الأميركان،

ولا أن عمله يفرض عليه التواجد في المنطقة الخضراء، ولا أن زوجته متوفاة، ويعيل أولاده الأربعة. سنة كاملة وهو بلا عمل، مدخراته كانت على وشك النفاد.

«ليتك لم تقوليها» كررها صادقاً.

إزاء محنتها وعنادها، لن يسألها النظر إلى حالته بعين الرأفة؛ مبرراته ضعيفة، والقوية منها لن تكون إلا أكاذيب. كيف يرضى أن تكون هذه الفتاة ضحية جندي أميركي، بينما هو موظف لدى الأميركان؟ ما العدالة في هذه القسمة؟! فتاة دمر الاحتلال حياتها، بينما أنعش حياته. وماذا يعني طلب الكولونيل منه المساهمة في شفائها، ترى ما كنه هذا الشفاء، سوى أنه سيبطل لديها الرغبة في الثأر، والإذعان لمصيرها المشين، بعدم التفكير بالانتقام. إن لم يكن عميلاً للأميركان فماذا يكون؟ عميلاً للإنسانية، ماذا تكون هذه الإنسانية؟ الجندي مرغ جسدها بالوحل، والآن سيقتل العلاج روحها. أليس هو من يعاونهم على فعلتهم، خائن لبلده؟

كانت قد حطمت ببضع كلمات دفاعاته كلها.

شيء واحد جعله يحس بالحسد نحوها، أنه لن يستطيع امتلاك ولو نزراً يسيراً من جَلَدها ولا تصميمها، ربما لأنه بحاجة إلى مأساة، غير أن المأساة لو حصلت فستكون من نصيب أولاده.

فاجأته نظراتها المشفقة عليه، ومنحته بعض العزيمة. لا، لن يوفر جهداً من أجلها، رغم ضآلة إمكاناته. ترى هل ستصغي إليه، بينما هي تحتقره ولا تخفي اشمئزازها منه، وقد لا توفره بعد قليل من شتائمها؟ ما الذي ينفع معها حتى تثق به، ما دام قبولها بأية مساعدة من جانبه يُعد بمثابة الخيانة والعمالة؟

سرعان ما أخذت نظراتها تتبدل كالبرق، عيناها تلوبان، لا تثبتان على حال، من الرثاء له، إلى الحزن على حالها، إلى الأسى، وربما الخوف من الآن، أو الآتي... أم أنه يختلق لها معنى ومعاني، يدرك أنه لا يرى، مجرد أنه يتخيل كيفما اتفق له، وربما مسّه خلل في عقله لا في نظره!! مسح بكفيه العرق عن جبينه وعينيه، علّه يرى أفضل. حملق في وجهها، نظراتها لا تُحتمل؛ حانقة، غاضبة، قانطة... عيناها تتهمانه، ولا نجاة منهما. كان التماهي بينها وبين ابنته قد حدث وبلغ حده الأقصى خلال لحظات، خشي ألا يميز بينهما. سارع يبعد صورة ابنته عن ناظريه بحركة نزقة من يده. لم يكمل حركته. الخيال جمح به إلى حيث لا أمل لها إلا في الموت!! وإذ ارتد إليها، كانت ترمقه بعينين كسيرتين.

إذا كانت هذه نظرة فتاة مغتصبة؛ فيا إلهي كم أُذلت وأُهينت طوال أشهر من جندي لا ضمير له!!

سأوضح شيئاً لئلا يلتبس الأمر بيني وبين المترجم، التحقيق الذي أُبلغتُ به، كي أعالجها على أساسه، أشار إلى أن ادعاء الفتاة فحواه أن جندياً أميركياً اغتصبها، المحقق نسب هذا القول إليها، أدامز قال ربما كان عراقياً، عدا هذا لم أُزود بمعلومات أخرى. التركيز كان أن الحادثة محدودة ومعزولة. وكان توخي إشاعتها مقصوداً على هذا النحو حتى ضمن نطاق ضيق جداً ليجري اعتمادها رواية وحيدة، فيما لو تسربت إلى العلن، لا تثير لغطاً في الصحافة، يسيء إلى سمعة الجيش.

أراد أن يواسيها، لكن علق الكلام في حلقه. كانا على طرفي نقيض، هي قطعت صلتها بالعيش، أما هو فيريدها أن تعيش. صمتها أتاح له التفكير بشكل عملي، ربما بواسطة وسيلة ما، يُطلعها على ما سوف تواجهه بعد قليل؛ الأجدى جعلها تدرك خطورة وضعها.

لاح له منفذ شكلي، كان في الإصرار على استعمال كلمة «شفاء» دون غيرها، ميزة تخفي مساوئَ الإنقاذ، الإنقاذ يعني إسعافها من الموت، بينما آمالها منصرفة إليه. أما الشفاء فيختلف أمره، انتقال من حالة سيئة إلى حالة أفضل، ما يجعل حالتها مرتبطة بالطب والدواء والمستشفيات، لاسيما أنهم يقفون إلى جوار مستشفى، وعلى هذا سيبدو الشفاء من طبيعة المكان.

«يعتقدون أنك مريضة، ويرغبون في شفائك».

«أعرف، سيجعلون مني مجنونة».

«اطردي هذا الخاطر من رأسك، وفكري في نفسك. ليس في علاجك أي ضرر لك. صدقيني، أنا لا أكذب عليك، أريد لك الشفاء، وسوف أعينك عليه بكل قواي».

هالها هذا الدفق من العطف والرجاء، كان مجرد شخص لا تعرفه يتكلم بحرارة، وإذا كان صادقاً كما يدعي، فلتفصح له عن مرادها. رجته بصوت مرتعش لا يكاد يسمع:

«لا أريد البقاء في بغداد، لا أحد لي فيها».

«ستذهبين إلى حيث تشائين، لكن بعد أن ينزعوا من رأسك الأفكار المسيطرة عليك».

تبدى الرعب على ملامحها:

«ما الذي في رأسي؟!».

أحس بالهلع، إذا كانت قد تخيلتْ آلات وأدوات سيحفرون بها رأسها، ويستخرجون منه الجندي الأميركي، فقد خسر ما كسبه من ثقتها.

«يظنون أنك إرهابية بسبب ما أصابك، وتنوين الانتحار بقتل أكبر عدد منهم».

«كل ما أريده هو أن يسمحوا لي بالذهاب إلى بعقوبة».

«ماذا هناك؟».

«بيت عمي وأولاده، هم كل ما تبقى لي من أقربائي».

«ليس قبل أن تنسي ما مرَّ بك».

لم يكن حزره في محله، وهي تكبت صراخها:

«لا أريد أن أنسى».

كانت دموعها تسيل على خديها.

أدرك دون أن تضيف شيئاً أن الدموع لا تغسل العار.

«تخيل أنني ابنتك».

«يكفي، لقد تخيلت».

«لا أريد أن أشقى».

أطرق برأسه، ما تطلبه كان عادلاً.

«هل تعدني؟».

«بماذا؟».

«ألّا تساعدهم على شفائي».

وصله صوتها، لا تسأله بل تتوسله. لن يمتثل لهم، حياتها لا تعني الأميركان إلا كي لا يؤذيهم موتها.

وصله صوتها ثانية، قبل أن يسترسل في تصوراته ويتيه فيها.

«لم تجبني».

لم يكن واثقاً مما كانت تنوي فعله، هل تريد الانتحار، أم الانتقام، أم الثأر لكرامتها، أم الذهاب فعلاً إلى بعقوبة؟!

ماذا في بعقوبة سوى تلك الجماعات التي ستؤهلها للموت؟

ومع هذا تمنى أن تمتنع على الأميركان، وأن ينقذها الله، قال لها:

«أعدك ألّا أتواطأ معهم على شفائك».

«أهذا اتفاق؟».

رفع رأسه إلى السماء.

«اتفاق، والله شاهد».

9

تفسير شيء مجهول بشيء غامض

تقصَّد كيلي أن يدع الفتاة والمترجم ينتظران دورهما في الساحة وقوفاً على الأقدام يصطليان تحت شمس الظهيرة الحارقة، لا جلوساً في الردهة الصغيرة ينعمان بين الجدران بجو معتدل أقرب إلى البرودة. كانت هناك عدة مقاعد وضعت بهدف الانتظار. غير أنه استحسن النأي بمهنته عن شبهة معاينة فتاة عراقية، والأسوأ إرهابية. كان تصرفه ينم عن بعد نظر، حتى لو كانت القيادة أوصت بها.

لم تخدعني خطوة القيادة، وإن بدت لدواعٍ علاجية، حتى لو استمر اهتمامهم بالفتاة، فلن يخفوا نواياهم طويلاً، سيضطرون لإظهارها ولن تكون في الحقيقة إنسانية، هذا إن لم تستبدل بغيرها أو تُلغَ لدوافع أمنيّة. توقعت أن يستدعيني أدامز بعد أيام ويبلغني بوقف

الاهتمام بها، والسبب جاهز: في حال استعادت الفتاة حالتها الطبيعية فلكي تجدد عزمها على القتل.

كنت متشككاً في دوافعهم، يقيني أنهم إذا أرادوا شفاءها فمؤقتاً، كي تستخدم شهادتها في الرد على الجماعات الإرهابية.

فكر في اتخاذ الاحتياطات نفسها بالنسبة للجلسات القادمة، كي لا يصادفها مرضاه الجنود في العيادة، وتخالجهم بضعة وساوس لا مفر منها، هل سيتمددون على الأريكة نفسها؟ من يدري ما تحمله هذه الفتاة من أمراض معدية؟ لا يلومهم، العدوى واردة في بيئة ملوثة بكل شيء، من الجراثيم المعروفة إلى الأوبئة الدورية.

خرج إلى غرفة الانتظار، وجد بيرنز جالساً مغمضاً عينيه، ومسنداً رأسه إلى الحائط. طلب منه النزول إلى الساحة وإبلاغ المترجم والفتاة بالحضور. دله عليهما من النافذة، كان الحديث قد انتهى بينهما.

تريث يراقبهم. خرج بيرنز من المبنى، تمشى على مهل مقترباً منهما، تحدث مع المترجم، ثم حدث شيء غريب، قد يكون جراء كلمة قيلت، أو حركة بسيطة غير ملحوظة، جعلت بيرنز يقفز كالملسوع، ثم يتراجع إلى الخلف، يدير ظهره لهما وينطلق عائداً نحو المبنى. سارعت الفتاة تلحق به، كأنه استدعاها وحدها، بينما تباطأ المترجم في التحرك، وبان عليه الارتباك وهو يحث قدميه القصيرتين وراءهم.

لم يكد يسمع صوت الباب الخارجي يُفتح حتى سمع صراخاً لم يفهم منه شيئاً، كان كلاماً بالعربية والصوت أنثوياً؛ النزعة الإرهابية

للفتاة سبقتها مقتحمة سمعه. في حين انشق باب العيادة عن بيرنز، دخل مصفر الوجه هارباً منها، ومستنجداً به، كانت مندفعة وراءه، تلاحقه وتزعق وهو يتلفت لاهثاً باحثاً عن مخبأ. ولا مكان فارغاً سوى تحت الأريكة أو الطاولة، كلاهما كانا غير صالحين لإخفائه.

سارع كيلي وحال بينهما. بينما وصل المترجم والجندي الحارس. تقدم الجندي متسائلاً بغلظة عما يجري، أوقفه كيلي وصرفه:

«إذا احتجت إليك فسأناديك».

التفت نحو المترجم، وتردد لحظة يبحث عن اسمه في رأسه، تذكره فوراً، أبو سعيد!! استعاد معه غرابته، ماذا يعني أن يكون اسمه هو أنه أب ابنه!! سأله:

«أبو سعيد، ما الذي حدث؟».

رفع أبو سعيد كتفيه بحيرة، كان مثله لا يدري، وبيرنز المذعور لم يفتح فمه بكلمة، يلتقط أنفاسه بصعوبة بعدما اندس خلفه. بينما توقفت الفتاة عن الصراخ، وأخذت تتكلم بعصبية، حتى المترجم الذي ارتد يصغي إليها مبهوتاً، بدا مباغتاً، يحاول تهدئتها.

كيلي لم يفهم شيئاً من هذا اللغو الذي احتدم في الفوضى التي تهيأت فجأة، فعلا صوته يسأل المترجم:

«ما الذي تقوله؟!».

تردد المترجم، فأعاد كيلي السؤال حانقاً. قال المترجم بصوت منخفض، كأنه يعتذر عما سيقوله، وكان مندهشاً حتى أنه أدهش

الطبيب قبل أن يسمع كلامه:

«تقول هذا الجندي هو واحد من الذين اختطفوها».

كاد أن يطلق ضحكة، تجمعت في فمه، ليس مما سمعه، بل من هيئة أبي سعيد، كان على وجهه ملمح غريب، مثل اسمه الغريب، أسبغ عليه لمسة كاريكاتورية كوميدية فاضحة؛ كان شارباه الصغيران على غرار شاربي شارلي شابلن!! لكن بعد أن قال ما قاله، لم يعد التشابه عرضياً، أقنعه شارباه بأنه يهرج. لم يعد المشهد الفوضوي أكثر من مشهد ترفيهي.

غير أنه لم يضحك، كان أبو سعيد جاداً، والفتاة انتبجت عروق رقبتها، وجحظت عيناها المحدقتان بثبات إلى بيرنز الذي ما زال مذعوراً.

توارى المشهد الطريف ولم يعد قابلاً للتفسير إلا على أن الفتاة تنتابها التخيلات، تظن واهمة كل من يلبس الملابس العسكرية الأميركية الخضراء المبقعة، قد اغتصبها، بل وأخذت تتصرف بثقة، وكأنها تستطيع بوقاحة مع بضع كلمات غاضبة، إثبات أن مجموعة من الجنود اختطفوها، وليس جندياً واحداً، وأن الذي اغتصبها أكثر من جندي. لم تكتف بذلك بل عينت مغتصباً منهم، ووجهت الاتهام إليه. أما المتهم البريء المتسمر خلفه، فساعدها بخوفه منها على إدانته، مع أنه لم يهرب منها إلا لأن صراخها الهستيري اتخذ طابعاً هجومياً.

هل كانت زلة في الكلام؟ من المحتمل ألا تكون تعمدت ذلك، فاستوضح المترجم:

«اسألها، هل كانوا أكثر من واحد، تأكد منها؟!».

لكن الاتجاه تبدل، ارتدت تصرخ في وجهه لا في وجه بيرنز:

«ما الذي تقوله لي؟».

«تقول اسأل الجندي».

«لن أسأله. قل لها، فلتصمت».

أبو سعيد لم يتجاوب معه، احتج على إسكاتها بتركها تتكلم. لكنها صمتت بغتة، والتفتت نحو بيرنز، وبدا من قبضة يدها أنها تهدده. الأمر الغريب هو رد فعل بيرنز الخانع، كان عليه ألا يتخاذل عن الرد بقوة!!

أحس كيلي بشيء يحدث ولا ينكشف له؛ لن يتسرع، حاول إفهام المترجم الالتباس الذي وقعت فيه الفتاة، تظن أنها أمام قاضي تحقيق، لا بحضرة طبيب.

«قل لها: إن الطبيب، لا يعنيه من اختطفها أو اغتصبها، إذا كانت تختلق دليلاً على أنها ضحية مسكينة، أو تهيأ لها ذلك. فجهلها وحده صوّر لها أنها نجحت. انصحها بتأجيل ثورتها بضعة أيام، وسأحولها إلى محقق».

أبو سعيد الذي ترجم كلامه، لم ينصحها، وإنما كما يبدو شجعها على الإفضاء بما لديها، بمعاودة الإصغاء إليها. فارتدت تتكلم، لم يترجم شيئاً مما قالته، وإن ظهر عليه التأثر الشديد مما كان يسمعه منها!!

انزعج كيلي من تقاعس أبي سعيد، لم يكن حازماً كما هو

مفترض، على العكس كان سخياً بالإصغاء إليها، بل وعاملها بمنتهى الرفق. ولكي لا تظن الفتاة أنها أقنعتهم أو ستقنعهم، قاطعها كيلي بحدة قائلاً لأبي سعيد:

«هذا الضجيج لن ينفعها، سأستمع إليها بشرط أن تتكلم من دون صراخ، وأن تحرص على نطق كل كلمة بتؤدة».

كان حسب ظنه، قد سيطر على الموقف بانتزاع المترجم من انهماكه في الإصغاء إليها.

دار في ذهني شيء مغاير تماماً؛ هذه الجعجعة تُسهِّل مهمتي معها، إن لم تنهها، بتحويلها من علاجية إلى بضعة أسئلة، أثبت بواسطتها أنها لم تُغتصب، وإنما إرهابية لا جدوى من علاجها. أما قصتها الغرامية الرومانتيكية مع الأميركي أو العراقي، فمختلقة، لا تنحو إلى أن تستغلها فحسب، بل أن تحيلها إلى قضية قذرة.

لن يكلفني أمرها سوى رفع توصية إلى القيادة أنصح بتسليمها إلى العراقيين، إنها مسؤوليتهم. لن يكون مصيرها أفضل من الرئيس المخلوع، ألم يحكموا عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت؟ أو يجدوا لها عذراً، ويطلقوا سراحها لتتفجر في سوق أو مسجد مكتظ بالناس، هناك الكثير من البشر الذين ستسعدهم هذه الهدية القاتلة ولو كانوا ضحيتها؛ الموت خلاص في بلد يفتقر إلى كل شيء، لاسيما هذا الزخم من التدين الأعمى، موت كهذا ظفر بالشهادة. أليس هذا ما يطمح إليه القاتل والقتيل معاً؟

ترجم أبو سعيد صاغراً تحذيره لها، لكن بلا فائدة، الموقف ارتد مهلهلاً، الفتاة عادت تصرخ. ألقى نظرة إلى الجندي بيرنز، كان منصتاً إليها، فاستغرب ما الذي يتسمع إليه مادام لا يفهم حرفاً واحداً مما تلغو به؟ سأله:

«هل لديك فكرة عما تقوله هذه المجنونة؟».

رد عليه بيرنز بآلية غريبة:

«ما تقوله صحيح».

من فرط ما كان رده مخيباً كدت أن أصفعه على وجهه، لم أتصور أن اللعبة انطلت عليه، وانساق إلى هذه الأحبولة؛ وكأنها تمكنت من تنويمه مغناطيسياً، وجعلته يردد بالإنكليزية ما قالته بالعربية.

«وهل فهمت ما قالته؟!».

«كنا ستة جنود، هذا ما تقوله».

لم أثق باعترافه الفوري، بدا مسلوب الإرادة، وعلى وجهه تعبير أقرب إلى البلاهة. ما أزعجني أنني عندما نويت التخلص منها استسلم لها بكل بساطة. بل وتعاون معها باعترافه أنهم كانوا ستة جنود. هذا الأحمق!!

«ألا تدرك أنك تصادق على كلامها؟!».

«إنها الحقيقة».

إذا كان لا يكذب عليه، فهو أيضاً سيستجره إلى تكبد عناء

جلسات اعتراف مطولة بدل جلسات علاج مختصرة. هل تستوجب تحليلاً نفسياً؟ لا، طالما الجرائم متكاملة وموصوفة: اختطاف، احتجاز، اغتصاب جماعي...!!

لكنه تروّى، مازال لديه بعض الوقت، يسمح له قبل أن يودّع التحليل النفسي الاستعانة بفرويد مع أن اكتشافاته واستنتاجاته لا تروقان له كثيراً، ولا يمكن تعميمها، يعرف هذا من استبطانه لنفسه؛ عقدة أوديب لم يمر بها، ما زال يكره أمه، ولم تتحسن علاقته معها حتى الآن، ربما كان يشعر بالدونية، لكن لأسباب غير جنسية، ويتذكر أن نزواته الطفولية مع البنات الصغيرات، كانت بريئة تماماً...

ومع هذا لا بد من فرويد إذا أراد سبر غور بيرنز، وهذا يحتاج إلى معرفة أية مرحلة طفولية توقف عندها نموه النفسي؛ الفمية أو الشرجية أم القضيبية. بيد أنه لن يكلف نفسه عناء التقصي، ولا يريد معرفة على أي شكل تحددت شخصية الجندي المهزوزة. في النهاية، لن تكون سوى تفسير شيء مجهول بشيء غامض.

ومع هذا حاول الاستعانة بمرضى لديهم قصص مشابهة، على الأغلب لن يختلف عنهم، ما دام يسره أن يكون متهماً، وإلا فلماذا تستهويه فكرة تحميل كاهله بجريمة لم يرتكبها؟! تبدو أوضح ما يكون في عدم تحكمه بما يهرف به، وإذا كان اعترافه مجرد فلتة لسان، فقد كشف عن دخيلته التي يجهلها. ها هو سواء كان واعياً أو غير واع عثر على فتاة أسندت إليه جريمة، دغدغت بها مشاعره، تفاقمت خلال لحظات إلى حزمة من الجرائم لا تضيره، ما دام يرغب في إدانة نفسه.

وفي الطرف المقابل فتاة، هي دون مراء فتاة غير عادية، تمتلك فراسة بالأشخاص المأزومين نفسياً، تبحث عن ضحية ملائمة، فعثرت على مذنب بلا عقل ولا ذنب جناه، لم يُخيّب حدسها، طوعته بلمح البصر، ولم يبق إلا أن تفترسه.

لا، مستحيل تلاقي حاجتين ومصادفتين في آن واحد!!

لم ترق لي هذه الفكرة الخارقة، مع أن هذا التواقت الدقيق كانت مواتياً لذلك السحر الذي لا يزيد على الشعوذة، لكن بعد أن دكت بغداد بالقنابل لم يعد هناك سحر ولا أسرار، بل عراق كسيح، مكشوف كما راحة اليد. عدا أن هذه الفكرة المثيرة جداً لا تطيقها الهيئة البائسة للفتاة الصغيرة السمراء الملفوفة بالسواد. كان في ادعاءاتها اتهام لا يصح تمريره دونما تمحيص، كان برأيي غير صحيح ولا مبتكر، لا يمكن لجندي أميركي أن يجد متعة في اغتصاب فتاة أشبه بغصن شجرة يابسة، تتقصف لدى أي محاولة لاعتلائها، ولو كان الفاعل هزيل الجسم مثل هذا الذي اعترف أمامي بكل غباء بما ارتكبه أو لم يرتكبه. لو كان سليم العقل لأنكر الاتهام. كان بحاجة للعلاج، على الأقل ليكذب.

توقفت عن الصراخ، وأخذت استراحة، ريثما تسترد أنفاسها وتعاود الزعيق. قبل أن تبدأ من جديد، قرر إيقاف التسارع القادم، مع أن الفاصل الذي شهده، لم يدعه يحدد، هل ما حدث نجم عن جنون، تبصر، خداع، خبث، حاسة سادسة...؟!

نظر إلى بيرنز، لم يتلمس منه إنكاراً أو يجد لديه دعماً، الأبله كان مسروراً، مستسلماً لجرائم لا تحقق أية متعة، كان كما يبدو له، لا يعاني قدر ما يطلب المزيد، بعدما عثر على ما يغذي إحساسه بمعاناة لا يسد رمقها القليل.

الحل الذي لا بديل عنه، انتزاعه من حمأة هذه الصرعة، عسى يسمح له بعض الهدوء باستعادة صوابه. أمره:

«اذهب وانتظرني في الندوة. تناول شيئاً بارداً، استرخِ ولا تفكر بشيء».

لم يختر الندوة اعتباطاً، اختارها كي لا تراه الفتاة عندما تخرج.

تساءل وهو يراه يمضي مسرعاً كأنه ينجو بجلده:

إن لم يكن هذا الموقف مفتعلاً، فهل يكون مصادفة لعينة؟

10

لماذا العيش؟! لا شيء مشجعاً

تجاهل كيلي ما جرى قبل قليل، وأخفى استياءه من المترجم كي لا يتوجس منه. كان رغم عدم تعاونه، رجلاً بسيطاً. لابد من شيء يبدد ما حدث، قبل معاودة الترجمة، والتظاهر بأنه لم يحدث. ربما في التقرب من المترجم.

ترك أبو سعيد لديَّ أثراً مزعجاً، كان خرعاً وضعيف الشخصية، لم يسيطر على الفتاة، تجاهل طلباتي منه بشأنها، ولم يلق بالاً لي. إن لم يستطع التحكم بها، فالترجمة لن تؤدي الغرض منها، ولن أثق به ولا بما ينقله. وإذا كانت الفتاة ذكية فقد تجعله ينقاد إليها، وتدفعه إلى اتخاذ موقف مخادع مني.

كان ينبغي أن أعمل شيئاً بالمقابل، كبداية، كسر الحاجز الذي أقيم بيني وبينه خلال الدقائق السابقة، لئلا يأخذ جانبها.

قام كيلي تجاهه ببادرة حسنة، لن يدع المترجم البدين ذا الشاربين الصغيرين يبقى واقفاً، وكخطوة لا تخلو من احترام، لا بأس بمعاملته بندية، فيها نوع من المساواة خلال عملية الترجمة، فلا يضطره إلى الانحناء والتلفت بينهما. طلب منه جلب كرسي من الردهة الخارجية ليقعد عليه. اعتذر أبو سعيد عن الجلوس، سيبقى واقفاً، ملمحاً إلى أنه لا يريد معاملة خاصة ولو كانت الجلوس على كرسي. كان في امتناعه قدر من الكبرياء لا يستحقه فاصل تمهيدي آخر من العناد، فتوقع أنه سيصطدم معه كثيراً.

أصر كيلي بشدة، الترجمة لن تكون عملية ولا مريحة على هذا النحو، المستحسن أن نجلس جميعنا على مستوى واحد، فانصاع المترجم.

أتبعها بحركة لا تخلو من طلب للصداقة عن طريق المزاح. وأشار بإصبعه إلى شاربيه، وكانا الآن لا يزيدان على لطخة سوداء تحت أنفه، وعبر عن إعجابه بهما، إنهما لطيفان يذكرانه بموضة قديمة من الماضي الجميل، لديه صورة في ألبوم العائلة لجدّه يظهر فيها بهذين الشاربين، لقد استأنس بهما، هل هذا الشكل للشوارب شائع في العراق؟ ابتسم المترجم:

«لا، غير شائع، تقصدتهما على هذا الشكل لاعتبارات أمنية، قبل فترة كانا كثيفين، وقبلها كانا متهدلين».

لم يستطع أن يفهم من الاعتبارات الأمنية سوى أن الشاربين

يُغيران من هيئته، وماذا عن غيرهما من أدوات التنكر؟! على كل حال فتحت البادرة اللطيفة قناة شخصية طلية مع المترجم لا تعتمد على الترجمة.

لم أطلب من الفتاة التمدد على الأريكة، أمرتها بالجلوس فقط، حتى لا تشتبه وضعية الاستلقاء على الظهر بالاستعداد للمضاجعة، مادام غرفة واحدة تجمعها مع رجلين، فالشيطان حسب نمط التفكير الإسلامي، سيكون رابعهم، وبما أن حالة الحرب تشمل غرفتي، فلن تُعدّ أقل من عملية اغتصاب جماعية.

جلس على مقعده المريح، وسأل المترجم عن مشكلتها بشرط ألا تصدر ضجيجاً ولا تذرف دموعاً، ما ستضيفه بالضجيج، أو تختصره بالدموع، لن يفيدها في الحالتين. المترجم لا يعرف عنها سوى أنها بحاجة إلى علاج، وكما سمع الفتاة مصابة بصدمة، أعطاه عنها دليلاً بجلب نظره إلى ثورتها التي لم تهدأ أصداؤها بعد بين الجدران.

«ألم تشهد مفاعيلها قبل قليل؟».

قالها وكأنه يعتذر عما جرى، وتابع:

«لقد تعرضت إلى اعتداءات وحشية».

تبرع المترجم بتوصيف ما أصابها على أنه اعتداءات وحشية، لكن ماذا لو كانت هي التي غررت بالعراقي أو الأميركي، وليس ستة جنود حسب زعمها؟

من جانب آخر، وللإنصاف، لاحظت أيضاً أنه لم يأخذ

اتهامات مواطنته على محمل العقل، ولا باعتراف جندينا المحتلِ على محمل الكراهية، بدا عدم انحيازه إليها معقولاً. كما لم يفتني أنه مهما تظاهر بالحيادية، فسيميل نحوها.

أخرج كيلي من الدرج قلماً وأوراقاً بيضاء، وعزم على أن يرسم وهو يصغي إليها صورة كاريكاتورية لها وللمترجم، ثم يمزقها بعد انتهاء الجلسة. بينما كان بطرف عينه يراقبها، ملامحها لم تكن منفرة على الإطلاق، كانت سمرتها الخفيفة جذابة، الفم لم يكن واسعاً ولا شهياً، كان صغيراً، تقاطيعها منمنمة ومتناسقة، تعبيرات وجهها المشوشة قليلاً بعد أن استعادت هدوءها، أضفت رقة عليها، فبدت لطيفة على الرغم من آثار كدمات إلى جانب العين اليسرى وعلى الذقن والخد الأيمن. عموماً كان وجهها جميلاً، وأقرب إلى البراءة؛ كأنها طفلة كبيرة. أما جسمها فيغطيه تحت العباءة السوداء جلباب أسود، لماذا يلبس الرجال ملابس مشابهة وإن بألوان مختلفة؟!

ما أساء إلى مظهرها، تصلب جذعها ورأسها في الاتجاه المعاكس، دلالة لم تخفِ نفورها منه. كان سكونها على هذه الحالة يوحي أنها مضطربة ذهنياً، أو أنها مستغرقة في التأمل، تسترجع من دون تركيز أحداثاً مشتتة، تستجرها من الماضي، عسى ألا تكون مختلقة بالكامل، لئلا ترهقه بكوابيس لا نصيب لها من الصحة.

طرفت عينها نحوه، فلاحظتْ أنه يراقبها، فعبست في وجهه. تفهم مشاعرها، من الطبيعي أن تتخذ موقفاً عدائياً إزاءه، أليس هو من جيش الأعداء؟!

قررت التراجع عن نواياي السيئة تجاهها، وألّا آخذ موقفاً مشابهاً لها، سأتعاطف معها، بصرف النظر عن ألاعيبها وربما وساوسها. لقد أصبحت في عهدتي، ولا مفر من الاعتناء بها. لم يكن لدي شيء شخصي ضدها. لو لم تكن مريضتي، لحبذت إعدامها بدلاً من هذا الهراء المرجو من شفائها، والذي أنا مشارك به، أليست من هؤلاء الذين يقاتلوننا ويقتلوننا؟! هذه الدعايات الإنسانية المقيتة التي تطلقها القيادة وتتشبث بها، وراءها قصة لعينة، يحاولون التستر عليها بمظاهر تفوق الرياء، وللمتاجرة الإعلامية فقط، وإلا فلماذا يطلب مني تخليصها من أوهامها. ماذا تكون هذه الأوهام؟ ربما كان بعضها صحيحاً. هل إيقاظ رغبتها في العيش فكرة صحيحة؟ ألن أوقظ رغبتها في القتل أيضاً؟ هل هو هدف يصح السعي إليه؟

السؤال ليس لماذا إنقاذها، بل لماذا العيش؟! لا شيء مشجع، الحياة هنا لا تطاق، إنها انتحار آخر، لكنهم اعتادوه.

«إذا أرادتني أن أساعدها، فعليها التجاوب معي».

قالها كما اعتاد أن يقولها دائماً لمرضاه، هذه المرة كدعوة للمصالحة، أعقبها بمقدمة طويلة متفائلة، فحواها أن الحياة ثمينة لا ينبغي التفريط بها تحت تأثير زلة عارضة، أو تغرير بفعل حداثة سنها، وبالوسع إذا لم نشأ تضخيم مأساتها، افتراض أنها تورطت بمغامرة صغيرة، من سوء الحظ أنها كانت سيئة، ولم تخل من ألم... كل هذا لا يضيرها ما دامت صبية في مقتبل العمر، والحياة أمامها مليئة بالوعود.

ارتد المترجم ونقلها إليها بشكل يوازيها في الطول، وزاد عليها قليلاً، بعدما اشتبك معها بمناقشة حول طلب التجاوب، أفهمها إياه تحت صيغة تبادل المساعدة!! فرفضت. بذل المترجم جهده، مؤكداً لها أن التجاوب مع الطبيب لا يجبرها على الإدلاء بأية معلومات، بعدما أخذ موافقة كيلي على هذا التفسير.

نجح المترجم أبو سعيد في اجتياز مرحلة شائكة تبدت في تليينها قليلاً، استعمل فيها أسلوباً عراقياً خاصاً من الأخذ والرد، كان جافاً، هذا ما دار في ذهن الطبيب، بحيث إنه لمّا أبلغه أبو سعيد بنتيجة ما توصل إليه معها، حول عدم اختلافها معه في أن الحياة جميلة، لكن الاحتلال جعلها بشعة، كان قد تخطى منطقة وعرة أيضاً. أثنى عليه؛ لقد فهم المطلوب وأداه على نحو حسن.

بل وأداه بشكل أكثر من حسن، بتطاوله على اختصاصه، منتزعاً قدراً لا بأس به من دوره، بإسداء النصائح إليها مع توجيه بعض التعليمات، كأن تأخذ حريتها الكاملة في الكلام، فلا تهتم بعواقب ما تقوله، ولا تخاف من الجهر بأي شيء يخطر لها، مهما كان، حقيقياً أو غير حقيقي. بل وحذرها، متجاوزاً عمله كمترجم، بأنها ليست بحضرة محقق، بل طبيب مهمته أن يخفف عنها ما تعانيه من آلام، وبإمكانها ألا تجيب عن أي سؤال لا يروق لها، مؤكداً أن الطبيب سيصغي إليها ويتقبل كل ما يسمعه منها.

«أليس كذلك؟» المترجم سأل.

«بالطبع» أجابه على مضض.

استهل كيلي مهمته كطبيب بتمهيد مبسط، يناسب فتاة لم تعرف التعقيد إلا مع دخول الدبابات الأميركية. ينبغي إلغاء هذه الصورة

مؤقتاً من ذهنها، لاسيما أنها لم تكن واضحة، والكآبة غالبة عليها، تتبدى في ليالي منع التجول الطويلة المعتمة بلا كهرباء، وأصوات القذائف والصواريخ وهدير الطائرات، والآليات الأميركية، والطلقات الخطاطة وأعمدة الدخان... والعودة إلى صورة سابقة، كانت عالمها الأصلي: الليالي اللزجة المشبعة بالرطوبة، الفراغ الممل؛ اللعب في الباحة الخلفية للمنزل، التسالي في الأماكن العامة، الشمس الحارقة، النخيل، الحدائق، نهر دجلة، ترى ماذا يوجد غير هذا في مدينة موحشة؟! الذباب أيضاً، وأولاد يلعبون في الشارع، الأطعمة الدسمة والثقيلة، صور الرئيس وتماثيله، وحرب تدور في الشمال أو الجنوب، وإن كانت بعيدة عن بغداد... صورة تخلو من المارينز ببزاتهم العسكرية خضراء اللون والخوذ ذات الشبكة والنظارات السوداء العاكسة، ولا تفتقر إلى الرعب، رعب مختلف، أكبر وربما أقل، وإن كانت الصورة الأخيرة أكثر دموية، لاسيما أن الطائرات لم تكن ورقية ولا التفجيرات والقذائف ألعاباً نارية، ولا الدخان ناجماً عن حرائق غير مقصودة.

لاقى أبو سعيد عنتاً في العودة إلى صورة لم يعد لها محل في ذهنه ولا ذهنها، الصورة البديلة عبثت في الصورة القديمة، فلم تستطع تذكرها. كيلي لم يحفل بنسيانها، تابع قائلاً:

«قل لها أعتقد أن لديها قصة ترغب في روايتها، هي المشكلة التي تشكو منها، لا يهم من أين تبدأ، ولتتكلم كما يحلو لها، وإذا كانت تتحرج مني، فلتنظر إلى السقف وتتكلم مع نفسها بصوت عال، أو هامس».

فجأة تذكر أنهم أرسلوها إليه دون أن يذكروا اسمها.

«ما اسمها؟».

«بثينة».

«هل هذا...؟!» قاصداً القول إنه ثقيل على النطق، وغير مستساغ على السمع.

«إنه اسم لفتاة بدوية رائعة الجمال، كانت محبوبة لشاعر اسمه جميل، كانا ثنائياً مشهوراً في تاريخ العشق والشعر العربي».

«شيء رائع».

ثم وبكل أدب، نبهه أبو سعيد إلى أن بثينة فتاة متعلمة، فهي طالبة جامعية. أي أنه بمقدورها تفهم موضوع العلاج النفسي، من دون تحميله شبهة استدراجها إلى الاعتراف بأشياء لم تُقدم عليها، ولا يحاسبها على نوايا أو أفكار خطرت لها ولم تتجرأ على تنفيذها. كيلي لم يلتفت لهذا التفسير، وإنما تساءل:

«أليس من المفترض بما أنها فتاة جامعية أن تلبس بلوزة وبنطال جينز؟ لماذا العباءة والجلباب الأسود؟».

«لبسته بعد إطلاق سراحها، إنه لباس مريح».

ابتسم كيلي، بل لأنه متعدد الأغراض والاستعمالات، لا يسترعي الأنظار، يساعد على التنكر، وتابع بصوت مسموع:

«إنه يصلح لإخفاء الزنار الناسف».

أبو سعيد امتعض، تجاهل كيلي رد فعله، ووجد شيئاً يقوله:

«بداية جيدة».

بعد هذه البداية الجيدة، لا شيء كان رائعاً.

كانت قصتها المروعة غير قابلة للتصديق!!

11

اقلبوا حياتها إلى جحيم

«كان ذلك بعد ظهر يوم الخميس».

الجزء الجنوبي من منطقة الدورة يعج بقوات أميركية، تساندها قوات عراقية، معززة بدبابات أبرامز وعربات برادلي المدرعة.

«رأتهم يطوقون الحي لدى عودتها من الجامعة».

طائرات الهليكوبتر تحلق على ارتفاعات عالية. الجنود الأميركيون يسدون الطرق إلى الحي ومعهم جنود عراقيون يتمركزون في المناطق المحيطة بكامل أسلحتهم ويتخذون مواقع احتياطية. لم تفاجأ، المألوف رؤية جنود يتأهبون للإغارة على منزل مشبوه. هذا المشهد يتكرر في منطقة الدورة بين آونة وأخرى.

«أوقفوها عند الحاجز، كانوا يحاصرون مجموعة انتحارية متحصنة

في منزل قريب، قيل أنها تابعة لمنظمة القاعدة».

انتظرت علّهم يسمحون لها بالوصول إلى البيت، الجو المخيم متوتر، الشمس بدأت تميل نحو المغيب، الأسلحة مصوبة إلى الأبواب والشرفات، الظلال تتراجع متكسرة، القتال على وشك أن يندلع. كانوا قد أنذروا المحاصرين عبر مكبرات الصوت بالاستسلام. المهلة على وشك الانتهاء.

«لكن مُددت، شيخ المسجد تبرع بإجراء مفاوضات بدأت قبل دقائق».

لم يسمحوا لها بالعبور. الشوارع خالية من المارة، الدكاكين مغلقة، الأهالي يتتبعون ما يجري من خلال فتحات أبواب الحدائق وشقوق النوافذ. بدأ إطلاق النار من الداخل، جاء الرد عليه فوراً من رشاشات الكلاشنكوف، لم يستمر طويلاً، سرعان ما تمت السيطرة على الموقف، وعاد الحي خاوياً هادئاً، يتجول فيه كلبان شاردان يبحثان عن غنيمة.

«لم يتسن لها الذهاب إلى البيت، الجنود منعوا دخول أو خروج أحد من الأهالي. فقضت الليل في بيت صديقتها في الحي المجاور».

في الصباح الباكر، بعد إخفاق المفاوضات وانتهاء المهلة أكثر من مرة، حلقت طائرات الهيلكوبتر فوق المنطقة، انقضّت على الأبنية وقصفت الأهداف بالصواريخ، أعقبه تبادل إطلاق نار كثيف، استعملت فيه الآر بي جي والهاون والأسلحة الثقيلة، ثم تقطع بتراشق نيران القناصة، إلى أن سكتت الأسلحة نهائياً. ثم بدأ تقدم الدبابات والمدرعات في الشارع الرئيسي بين صفوف البيوت

المسودة بالسخام، وأخرى مهدمة جزئياً، أو تحولت إلى ركام. زجاج محطم ، قطع أثاث ممزقة، أنابيب مخلوعة مكومة على الرصيف. سطوح البيوت المجاورة محاطة بجدران قصيرة، كان المقاتلون قد نجحوا خلال الليل بحفر مساند للرمي لاستخدامها بعمليات القنص. جثث القتلى منتشرة على جانبي الطريق، بعض القتلى من المدنيين، امرأة ورجل وطفلان، لم يفلحوا بالهرب، جثة محروقة لرجل ملتح مفتوح الذراعين في جلباب غامق اللون، الكلبان الشاردان يتنازعان على ذراع لامرأة حول معصمها أسورة ذهبية، فاز أحدهم بالغنيمة وفر بها، أطلق عليه جندي الرصاص فأرداه على الفور، انتهز الكلب الثاني الفرصة، انتزع الذراع من فم الكلب الميت، حملها بين فكيه وانطلق ناجياً بها. سحب سوداء من الدخان تغطي السماء.

«حتى بعدما هدأ ضجيج المعركة، لم يسمحوا لها بالدخول إلى الحي لتفقد أهلها».

الجنود يمشطون الشارع بيتاً بيتاً. بعضهم يدفعون رجالاً ونساء أخرجوهم من بيوتهم، وآخرون اقتادوا الشبان تحت فوهات البنادق وهم يضربونهم بأعقابها فيما لو حاول أحد الالتفات إلى الخلف. رجل وابنه يجادلان جنديين، الرجل أبعد البندقية عن ابنه، فما كان من الجندي ورفيقه إلا أن بطحاهما أرضاً، ووضعا الأحذية على رقابهم.

الشاحنة العسكرية تغص بالمشبوهين من الأولاد والشبان والرجال مقرفصين ومقيدي الأيدي والأكياس السوداء تغطي رؤوسهم، عمال الإنقاذ يبحثون بين الأنقاض، وجدوا جريحاً واحداً أجهز عليه جندي بإطلاق الرصاص من رشاشه، خاف أن يكون مُلغماً،

لم يعثروا على جريح غيره، بل أشلاء غير واضحة المعالم، ممرضو سيارات الإسعاف ينتظرون. حصيلة الهجوم تدمير سبعة منازل تدميراً كاملاً.

«أحدها كان منزلهم، قُصف بالخطأ».

بدا مما خلّفه القصف من ركام، أن أحداً من عائلتها لم ينج.

«لم تصدق أن أباها وأمها وأخوتها السبعة قتلوا جميعهم».

لا تسألني عن الضحايا من المدنيين، ربما كان بعضهم يقتلون بالخطأ. مع أنهم كانوا يزعمون بأن إصابة الأهداف تتحقق بواسطة ضربات ذكية وجراحية تستثني الأهالي العزل. لكن هذه الحوادث بالذات تكررت وتكاثرت.

أدامز قال: أحياناً قتل الأبرياء مقصود وليس مصادفة، إن عدم مشاركتهم بأي عمل ضدنا، لا يحميهم من الموت، إنهم مسؤولون عما يصيبنا، ولو لم يشاركوا فيه.

هذه الضربات كانت نوعاً من تحذير المدنيين بعدم التعاطف مع المتمردين، ولا يمكن أن تفهم إلا بتوجيه رسائل مميتة إليهم بين آونة وأخرى.

هل ماتوا كلهم، أم بقي أحد منهم على قيد الحياة؟ سألت بثينة الضابط العراقي، فأحالها إلى الأميركان. الجندي الأميركي الذي سألته، رافقها إلى عربة عسكرية للاستفسار من الضابط المسؤول، دفعها إلى داخلها، وهناك تولى رفاقه تقييدها، وإغلاق فمها بشريط

لاصق وتغطية رأسها بكيس أسود. ثم اقتيدت إلى جهة مجهولة.

إلى هنا القصة عادية، تحدث على هذا النحو، أو مختلفة قليلاً، من الطبيعي عندما يرتابون بشخص أن يعتقلوه. لكنها روت الحادثة وكأن عصابة إجرامية قامت بعملية الاختطاف، لا وحدة من الجيش الأميركي، فبدا اقتيادها إلى جهة مجهولة مريباً، لاسيما أنها لم تكن مركز تحقيق ولا سجن!!

كانت منزلاً كبيراً صالحاً للسكن مجهزاً بتلفزيون وفيديو وشاشات عرض كبيرة، وأسرّة وحشايا على الأرض، الطعام والشراب متوافران. لم توجه إليها أية تهمة، أو يحقق معها، وكانت هناك فتاتان تقاربانها في العمر سجينات مثلها.

«تشاركن في محنة واحدة».

الفتاة الأولى أوقفها الجنود أنفسهم عند حاجز للجيش كانت على وشك اجتيازه، فاعتقلوها، لم يخطر لأهلها أن يسألوا عنها جنود الحاجز، اعتقدوا أنها قضت في تفجير وقع في منطقة قريبة، ولم يترك أثراً يدل عليها. الفتاة الثانية، أنزلت من الباص بعد الاشتباه بحقيبة تحملها، كانت وحيدة دون مرافق، فاحتجزوها. ولا يستبعد أن يكون أبوها سأل عنها في سجن النساء ولم يحصل على جواب.

«اختطفهن جنود أميركان أيضاً».

«ربما كانوا متنكرين بملابس الجيش الأميركي».

«جنود حقيقيون!! عددهم ستة، بقيادة صف ضابط برتبة

سارجنت. في البداية لم يستعملوا العنف معها، قالوا إنهم سيدفعون لها بالدولار نظير خدماتها الجنسية، ولن يبخلوا عليها بالأشياء الثمينة؛ عطورات وملابس داخلية وأدوات تجميل».

«يكفي لا تكمل، تريد القول إنها اضطرت إلى مسايرتهم».

«لا، لم تنصع لهم، فهددوها».

أطلعها الجنود على أمثلة مما ينتظرها بعرض أفلام فيديو عن تعذيب المساجين؛ تجريدهم من الملابس وغمرهم بالمياه الباردة. إطفاء السجائر في أجسادهم. تثبيت الأقطاب الكهربائية على الكوعين والركبتين، صعقهم بالكهرباء تكراراً. إطلاق كلاب حراسة من دون كمامات على رجال وشبان مقيدي الأيدي، وإجبار آخرين على اتخاذ أوضاع جنسية وتصويرهم على هذه الحال، ودفعهم إلى ممارسة العادة السرية.

«لم يفلح الترغيب ولا الترهيب معها. أفلح الأمر الذي أصدره السارجنت للجنود».

«ماذا كان الأمر؟».

«اقلبوا حياتها إلى جحيم».

الاغتصاب الأول تم في الجحيم وهي فاقدة الوعي.

«والأخريات؟».

«كان قد مضى أسبوع على قلب حياتهن إلى جحيم».

يقع البيت على مقربة من موقع تمركز الكتيبة التابعين لها، لم يخلُ عادة من تواجد اثنين أو ثلاثة منهم، يأتون مساء وبرفقتهم أصدقاؤهم من الجنود أو الضباط، تزايدوا مع الوقت. كانت

عمليات الاغتصاب تحدث يومياً، وأحياناً عدة مرات.

«حاولن الانتحار أكثر من مرة، فعوقبن بالتجويع والجلد».

بعد أربعة أشهر، جاء الجنود ليلاً، عصّبوا عيونهن واقتادوهن إلى شاحنة صغيرة مغلقة، حشروهن في الخلف، رافقتهم قوة عسكرية صغيرة. بعد جولة استمرت نحو ساعة من الزمن، رُمين في بقعة مهجورة على أطراف بغداد، بعد تهديدهن بإعادتهن إلى السجن في ما لو تجرأن على الشكوى.

«جهلهن بالمختطفين وبمكان احتجازهن، أنقذهن من الموت».

كانت الفتاتان قد ظهرت عليهما أعراض الحمل للمرة الثالثة، أما بثينة فأجهضت للمرة الثانية قبل أيام من إطلاق سراحها.

«كان الإجهاض يتم بالرفس على البطن، أو يجري تحت إشراف طبيب عسكري من الذين يشاركونهم بالترفيه الجنسي».

انطلقت كل واحدة منهن تبحث عن أهلها.

«كان الاتفاق بينهن، إذا خرجن أحياء، مناشدة أشقائهن على قتلهن خشية الفضيحة».

اتصلتْ بعد أيام على خروجها برفيقتَي محنتها لتطمئن إلى أحوالهن بعد أن خرجن سالمات بحمولتهن المشؤومة.

«هل اطمأنت؟».

«نعم، الأولى قتلها أخوها، الثانية لم تقتل، استُشير شيخ بأمرها،

فأجهضت وسافرت مع أهلها إلى عمان».

بحثت بثينة عمن تبقى من أهلها كي يتولوا عبء هذا الواجب. لم تجد أحداً منهم على قيد الحياة، تأكدت من الجيران أن القصف قتل أمها وأباها وأخوتها السبعة، كما قتل أكثر من عشرة أشخاص من الجوار.

ثم علمت من جارة صادفتها في السوق، أن أخاها محمد نجا من القصف، رأته صباح اليوم التالي يفر باكراً من الحي.

«لا يزيد عمر أخيها محمد على عشر سنوات».

كان الوحيد الذي بقي على قيد الحياة.

فوجئ أبو سعيد باعترافها، سرها انكشف، قال لكيلي:

«لم تكن ذاهبة إلى بعقوبة لتنتحر، بل لتبحث عن أخيها، تريد التأكد من وصوله إلى بيت عمها، ووجوده هناك».

قال كيلي:

«هذا لا يعنيني، دائماً لديهن قصة مؤسفة، لكن هل هي صحيحة؟».

لا، لم أصدق قصتها.

12

لماذا كان العار أشد عذاباً من الاغتصاب؟!

لم يقتصر الخلل في قصتها على اعتقالها وتعذيبها واغتصابها، ثم إطلاق سراحها بشكل غامض. بل تعدّى إلى تشويه هذه الوقائع، وتعريضها إلى تحريف بإدراجها في سياق آخر. وبما أن الفتاتين حسب زعمها اختفتا، الأولى قتلت والثانية سافرت، والشاهد الأميركي المحتمل أهبل، فالقصة تفتقر إلى شهود. ما الذي يضمن عدم كذبها؟ اعترافاتها إن لم تكن أكاذيب متعمدة، فأشبه بها. وإذا أحسنتُ الظن فهي غير مقنعة.

لا يمكن الأخذ بروايتها، في بلد كان بأسره مسرحاً لقطاع الطرق العراقيين، ولا غرابة في أن يرتكب هذا العمل المشين عصابة محترفة، تنكر أفرادها بزي

الجيش الأميركي. أما لماذا ألصقتها بجنود أميركان، وأصرت على أقوالها، فلكي تبرر قصتها الرهيبة، فتبدو مقبولة، لذلك لم أستبعد أن تكون القصة مختلقة من أساسها، انتحلتها مما سمعته عن التعذيب المنتشر في مراكز التوقيف والاعتقال والسجون، المادة متوافرة بكثرة في الصحف والقنوات الفضائية، وبوسع أي كان استثمارها لتلفيق قصة ما.

ثم لابد من هذا السؤال: ماذا لو أن إخوتها كانوا من المتمردين المسلحين فعلاً، وكان مقتل عائلتها من جراء تخفيهم عليهم؟

استرعت نظره ملامح وجهها وقد اتخذت تعبيراً واحداً: اللامبالاة؛ تعبير لم يتوافق مع ما كانت تتلفظ به ساهمة!! ترى هل شرودها جعلها تغفل تفاصيل ما فعلوه بها، أم قصتها أحداث بلا تفاصيل؟!

حثها كيلي على المتابعة.

قال أبو سعيد: لقد اكتفت بما قالته، ولا تريد أن تزيد حرفاً واحداً.

«قل لها هذا ضروري لمعالجتها».

«إنها تخجل من سرد ما حدث لها».

«ينبغي أن تتابع ولا تخفي شيئاً».

تبادل المترجم معها الحديث مطولاً. ولم يوفر جهداً في محاولة إقناعها، دونما نتيجة، أخيراً هي التي أقنعته. قال أبو سعيد:

«لا تذلها ثانية».

في هذا الوقت المبكر كان من العسير عليّ تفهم حالة أعراضها ما يدعى بـ«صمت الضحية». كانت أبلغ تعبير عن اشمئزازها. بينما كنت غير عابئ بمشاعرها. كان خجلها نابعاً من ضعفها الشديد الذي يعيقها عن الاعتراف بما وقع عليها، لم تكن لديها القوة الكافية لاستعادة تجربتها المرعبة التي عاشتها.

برر المترجم رفضها بأنها فقدت الإحساس بإنسانيتها لمجرد تفكيرها بأن جسدها كان مستباحاً لشهوات جنود الاحتلال، مطية لأولئك المدججين بالأسلحة.

وأخذ يتفنن في وصفهم: أقوياء، أنذال، ذوو ملامح قذرة، أوغاد حقيرون ... الخلاصة: لا تريد الخوض في قصتها.

استفزها كيلي، إن تبلد إحساسها لا يُحلّها مما وقع عليها، إنها تتحمل نصيباً منه.

فانفجرت بثينة؛ لم تكن لديها أية سلطة على نفسها، كانت لا تستعيد وعيها إلا لتفقده.

عزاؤها الوحيد أن هذا الجسد النجس، لم يعد جسدها ولا ملكاً لها، أو جزءاً منها، وإن كانت تتجرع آلامه.

وربما لم يكن أبو سعيد يترجم، ما دام يستعمل بلاغته للمبالغة في نقل أحاسيسها، وربما في تجنبها أيضاً.

أو أنها كانت تهذي.

الكلمات تتراشق من فمها، دونما ضابط، عينا المترجم معلقتان

عليها، ينقل مشدوهاً ما تتفوه به، لا يلحق يبدأ بجملة حتى يتابع غيرها، مونولوج مفكك، محوره جسدها النجس، وانتزاعه منها والعبث به، وشيء ما عن أنه لم يعد ملتصقاً بها. وأشياء عن الطهارة والرعب، الإجبار والرجس... تفاقمت إلى قصة دونما أحداث ولا تفاصيل!!

أخيراً... ليت هناك ما يفني جسدها، ليته يحترق، ولا يُخلف رماداً.

عندما استعاد المترجم زمام الترجمة، أخذ يعيد بتركيز نقل ما تفوهت به مشتتاً، الكلمات التي خانتها لم تخنه. كل ما بربرت وتعثرت به، ولم يكن مفهوماً، أحاله إلى جمل منتظمة ومتسقة ذات معنى مبهم، خالية من لغو عقليتها المحدودة، لكن كلها هراء، عدا التطهر بالنار... كانت أشبه بوعيد.

ما استوقفني ليس ما بدا على وجهها، بل ما تبدى في ارتجافات أعضائها واختلاجات جسدها. كشف بلا كلمات عن العذاب المفترض أنها تكبدته، وبدا هائلاً، وهي تستعيد حدثاً مشيناً، ليس من الضروري الإفصاح عنه بالألفاظ.

ترى، رغم قوة التعبير المبهم على وجهها وتهويلاته الأكثر إبهاماً، ما نصيب التمثيل فيه؟

أدار أبو سعيد رأسه عنها، وقد ترقرق الدمع في عينيه، المرأة الصغيرة أدمت قلبه قبل عينيه، خسرت نفسها، وما زالت نفسها عالقة في داخلها؛ عالقة بين الثأر لما أصاب كرامتها، والانتقام لما

حلَّ بجسدها، كلاهما لا يفلتانها لتنعم بموت تتمناه ألف مرة، كيف استطاعت البقاء حية؟ أليست معجزة؟!

لم أكن متأكداً مما إذا كان أبو سعيد ما زال يترجم بأمانة، كان في طلبها للموت تبرير له، ما جعل نبذ الحياة حلاً مشرفاً لها.

أعتقد أن ثقافة أبو سعيد الأدبية أسهمت في جعل الحياة عرضاً زائلاً طارئاً عابراً، وأن الحقيقة الوحيدة هي: الفناء. مفردات على علاقة بماذا؟

أردف أبو سعيد معبراً عما جال في ذهنه بصوت كئيب:

«كان الجنون هو السند الأقوى لكي تبقى على قيد الحياة».

هذه الفكرة كانت فكرته، لن يخطر للفتاة مثل هذا الجواب، قدرتها تُقصّر عن تفسير ما حلّ بها بهذا التبصر.

أحس كيلي بالعجز أمامها وبالضيق من المترجم، لم يعدم أبو سعيد الفرصة تلو الفرصة، يستغلها كي يستعرض عذاباتها عارية عن الوقائع، بحيث عندما دس رأيه الأخير، كان موفقاً، أصاب وأعطاها سبباً قوياً لبقائها حية.

لم يطل انسياقي إليهما طويلاً.

الفتاة أساءت لنفسها، إذا لم يكن الجنون فعلاً، فمبالغاتها المشوشة أفقدتها صدقيتها، حتى أن تشنجاتها كانت الأقوى على التهويل لا التعبير. ربما استدرت

شفقتي، لكنها بعثت فيّ الحيرة، ما الذي حدث بالضبط سوى هذه التهويمات الغامضة بالغة القسوة؟ إلا إذا اعتقدنا بحدوث مصادفة، لم يكن بطلها جندياً واحداً لديه نوازع سادية، بل مجموعة جنود اتفقوا على أن يكونوا ساديين!!

كان من الأهون، تصور أقوالها على أنها من ابتكار خيال مريض، إذا كان، فلا عجب في أنها أفلحت بتحويل حادث توقيف عادي إلى حادث اختطاف قسري، والاحتجاز في سجن إلى اعتقال في منزل سري، لكن لماذا أوحت إليّ أنه كان ملهى ليلياً يضج بالموسيقى والغناء والويسكي والمخدرات؟!

كان في ما تهدف إليه الكثير من التخبط مع احتراف الحقد والتجني.

ثم أليس في أن يأخذ الموت شكل الاحتراق... كناية عن استعمال الحزام الناسف؟

طلب كيلي من أبي سعيد ألا يترجم إلا ما يستحق الترجمة، لا داعي للاسترسال في هذا الذي يشبه المناحة، لئلا تضيع الجلسة بعد قليل في النحيب.

تابع أبو سعيد الترجمة على الوتيرة نفسها، كأنه لم ينبهه:

«وكان كل ما قاست منه أخف وطأة عليها إزاء ما أحست به من مهانة، لا يمحوها سوى الثأر لشرفها المسلوب».

«هذا يعني أنها سترتكب جريمة».

«من بوسعه أن يكون متيقناً؟».

ماذا كان هذا الشرف المسلوب؟! هل سلبها عذريتها، يستدعي كل هذا اليأس من الحياة، واسترخاص الموت، والتطلع إلى ارتكاب جريمة، هي إحدى ضحاياها؟

لم يكن هناك مفر من وضع حد لهذا الذي لا تكف عن اللغو فيه:

«لا، القصة غير مقنعة على الإطلاق».

عجز أبو سعيد عن الجواب، كان تعليق الطبيب مخيباً، وهذا ما وضعه في حرج، بعد تأثره الشديد. كان يتمنى لو يضفي على الحادثة بعض الوقائع كي تجد الآلام سنداً لها، لكن الفتاة تجاهلتها وهي تحاول أن توجز بسرعة أشياء في منتهى القذارة والحطة يشينها تذكرها. لم يستطع أكثر من بذل الجهد في الترجمة، وأكثر بما لا يقاس بإضفاء بعض التفاصيل الصغيرة غير الدقيقة على ما كانت تقوله مجملاً. لم يغامر بتخيله، مجرد أنه توقع حدوثه دونما إطالة، ربما نجح في تصوير جانب من المآسي التي عانت منها ثلاث فتيات في عمر الزهور، ومع هذا أحس بالتقصير، لم تكن الترجمة ولا الوقائع على سوية الحدث المبتور.

أنهى كيلي الجلسة:

«قل للحارس أن يعيدها إلى السجن. الموعد التالي غداً في الوقت نفسه».

لا، ليس أن القصة كانت غير مقنعة، هناك جزء منها، لا يخلو من حقيقة أزعجتني ولخبطت أفكاري، حقيقة ضئيلة لكن قاصمة. أوقفتُ الجلسة، مع أنه كانت لدي رغبة في الاستمرار، أحسست بالخوف، حتى لو كانت آلامها مصطنعة والحادثة مختلقة.

خطر لي، ماذا لو كانت صحيحة؟ شكوك، لم أستطع تجنبها. باعتقادي لم يكن لدى الفتاة القدرة على حبك مأساة بهذا الحجم الكبير، وإن بدت بلا محتوى، ربما لم تختلقها كلها، وإنما جزء لا أدري مقداره، أم هناك تدخل من المترجم ساعد على تضخيمها، بحيث بدا من الطبيعي أن تأخذ قصتها منحىً يودي بها إلى الانتحار. غير أن الأمر الذي صعقني، لماذا كان العار أشد عذاباً من الاغتصاب؟!

وساوسها الإجرامية كافأت ما تعرضت له من عنف، وتجاوزت الحد، ماذا تدعى حالتها؟ هل أدى فقدانها لعذريتها إلى الهستيريا؟ هستيريا العار مثلاً.

لكنني لم أعمل حساباً لأمر غافلني على حين غرة، حتى أنني لم أعبأ بادعاءاتي سواء أصابت أو أخطأت. هناك شيء جعلني أتيقن في لحظة عابرة، مرقت كالسهم، اخترقت رأسي وحفرت فيه، أنها تحملت ما لا يطيقه إنسان، ولم تكن تكذب.

13

سلاح مميت
سلاح فعال
سلاح من لا سلاح له

رن جرس الهاتف، كان يلملم أوراقه قبل الخروج من العيادة للقاء بيرنز في الندوة. الميجور أدامز على الطرف الثاني، يطلب منه موافاته فوراً إلى مكتبه.

أحس بمزاجه أصبح أكثر انقباضاً، لا يدري، هل لأنه سمع صوته، أو لما عاناه من تقلبات تراجيدية غامضة؟ سارع قائلاً له إن لديه موعداً مع مريضه بيرنز، واقترح تأجيل لقائهم إلى غد. أدامز أصر، الأمر ضروري. أكد كيلي، بيرنز في حالة سيئة. لم يصغ أدامز إليه، وكرر ثانية، الأمر مستعجل، سناتور من الكونغرس أجرى جولة تفقدية على الفرق المتمركزة حول بغداد. رحلته تنتهي غداً.

«ما علاقتي به؟!».

لم يجد كيلي احتجاجاً غير هذا.

علا صوت أدامز، تلك إشارة إلى أنه على وشك أن يغضب، ويهدده بشيء ما، لن يعسر عليه اختراعه. خصوصاً أنه هو يصر على إبلاغه أن محطة السناتور الأخيرة ستكون في مكتبه اليوم مساء قبل أن يغادر صباحاً، للتداول حول الإجراءات المتخذة بشأن الإرهابيات الانتحاريات.

«الأمر بالغ الأهمية بالنسبة إلينا معاً، أنا وأنت، هل تفهم؟ عند عودته سيُطلع البيت الأبيض على حصيلة مشاهداته في بغداد، نحن جزء من هذه المشاهد».

كانت الضرورة في مجيئه الفوري، للاتفاق على شيء محدد قبل الاجتماع بالسناتور.

> **كدت أن أقول له فات الأوان، ففي اللحظة التي رفعتُ سماعة الهاتف، قررت رفع تقرير أنصح فيه بإلغاء برنامج معالجة الفتاة لعدم جدواه. لكن ما دام هناك من يريد الاطلاع على مشاريع قيادة الجيش حول سلامة الجنود، فهي فرصة لإبلاغ واشنطن ألا فائدة مما يُخطط له في بغداد.**

لا يبعد مكتب أدامز عن عيادة كيلي سوى درج نازل لا يزيد على عشر درجات، ثم ممشى إلى اليمين في نهايته غرفة متصلة بقاعة اجتماعات، هناك كان ينتظره. قال له أدامز اتبعني. فتبعه. خرجا إلى الشرفة المطلة على الساحة اللعينة نفسها، نظرة واحدة

إليها جددت في داخله السأم الفظيع من هدوئها القانط. تمنى أن يبدد سكونها صاروخ يدمرها، حتى لو أدى به إلى أن يكون أحد ضحاياه، على أن يتطاير أدامز أمامه متمزقاً من الغيظ؛ حينها سيجد متسعاً من الوقت ولو لبرهة من الزمن، ليقول له متشفياً: لقد نالوا منك أيضاً.

«العملية سرية».

قال أدامز يبرر استدعاءه.

> **كان الأمر لا يستوجب هذا الإصرار، من الممكن إبلاغي إياه بالهاتف. لكن نوازع أدامز المَرَضية تدفعه على الدوام إلى أن يسبغ على أتفه الأمور طابعاً ذا أهمية، أحياناً يضيف إليها قدراً سخيفاً من السرية، هذا اللقاء لم يخل منهما.**
>
> **كان مغرماً بإشعار الذين حوله أنه مستهدف من عملائنا العراقيين قائلاً: «هؤلاء قد ينقلبون ضدنا». ولا يستثني شركاءنا في جيش التحالف معقباً: «هؤلاء قد يتخلون عنا».**

علق كيلي بسخرية:

«إذا كانت العملية سرية، فالسناتور سيجعل منها فضيحة».

«هو أيضاً يدرك خطورة الوضع في العراق، وسيضطر إلى التنسيق معنا».

لذلك لابد أولاً من التنسيق بينهما قبل الاجتماع بالسناتور.

لا بأس، سيسمع منه. لن يناقشه لئلا يطول الجدال.

عادة يبدأ أدامز حديثه بالتمهيد له بشيء من الإثارة. الإثارة الآن كانت تعبيره بجهله:

«بالمناسبة أنت لا تعرف شيئاً».

كانت الإثارة قد بلغت ذروتها. بعدها باشر بإطلاعه عليه:

أواخر الأسبوع الماضي، حصلت ثلاث عمليات نفذتها نسوة يرتدين السواد، الأولى فجرت نفسها قرب رتل من شاحنات التموين، وأخرى أمام مركز تطوع عراقي، والثالثة قادت سيارة مفخخة فجرتها وسط مركبتين أميركيتين.

«اعترفنا بالعمليات ولم نعترف بمنفذيها من النسوة، لماذا؟».

بقي السؤال بلا جواب، فهز كيلي رأسه، وتركه يشرح ويتساءل.

البارحة أعلنت منظمة القاعدة مسؤوليتها في بيان صادر عنها، ونعت الانتحاريات الثلاث. وقد التمس كاتب البيان من الله أن يتقبلهن بين الشهداء لدفاعهن عن عقيدتهن وشرفهن.

«انتبه إلى هذا المزج بين الدين والمرأة، يعدّون شرف المرأة صنو العقيدة!!».

وفي بيان النعي نفسه شكوى من قلة الرجال واضطرارهم لتجنيد النساء.

«هل لاحظت الهدف من شكواهم؟».

لا مفر من الإجابة.

«لا، لم ألاحظ».

«تحريض الذكور على الالتحاق بالقاعدة باستفزاز مشاعرهم الدينية!!».

«الآن لاحظته».

«التحريض لا يتوقف، اسمع هذا التساؤل: أليس من العار على أبناء أمتنا أن تطلب أخواتنا الشهادة بينما ينشغل الرجال بالحياة؟».

لم يجب، السؤال ليس موجهاً إليه، بل للعراقيين الذكور.

«المسلمون يفضلون حبس النساء في البيوت، يخشون على الرجال من فتنتهن، هل تصدق؟!».

«أصدق كل شيء عنهم».

يبالغ أدامز، إذا لم يكذب. يعرف أنه لو ألقى نظرة إلى شوارع بغداد لرأى على الرغم من عدم الأمان، أن عدد النساء يفوق عدد الرجال في أسواق بيع الخضار، يبعن ويشترين، ثم يحملن ما يتوفر لهن من حاجيات إلى بيوتهن.

«العجيب أنهم يخافون على نسائهم. هل رأيت عراقيات جميلات؟».

«أنا؟!». وتحير هل يجيب بلا أو نعم.

أنقذه أدامز:

«لا تحاول، لن ترى امرأة جميلة».

بعد تلك المقدمة، اتخذ أدامز وضعية المحاضر. قال كيلي لنفسه: لقد علقت، المحاضرة لن تنتهي قبل أن يفتك بي. عزم ثانية على الصمت، والاكتفاء بالاستماع.

أغلب النساء والفتيات في العراق جاهلات بالحياة والدين معاً، نصيبهن من العلم قليل، بعضهن لا يعرفن القراءة والكتابة، يبصمن بأصابعهن على العقود والأوراق الرسمية. يستغل الإرهابيون عقولهن المحدودة وحبهن للوطن وفعل الخير، مما يوفرهن لقمة سائغة للتنظيمات الجهادية، فيضللوهن دينياً، إنهن على اقتناع بأنهن ينتحرن دفاعاً عن الإسلام. مع أن الانتحار، حسب أقوال المشايخ أصحاب الفتاوى، لا يجوز شرعاً ومحرماً في الديانة الإسلامية، عاقبته نار جهنم!!.

كيلي كان ذهنه في سبات. فجأة صحا على سؤال: بثينة من الذي ضللها؟!

السؤال الذي أعقبه في ذهني هو: لماذا لا ينتحرن؟! النساء أيضاً لديهن نوازعهن الإيمانية. وقد يشاركن في القتال لهذا السبب أو لغيره، ما دمن يتعرضن إلى ما يتعرض إليه الرجال عند حواجز التفتيش، وأثناء مداهمة منازلهن، وتدمير بيوتهن، ويشاهدن الجنود يعتقلون أزواجهن وأولادهن، يغطون رؤوسهم بالأكياس السوداء، ويغيبوهم في السجون، هناك يختفون وتختفي أخبارهم.

إذا كان الانتحار حماقة، فلماذا لا يرتكبنها مثل الذكور... ما المانع؟!. النساء أكثر جرأة على ارتكاب الشر من الرجال.

الفكرة التي باغتتني وأردت أن أقولها ولم أجرؤ، هي أن فعل الانتحار يحيل هؤلاء البشر المكدودين والمقهورين إلى شعب حي، بينما الرضا بهذا الإذلال يحيلهم إلى شعب ميت. لحظة تنبهت إلى ما يدور في رأسي، طردت الفكرة منه.

كيلي لم يعلق، فاستحثه أدامز:

«ما رأيك؟».

«الفتاة ليست حالة نموذجية، لا يرتجى منها خير».

«هل تعني أنه ميؤوس منها؟».

«لم أبدأ بعلاجها بعد».

هتف أدامز حانقاً:

«إذن لا تطلق أحكاماً مسبقة».

«لديها قصة مختلفة».

«مهما كانت قصتها، سيكون لشفائها تأثير كبير، ركّز جهودك على دفعها إلى الاعتراف بأنه غُرر بها تحت تأثير دوافع دينية غير شرعية، تخالف جوهر الدين الإسلامي».

«هل المطلوب أن أُجري لها عملية غسيل دماغ؟».

«التحقيقات تقول إنها إرهابية».

«هذه الفتاة لم تبد رغبة حقيقية في الانتحار. وإذا أرادت الثأر أو الانتقام، فلديها أسبابها الخاصة».

«لقد قبضوا عليها قبل أن تفجر نفسها».

«إنها فتاة عادية، هل تريد مني إقناعها بأنها إرهابية؟».

«الأمر لا يحتاج، لقد شجعوها على الانتحار، بينما دينهم يحرم هذا، هناك آية صريحة في كتابهم المقدس تقول ما معناه: إنه لا ينبغي لنفس أن تموت إلا بعد أن تستأذن الله، أي لا يعود أمر النفس إلى صاحبها بل يعود إلى الله وحده. الإرهابيون حلوا محل الله، وأعطوا الإذن للناس بالانتحار، نحن سندحض هذا الادعاء».

«ما حدث معها لا يطابق ما قلته لي، لم يأذن لها أحد بالانتحار، وهي لم تطلب. الفتاة اختطفت وعذبت واغتصبت، لدي شاهد جندي اعترف بما فعله، لم يكن وحده، كانوا خمسة، أضف إليهم سارجنت كانوا تحت قيادته».

«من أين جئت بهذا الشاهد؟».

«إنه جندي لدي تحت المعالجة».

«لا تقل لي إنه بيرنز الذي جئت به معك من سامراء».

«هو بالذات».

«هل تعتمد على شهادة مجنون؟».

«بيرنز ليس مجنوناً».

«إذا اعترف فهو مجنون، أين رآها؟».

«مصادفة، لدي في العيادة».

«مصادفة رائعة؟».

عقب أدامز ساخراً، بحيث بدت المصادفة مدبرة. قال كيلي:

«في حال كانت حوادث الاغتصاب كثيرة، فلا عجب أن يصادف المغتصب المغتصبة».

«جنديك بيرنز مريض، لا تربطه بالفتاة أية صلة، إياك أن تستغل مرضه لإثبات نظرياتك. عالجه فقط».

أراد الإجابة، لكن أدامز رفع يده وأسكته:

«كيلي، انتهى الحديث».

«هذا الجندي...».

«لا تكمل، سأبلغك شيئاً، أظن أنك تعرف من أقصد بالإرهابيين، لسنا خائفين منهم، نحن أقوى منهم ومتفوقون عليهم تفوقاً مطلقاً بالسلاح. لكن لديهم سلاح مميت. ما يجب عليكَ فهمه، أن ما يدعونه بالاستشهاد سلاح فعال، يحصد يومياً مئات القتلى والجرحى، إنه سلاح من لا سلاح له. ولا تنس أيضاً، ليس بمقدورنا التغلب عليه».

«نعم».

لم يرد أن يزيد جوابه على كلمة واحدة توحي أنه ما زال يصغي إليه بانتباه.

«لا بد أنك استوعبت مدى خطورته؟».

«نعم».

«وهل أدركت أهمية التصدي له؟».

«نعم».

«وأن لديهم منه الكثير!».

«نعم».

«ولا وسيلة لتعطيله!».

«نعم».

«لا تقل لي نعم. اسمع مني فقط: نحن نريد أن ننتزعه منهم».

14

ألا نتميز نحن عنهم؟

في الندوة، طالعه بيرنز متشنج الملامح، لم يكن مسترخياً كما نصحه، كان جالساً مرفوع الرأس، يتصبب عرقاً، على أهبة الاستعداد للانطلاق نحو السقف!! يحملق مأخوذاً بشيء يراه في ذهنه لا إلى حيث يحدق، لم يكن حوله ما يغري بالنظر، اثنان من العمال الآسيويين يفرغان من الصناديق زجاجات المياه المعدنية، وثالث يلملم النفايات وأعقاب السجائر من على الأرض وفوق الطاولات.

شكر كيلي في سره الأوامر العسكرية التي تمنع بيع المشروبات الكحولية للجنود. لو أفلت بيرنز العنان لنفسه بالتذكر أو النسيان، وأفرط في تناول الكحول، لكان الآن طريح الأرض في الندوة، أو الرصيف في الخارج من كثرة ما تجرعه، كانت علب الكولا الفارغة وزجاجات الماء تشهد على مداراة توتره بالسوائل.

بيرنز كان قد أفلت العنان لنفسه، من دون كحول، وفي الاتجاهين معاً؛ كان يتذكر كي ينسى، لكنه نجح في التذكر وأخفق في النسيان، ما قاده إلى تمثيل شخصية غير جذابة على الإطلاق، عفّ عنها الزمن، لا يحفل أحد بتقليدها إلا في الأفلام السينمائية القديمة: المجرم طالب الغفران من تمثال السيد المسيح، أو العذراء مريم، يسأل أحدهما أو كليهما الصفح عن خطاياه!!

بدا تصلبه على هذا النحو كما لو أنه يناطح السماء، لا يلتمس الرحمة بتواضع المذنب، بل بوقاحة المجرم، غير أن جفنيه المسبلين على عينيه بنصف تغميضة، وتمتماته بصوت غير مسموع، تؤكد أنه كان نادماً!! لكن من يفكر في الندم؟! الخطايا مكاسب الحروب. كان منظره الكئيب مضاداً لذكرياته الفاحشة، بينما يملي عليه الانسجام معها تقليد ذلك النوع المبتذل من المغتصبين المهذارين المرحين الذين وصفهم المترجم بأنهم عندما تنشط العربدة، يرفعون عقيرتهم بالغناء، ويتقافزون كالقرود، ثم يخلعون ملابسهم ويرقصون عراة تحت الأضواء الصغيرة الفاقعة بالألوان.

لم يكن مزاج كيلي المعكر ملائماً لمقدار إضافي من العكر، كان بحاجة إلى القليل من التسلية البريئة بعد اجتماعه غير البريء؛ ومع هذا بدت هيئة بيرنز الكاريكاتورية مواتية للترويح عن نفسه بلؤم.

رازه بخفة، لم يزعجه خبل مريضه، بل أحس بالتفاؤل من المنظر المشبع بالكولا وحرّ الظهيرة المتسلل من الخارج، وفي الداخل الموسيقى الحالمة المضادة للأحلام. أعجبه اندفاعه البائس، لا يعوقه عائق عن متابعة أداء دوره الحزين التافه والممطوط إلى حد

الإملال، يعيد حركاته ذاتها، ملامحه تنفرج وتتقلص، عيناه تنفرجان وتنغلقان ببطء شديد، يأمل الصفح، حتى أوشك على البكاء.

كان صالحاً لهذا الاستعراض غير الممتع، لكن يستحق التأمل لاسيما أن المأساة بليدة، وطالب الغفران على سويتها.

كان بيرنز قد أجرى تعديلاً على شخصيته من السيئ إلى الأسوأ.

فجأة اصطدم طائر بزجاج واجهة الندوة، تخبط ضارباً بجناحيه يبغي التحليق. تعلقت أنظار بيرنز عليه، رجاءاته الهامسة لم تُجدِ؛ الطائر سقط أرضاً بعد عدة محاولات يائسة، ثم انتفض عدة انتفاضات وهمد. انسحب العامل الآسيوي إلى الخارج، حمل الطائر من جناحه ورمى به بعيداً. صرخ كيلي صرخة حيوان ذبيح، وانكب على الطاولة مخفياً وجهه بذراعيه.

حسناً، بوركت المصادفة، فعلت فعلها ثانية.

لم يكن في الندوة غير العمال الآسيويين، ظنوا أن الممثل أطلق صرخة النهاية.

بيرنز ذهب بعيداً، قطعاً إلى الهاوية.

لم يكن يمثل، التشبيه لم يكن دقيقاً، بيرنز لم يحاول التحليق، كان يتخبط فقط.

حالته الجديدة تخطت حالته السابقة «إنهاك المعركة» التي جاءني بها. خامرني أن اشتباكهما معاً خلّف لديه حالة مركبة، غير سوية وسخيفة التعقيد.

التشخيص: مرض لم يتبلور بعد.

لم أخطئ رغبته الكاسحة في أن يأخذ على عاتقه جريمة عاندته الفرصة في حمل أعبائها المرية.

فكرتُ، ينبغي فك الاشتباك بين الحالتين. أقصيت حالته الجديدة، واعتبرت واقعة الاغتصاب وتوابعها لا أساس لها، فهمتها كما اقترح أدامز، كانت النتيجة: بيرنز بريء، قدراته تقصر عنها. مآلها هذا الاستعراض المقيت. كل ما كان بحاجة إليه عدة صفعات على وجهه تعيد إليه صوابه.

«بيرنز، أنت لا تدري بما تفعله».

بيرنز لم يرد.

«أنت تؤذي نفسك».

لكنه يسمع. دفعه بيده على كتفه، فرفع رأسه.

«قضيتك انتهت على خير، أنت غير مذنب».

لم يستطع الامتناع عن الاستهزاء به. ربما كان بيرنز أيضاً يقابله بالمثل!! في صمته تمنع متعمد، الموقف الذي زج نفسه فيه لا يخلو من رياء، بدأ يميل بشدة نحو الطرافة غير المستطرفة. ينشد الألم على الرغم من الظرف المساعد على النجاة، العناية الإلهية استجابت له. ما الذي يأمله بعد؟

بيد أنه مازال يلح على طلب الغفران، لكن ليس من الله ولا من المسيح أو العذراء. استبعد ثلاثتهم، إذاً ممن؟!

كان صمته بليغاً، أبلغ من الكلام، لكن غير مفهوم.

أصبت في ما خامرني حول المرض الذي لم يتبلور بعد، في حين أخطأ علم النفس، حالته التي انكشفت تفاعلت بشدة، وتطورت بسرعة قصوى خلال لحظات، إلى نزوع داهم بالتكفير عن الذنب!!

خشيت عليه من الإيغال في الصمت، وفيما لو استمر على هذا المنوال، فسوف يزج نفسه في حالة متقدمة من السكون العميق، قد تمسي غير قابلة للاختراق بالهمس ولا بالكلام، أو حتى بالضجيج، حالته تزداد استعصاءً، إلى حد أنه سيجد مشقة في اكتشاف العالم من جديد وتعلم اللغة ثانية.

أراد أن يخرجه من هذا الصمت المثقل بالأخطاء والخطايا، قبل أن تسيطر عليه فكرة التشهير بنفسه، وتتفشى على شكل قصة تثير الغضب، ستجد من يستثمرها، وتفرض ذيولها على جندي حتى لو كان بطلاً، لن تعفيه من المساءلة، بل ستعرّضه لمحاكمة أكيدة، وإن كانت شكلية، لن يكون الضرر منها كبيراً، سيتعاطف معه المحققون والمحلفون العسكريون، ويتفهمون كالمعتاد... ظروف جنودنا القاسية تحت النيران، وتناله عقوبة معروفة؛ حكم لا يقل عن بضع سنوات في السجن، لن يقضي منها أكثر من بضعة أيام في الإقامة الجبرية، لكنها ستضطره للعودة إلى أميركا وفقدان العائدات التي لولاها لم يجازف بالمجيء إلى العراق. وتخلف له الكثير من المنغصات، تلاحقه لزمن قد يطول، ربما إلى ما لانهاية. فإذا كان لديه القليل من البراءة فسوف يتعقبه عذاب الضمير، ريثما يموت الضمير، وإذا كان لديه القليل من

الإيمان، فستحل عليه اللعنة إلى الأبد، ريثما يرتفع إلى السماء، وفي العالي هناك من سيحسب مدة هذا الأبد، وهل له من نهاية؟

«اعترافك لا يؤخذ به، فلا تهتم».

لم يطرأ على هيئته ما يوحي بأنه اهتم أو لم يهتم. ما زال كما هو، رهين مشاعر تائهة لا غامضة، ولا يدري عنها شيئاً.

انتابتني الشماتة، ترى إلى أين سيودي به هذا الشعور؟ إذا استمرأه فقد يأخذه إلى مرض مقيم، سمج وبطيء!!

هل هذا هو الحل الذي اختاره، تقمص شخصية طالب الغفران الجبان، بعد تخليه عن شخصية المغتصب الجبار!

لو استمر هكذا، فلا أمل يرجى من منعه ولا تراجعه عن اعترافه بجريمة بوسعه إنكارها، بل سيعاود الكرة، المرة تلو المرة، لن يتجنب زلات الضمير الفادحة، بل سيتعمدها ويبالغ بها. كان من الضروري إيقاظه وتنبيهه إلى مغبة حمل عبء اغتصاب فتاة لا يُعنى بأمرها أحد، ما دام أنها ستشفى بالرغم منها.

ربت كتفه، وتظاهر أنه لم تخطر له هذه التهيؤات، ودعاه إلى المطعم لتناول الغداء. لم يرفض بيرنز ولم يقبل. أنهضه فنهض، مشى أمامه فلحق به صاغراً. عند الباب استأذنه بيرنز في الذهاب إلى التواليت. قضى وقتاً لا بأس به في الداخل. خرجا من الندوة، مرّا أمام مقر سلطة الائتلاف المؤقتة، صادفا اثنين من الحراس الأمنيين نازلين على الدرج، وثلاثة من الجنود النيباليين

يتمشون على الرصيف. تخطيا الأسلاك الشائكة الحلزونية، وتابعا طريقهما صوب سيارة بيرنز الهامفي الواقفة إلى جانب الرصيف في الخلف.

ركبا السيارة، أدار بيرنز مفتاح التشغيل، ونسي نفسه وهو يحملق إلى مجندة شابة تعمل في قسم الإمداد مرّت أمامهم على الرصيف، لاحق مؤخرتها بنظراته؛ حسناً بدأ يستعيد رشده. تجولا بحثاً عن مطعم. سأله عما يرغب بتناوله، فأجابه بهمهمة. أعاد السؤال ثانية، فتكلم. لم تكن لديه شهية للطعام، فاكتفيا بسندويتشات هامبورجر بالجبنة. ثم اصطحبه إلى مقهى في خيمة نصبت في موقف سيارات محطة بنزين سابقة. انفردت أساريره، مع أنه لم يضحك أو يبتسم، رؤية هؤلاء الناس جعلته يحس بحياة يغلب عليها النشاط واللامبالاة معاً.

عجّ المقهى بخليط من المقيمين المؤقتين والعابرين في المنطقة الخضراء؛ مراسلون صحافيون، مقاولون أمنيون بعضهم حليقو الرأس، وموشومو الأيدي، رجال من وحدات الحماية والمرافقة يضعون على عيونهم نظارات سوداء تنثني حول الرأس، يتدلى من وسطهم مسدس ضخم من نوع ما، أو إلى جوارهم رشاش آلي أو نصف آلي، عملاء للاستخبارات، وجنود من المارينز تسريحة شعرهم قصيرة، وموظفون من السفارة الأميركية، يدخنون النارجيلة ويشربون البيرة، يعلكون ويتجشأون، ويجترون شيئاً ما، تعلو أصواتهم وهم يتحادثون أو يصرخون في الهواتف الخلوية.

الجو عابق بالضجيج والدخان والضحك، وشتائم تتطاير بمختلف اللغات، استعاد بيرنز تحت تأثيرها جزءاً من حالته الطبيعية. عاد

العرق يسيل منه بغزارة، أخذ يمسحه وهو يبتسم ببلاهة. تفاءل كيلي من اعتدال مزاج بيرنز التدريجي. جمر النراجيل يزيد الجو الملتهب سخونة، الحرارة تتجاوز الستين درجة، الجالسون لا يتأثرون بها، أو تُضعف من حيويتهم، كانوا على تضاد مع الخمول، يثرثرون ويطلقون النكات.

طلب كيلي نارجيلة، واكتفى بيرنز بالتدخين. بعد عدة سحبات من النارجيلة وإطلاق سحب من الدخان، كان بيرنز قد دخن سيجارتين، على أثرها أدار بينه وبين نفسه بعض الهمهمات والإيماءات، بدا وكأنه سيعود إلى تمثيليته، لكنه أفلت بضع كلمات، كانت تساؤلاً محيراً ومسموعاً:

«لكنهم أقدموا على الانتحار!».

التقط كيلي ما قاله واستغرب، كان في صوت بيرنز نبرة إعجاب وتقدير، كأن الذين انتحروا أنجزوا شيئاً يعجز عنه الأبطال. هل هذا ما يدور في رأسه؟ الانتحار مادة رائجة، هل أصابته العدوى؟ إذا كان المغتصب الجبان يفكر في قتل نفسه، فهذا يحتاج إلى عزيمة قوية. الأمر الجيد أن نوبة الكآبة فارقت بيرنز، وتركته لتعاسة بلا مضاعفات، من تلك التي تلامس بين الفينة والفينة الشبان الصغار في عمره.

«سألتك صباحاً عن حوادث الانتحار في الفرقة. قلت إنك لا تعرف عنها شيئاً».

«إنهما اثنتان».

«ما معلوماتك عنهما؟».

«الأولى لجندي من أصل هندي أحمر، والثانية لجندي مسلم من أصل عربي، ليسا أميركيين تماماً ولا أبيضين».

«لكنهما مثلنا في النهاية».

«ألا نتميز نحن عنهما؟».

«بلى. لماذا انتحرا؟».

«لا أدري، وهذا ما أثار دهشتنا، كانا لا يشاركاننا ما نشعر به، وكأن ما يصيبنا لا يصيبهما. كانا يفكّران بطريقة مختلفة».

«ألم يعقدا صلات معكم؟».

«لا، لم يحاولا، كانا يتجنباننا، لم يتشاجرا مع أحد. كانا مسالمين رغم أنهما كانا متوترين غالباً».

أحس أنه مدين لبيرنز بتفسير حتى لا يظن انتحارهما لغزاً:

«يبدو أن نوعية تربيتهما المختلفة عنا، جعلتهما ينجحان في قمع مخاوفهما، ويخفقان في كبت قلقهما».

«لم يبديا أية تصرفات غريبة لافتة».

«لا تنس مناعة عقائدهما الغامضة، كان لها الفضل في عدم إظهار معاناتهما».

«إذا كانا قد تغلبا على مخاوفهما، فلماذا انتحرا؟».

«من الصعب تكهن مسار الصراع الذي اعتمل في دخيلة كل منهما، يبدو أنه لم يُحلّ إلا بضغطة على الزناد».

لاحظ كيلي أن نظرة بيرنز تبدلت إلى مأساته، تساؤلاته تعني أنه بدأ يعي المأزق الذي وضع نفسه فيه، تمنى ألا يكون على خطأ.

لابد أحس أن أحداً لا يشاطره أوهامه، فأدرك أنه لا يصح التعويل عليها، بل وأصبح أكثر تماسكاً.

اقترب برأسه منه، وأعلمه بخطورة وضعه النفسي.

«ينبغي عليك فعل شيء لتنقذ نفسك».

أحس بالشفقة نحوه، لن يدعه أسير صدمة غير متوقعة، سينتزعه منها قبل أن تنجلي عن اتهام آخر ليس هذا وقته. إذا نجح، فسوف يشفيه من جريمة حصلت، بحيث تبدو وكأنها لم تحصل، لكن ليس قبل معرفة الحقيقة، أو الوجه الآخر للحقيقة. لن يعتمد رواية واحدة للواقعة، ولا يريد الإيقاع بالفتاة، المفروغ منه اختلاف روايته عن روايتها، سيكتشف من خلال مقارنة الأولى بالثانية مدى اختلافهما، ومن ثم تصحيح الواحدة بالأخرى من دون تعديات إضافية لا يحتملها الاغتصاب بالذات.

لاحظ كيلي تجاوباً من بيرنز، كان يريد أن ينقذ نفسه، فاغتنم الفرصة وقرر متابعة الجلسة صباحاً. أما الآن فسوف يرسله إلى العيادة ليفكر بهدوء بما ينتظره من أسئلة غداً. أما هو فيلزمه بعض الراحة قبل اجتماعه المسائي.

نهض من مكانه، ومشى معه بيرنز إلى السيارة.

15

حـرب بلا قواعـد

أجال كيلي بصره في القاعة، كان الحديث قد بدأ قبل دخوله. فوجئ بوجود الكولونيل جاكمان، المؤكد أنه على علاقة وثيقة بموضوع بثينة، إلى جانبه الميجور أدامز مستاء من تأخره، ورجل آخر، كان خبيراً في شؤون الإرهاب، أدرك من هيأته أنه متعاقد أمني: ملتح، يلبس بنطال جينز، ينتعل حذاء رياضياً «ريبوك»، ويتنكب حقيبة كتانية «أيدي باور». أما مبعوث واشنطن عضو الكونغرس، فيلبس بذلة غامقة اللون لم تعد أنيقة، كان في الخامسة والأربعين من عمره أشيب الشعر، يخطو نحو مستقبل سياسي واعد، بدأ يُعد له بحماسة، هذه الحماسة دفعت به إلى العراق في وقت يرغب فيه الجيش بالعودة إلى الوطن.

الكلام كان للسناتور عضو الكونغرس يشرح بعض الأمور عن مهمته التي تنتهي اليوم، كانت ناجحة. اطلع عن قرب على حرب

باتت للأسف تفتقد الصدقية، لكن أميركا بحاجة إليها، فقام بمهمة إضافية؛ بالغ في تشجيع الجنود على القتال، وحثهم على الدفاع عن نيويورك هنا في شوارع بغداد.

لم يكن في ما يقوله السناتور من جديد، أميركا لا تمل من تكرار ذرائعها، كانت الجديدة نسخة طبق الأصل عن القديمة، تلك التي زُوّج لها قبل نصف قرن من الزمن، أيام الحرب الكورية، حول أن الدفاع عن شواطئ أميركا يستدعي الحرب في بحر الصين.

الآن يأمل السناتور نافد الصبر بمغادرة بغداد خلال ساعات قليلة.

انتقل الحديث إلى محور اجتماعهم: الإرهاب النسائي.

انهمك المتعاقد الأمني في تبيان أنهم قبل أشهر فقط، لم يكونوا على يقين من مشاركة النساء، عادة منفذو العمليات الانتحارية لا يتركون وراءهم أثراً يسمح بالتأكد إن كان الفاعل امرأة أو رجلاً!! المعلومات الواردة مؤخراً ركزت على أن جماعات المتمردين الإسلاميين بدأت تستخدم قبل نحو سنة الأولاد الصغار وذوي العاهات والمتخلفين عقلياً في رفع وتيرة الهجمات الانتحارية. الأعمال الاستخبارية وقوات الجيش نجحا في تضييق الخناق عليهم، فلجأ المتمردون إلى تجنيد النساء بكثافة واضحة. المفاجئ أنه خلال فترة وجيزة مثلت الانتحاريات ظاهرة أصبحت لافتة وخطرة. الظاهرة آخذة بالتصاعد، ولم يعد ممكناً التعتيم عليها، ولا التقليل من شأنها. اليوم، النساء سلاح القاعدة الجديد والأخطر.

«هناك تقارير لوزارة الداخلية العراقية، تؤكد احتجازهم نحو مائة وخمسين معتقلة متهمات بالسعي للانتحار».

«هل نثق بأرقامهم؟» تساءل عضو الكونغرس.

«مهما أصاب هذه التقارير من تزوير، فلابد أنها تحتوي على قدر من الحقيقة. هذا القدر مهما كانت ضآلته يمثّل تهديداً كبيراً».

لم يهمني من كان يتكلم، لاسيما أن الحديث تحول بعد قليل وأصبح استعراضاً لمعلومات كل منهم عن النساء الانتحاريات؛ إما مدفوعات للانتقام بسبب قتل أفراد من عائلاتهن، أب، أخ... أو حسب زعم بعضهن: رفضهن الوقوف مكتوفات الأيدي تاركات الشباب والكهول يدافعون عن الوطن، هل كان ما يطلبنه فعلاً المساواة مع الرجال في الموت والجهاد؟ أظن أنه الكولونيل الذي قال: لا يجوز التعويل على الدافع الأول؛ إن معاقبة جنودنا الذين يقتلون المدنيين، يقوض معنويات الجيش، خاصة أنه لا يمكن تجنب وقوع هذه الأخطاء أثناء الاشتباكات. أما ترويج المتمردين لواجب الدفاع عن الوطن، فلا يمكن أن يلاقي صدى إلا مترافقاً بدعوة دينية، مما يسهل اصطياد النساء اللواتي قتل أقرباؤهن، بالإضافة إلى المتحمسات من فلول حكم الرئيس السابق.

... وشيء ما من هذا القبيل، كانوا أكثر ميلاً للاتفاق فيما بينهم.

أسهم عضو الكونغرس برأي مختلف:

«النساء أكثر عاطفية من الرجال. وهي فكرة رائجة شعبياً، تملك قدراً كبيراً من الصواب؛ من هذا الجانب يُستغل عشقهن للوطن،

بما هو دافع عاطفي، لكن من جانب آخر، وبدافع عاطفي أيضاً؛ ينفرن من منظر الدماء والجثث... ينبغي الإلحاح على هذه الفكرة واستخدامها، من الممكن تأليف قصص كثيرة تضرب على هذا الوتر الحساس».

كان هناك سباق بينهم على اختلاق أسباب مواتية لكسر تصاعد العمليات الإرهابية، كانت مجرد تمنيات.

«المهم، إحداث خرق، الجنس النسائي أكثر استجابة له. رهاننا هو فتح باب الأمل للواتي يجبرن على الانتحار، كي يلجأن إلينا».

حدد الكولونيل جاكمان المنحى الذي سيُعتمد وكان في إقناع المنتحرين من الجنسين بأنهم يخالفون تعاليم الدين، بالتركيز على هذه الفكرة المختلف عليها في الإسلام، وبذلك تُكسر دعاوى الجهاد الانتحاري. واستدرك موجهاً كلامه للسناتور:

«لكن هناك مشكلة، فبينما نعمل نحن على تأكيد أن الإسلام ينبذ الانتحار، نرى أن مستشارين في الإدارة يروجون لفكرة أن الإسلام دين إرهابي يشجع على هذا النوع من العمليات. ينبغي التنسيق بيننا».

«التنسيق الحقيقي، هو العمل على هذين الخطين معاً، أنتم تعملون في الداخل العراقي كي تقللوا من خسائركم، ونحن نعمل في أميركا وأوروبا، بالتحذير من المسلمين، ما يساعد على منع الهجمات الإرهابية».

أزعجني رد السناتور، وأدامز الذي لم يعترض، ولا مبالاة الآخرين. بدا ما يدور أمامي وكأننا ندبر مؤامرة

متناقضة ومتعددة الجوانب. في داخلي بدأ التحول، لم يكن نحو بثينة، كان انحيازاً ضدهم. صبرت وبقيت صامتاً، أعتقد أن الكولونيل هو الذي لم يصبر.

«لا فائدة من التغلب على الإرهاب هنا على أرض المعركة، ما دمتم تشعلونها في الخارج. العالم ليس أجزاء متفرقة ومتباعدة ولا شيء يصل بينها، ما يدور هناك ينعكس هنا، والعكس صحيح؟».

«ليس من صالحنا تصدير رؤيتكم إلى العالم كتصور واحد، ومع هذا لا مانع من تسريبها بصفتها أحد التصورات، لن نتبناها، وإذا قلت لي إن رؤيتنا مشوهة أقول لك، لا أريد تصحيحها، ليس من شأني، يهمني أمر واحد: أن يكون العالم وأميركا متكاتفين ضد عدو واحد، سمه ما ترغب: الإرهاب، الإسلام، الدين، الحسد، التخلف... غير مهم».

كان الحديث قد وصل إلى منعطف حرج، يبدو أن أدامز فضل تفاديه، فتحدث عن الجهد الذي يبذل من أجل تحييد الدين، على أمل استخدامه أيضاً سلاحاً ضد المتمردين من خلال حالة نموذجية صاحبتها على قيد الحياة. والتفت نحو كيلي كي يتكلم.

التفتوا جميعهم صوبي ينتظرون مني الكلام. كنتُ الطبيب المعالج. وكان رأيي مطلوباً. تمنيت البقاء صامتاً، لماذا الكلام؟ واشنطن ترغب في سماع ما يعجبها، وما أريد قوله لن يروق لها. كل ما يريدونه تحقيق تقدم في الحرب على الإرهاب، ولو كان زائفاً.

مع هذا كان من الأمانة إطلاعهم على ما توصلت إليه، كي لا تفاجئهم النتائج.

«الفتاة خارج هذه التصنيفات، حالياً لا تحتاج إلى معالج، بل إلى محقق، يتيقن مما أصابها».

اربدّت وجوههم. كان أدامز أكثرهم إحباطاً. لم يفهموا المقصود من كلامه. تابع كيلي دون أن يظهر اهتماماً برد فعلهم:

«لا بد من قاعدة معلومات أبدأ منها. لا أريد التعامل مع أكاذيب، ولا التغاضي عن الحقائق. ماذا لو اعتقدتُ أن الفتاة تبالغ في ما تدّعيه، ولا يزيد على أوهام مرضية، بينما هو جرى معها فعلاً».

«نحن مثلك تهمنا الحقائق». علق الكولونيل جاكمان بخشونة.

سارع المتعاقد الأمني مصححاً:

«ليس على الحقائق أن تكون مثالية».

«لا بد من تحقيق يفصل في أمور جنائية بحتة، هل كانت حادثة اعتقال أم اختطاف، ثم هل كان الاغتصاب جماعياً؟».

«لماذا التحقيق؟ افترض أن كل هذا صحيح، وقم بعملك» قال المتعاقد الأمني غاضباً.

اعترض الكولونيل ووجه حديثه إلى كيلي بهدوء:

«ما تقوله مجرد تكهنات، برهن عليها أو فندها؟».

«هذا يحتاج إلى وقت».

«لديك بعض الوقت، لا أريد فيما بعد استنتاجات مريبة. سأكون صريحاً معك، ينبغي ألا يغيب عنك أننا نحن وأنت في جانب واحد».

«يبدو أننا لسنا في الجانب نفسه».

«حسناً، إذا أردت الحقيقة فخذها».

التفت الكولونيل وقال للمتعاقد الأمني:

«لا تخفِ عنه أية معلومات».

الطلب أزعج المتعاقد الأمني، وقال بوقاحة، هذه الحرب لا تعني الطبيب، ولا تلزمه بشيء، ومهما كانت انتقاداته، لا تبرر إعطاءه أية معلومات، قد يستخدمها بنحو غير مسؤول. أصر جاكمان على طلبه، وعلله بأنه لا يجوز أن أعرف بها عن طريق مصدر آخر.

حاول المتعاقد أن يختصر قائلاً إن ما حدث كان بناءً على أوامر قام الجنود بتنفيذها، هل هذا يكفي؟ وكان واضحاً من نظراتي أنها لا تكفي. وما كان من الكولونيل إلا أن حثه على إطلاعي على كل شيء!! فاضطر المتعاقد وكان متوتراً إلى أن يكون صريحاً معي.

«عادة لا يلجأ المحققون إلى إعطاء الأوامر بالاغتصاب إلا في حالات محدودة جداً، إحداها كانت في الأشهر الثلاثة الماضية، عندما واجه الجيش مشكلة فقدان ضباط وجنود لم يُعلن المتمردون اختطافهم، ولم تنشر القيادة خبراً عنهم، لئلا يؤثر في معنويات الجنود، فقبضوا على نساء كانت لديهن معلومات أكيدة عن شبان ورجال في عائلاتهن ينتمون إلى جماعات من المتمردين، غير أن النساء كنَّ غير متعاونات، فاستعملوا معهن وسائل التعذيب العادية؛ الضرب، التغطيس في الماء، عدم النوم،

الوقوف لمدد طويلة من الزمن، الصعق بالكهرباء، حلق الشعر... أي قلب حياتهن إلى جحيم حتى يتكلموا».

قاطعه كيلي:

«لقد استعملوا مع الفتاة بثينة هذا التعبير بالضبط».

«هذا تعبير سائر في التحقيقات، حتى الجحيم لم ينفع معهن، ما اضطرهم أخيراً إلى استفزازهن بالتهديد بالاغتصاب من دون جدوى، فكان لابد من القيام به، وحصل رسمياً أكثر من مرة بحضور ضابطين».

لم يخف عضو الكونغرس خيبته:

«هذا لم نعلم به».

«هل شارك الضباط في الاغتصاب؟» تساءل كيلي.

«ربما، هل هذا الأمر مهم؟».

«أعتقد أنه مهم».

«لم يكن الاغتصاب هدفاً ولا غاية، كان وسيلة من وسائل التعذيب. هذا كي نضعه في نصابه».

أدرك أنهم انتصروا عليه، لم يكن الاغتصاب إلا وسيلة ضغط لا أكثر. ترى ما الممنوع في الحرب؟ جاءه الجواب من الكولونيل جاكمان من غير سؤال:

«هذه حرب بلا قواعد، هل تعرف ماذا تعني؟ انتهاك كل المحرمات».

قال المتعاقد الأمني مخففاً من ثقل موقف لم يكن مريحاً.

«هذه تقنية تحقيق متبعة في كل مكان».

«المصادفة أننا موجودون في كل مكان» عقب كيلي.

أجابه المتعاقد الأمني نكاية:

«ربما كانت المشكلة في الأداء، مع أنني لا أعتقد أن لدى العراقيين طريقة اغتصاب أفضل».

رد كيلي بفظاظة:

«أنت تعلم أن الاغتصاب يشكل تحريضاً على الانتقام».

أظهر السناتور تبرمه، وقطع الحديث بينهما قائلاً لكيلي:

«هل لديك خطة للعلاج؟».

قال كيلي إنه لا يملك خطة جاهزة، لكن لديه أفكار بسيطة حول المعالجة، من خلال مشاهداته القليلة، أحدها لأفلام فيديو أعلن فيها الإرهابيون مسبقاً عملياتهم، كانت تحمل طابعاً دينياً واضحاً، اللافت بقوة حالة الاستقرار النفسي التي تتبدى على ملامح الانتحاري، شاب لا يعاني أية مشاكل. تسيطر عليه فكرة أن وجوده على الأرض لا يكتسب قيمة إلا بالتضحية بحياته، الانتحار هو الثمن للدخول إلى عالم الأبد، إنه ليس عالم فناء، بل عالم وجود حقيقي.

كرأي أوليّ، ربما من الممكن إنهاء أغلب هذه الحالات بالامتناع عن تقديم ما يحفزهم على الانتحار، الاحتلال والقمع مبررات قوية. هل نستطيع الامتناع عنهما؟ مستحيل طبعاً. ربما علينا إقناعهم بالنضال السلمي؛ مظاهرات ومقاطعة وإضرابات. هل

نجح؟ هذا يحتاج إلى وقت. ربما في المسارعة إلى تسويق فكرة أن الحياة جميلة تستحق أن تعاش، مردود جيد، لكن كيف؟! ما دام هناك أسلحة، فالحياة غير جميلة.

تندروا على ما اقترحته، العلاج مثالي جداً، ولن يكون مقنعاً إلا بالانسحاب والاعتذار عن الغزو والاحتلال. الأسهل إقناع المنتحرين أنهم لو صعدوا إلى السماء فلن يجدوا هناك جنة ولا ناراً، حتى الله لن يعثروا عليه.

هذا في الحياة الأخرى، أما في الحياة الدنيا، فإقناعهم بأن يلتفتوا إلى بلدهم، ويحاولوا أن يجعلوا منه جنة ينعمون بها، بدلاً من أن نجعله لهم جحيماً يذوقون فيه الويلات.

نهض الكولونيل جاكمان، الوقت حان للمغادرة، لدى زائره مشاغل أخرى قبل العودة إلى واشنطن، عند الباب التفت إلى كيلي محذراً:

«تابع عملك، لقد وعدتك ببعض الوقت، أترك الأمر لك، لكننا لن نضيف تحقيقات أخرى إلى ما سبق، ولا اتهامات. انتبه، إذا كان لديك شيء فاحتفظ به لنفسك، وإذا أردت فعل شيء، فتصرف كما يحلو لك، تهمنا النتيجة».

كان الأمر منتهياً، لم يكونوا بحاجة إلى طبيب بل إلى مخرج سينمائي يتولى إخراج هذه القصة. كنت قد أوقعت نفسي في مأزق لم يكن عويصاً بقدر ما كان قذراً. تحذير الكولونيل كان تهديداً، بألا أجعل من بيرنز وجماعته قضية. وإذا أردتُ إجراء تحقيق لمعرفة

ما جرى، فسوف يعدّه تحقيقاً شخصياً لإرواء فضولي فحسب. أنا أيضاً كنت ميالاً لإخراج بيرنز من هذه الورطة، لن أجعل منه قضيتي، أو أبلغ عنه، مادام أن القيادة على علم به.

16

حلبة العروض الجنسية الحية

اعتقد كيلي أن جلسته الصباحية مع بيرنز ستكون حافلة بالإثارة، لكنها كانت مملة، لم تزد على اعتراف لم يكن وافياً. استعاد بيرنز الممدد على الأريكة جريمته بشكل موجز جداً. فاضطر كيلي إلى عدم الاكتفاء بالتلميح، وكرر عرضه على مسامعه، كأنه آلة تسجيل، لم يختلف عن السابق إلا قليلاً، مع الضغط على كلماته:

«إذا كنتَ اعترفتَ باغتصاب الفتاة، فهذا لا يهمني، ولن آخذ به. أعرفُ أن ما حدث كان اضطرارياً لاعتبارات أمنية عسكرية استثنائية. أنت ما زلتَ مريضاً، وهذا يُلزمُني بالاطلاع على حالتك بالكامل. ما أريده فقط هو التأكد مما إذا أثرت الحادثة فيك، هذا إذا كانت صحيحة».

طبعاً كانت صحيحة، وإن لم يكن بالكامل. كان من غير المجدي ولا المهم معرفة إن كانت بثينة اختطفت أم لا، اغتصبت أم لا!! الحلقة المهمة الغائبة عني توضحت، ما وقع لم يكن جريمة، كانت الفتاة ضحية برنامج لانتزاع المعلومات، والاغتصاب كان أحد بنوده. ربما حصلت تجاوزات، أودت بها إلى هذه السلسلة البشعة من إجراءات الاستنطاق وعمليات التعذيب، كانت كلها بناءً على أوامر رسمية.

كان من المبكر تصنيف بثينة على أنها ضحية بريئة، الواضح أنها تتحمل الجزء الأكبر مما وقع عليها، فهي عندما اعتقلت، كانت تجهل نشاطات أبيها وإخوتها الإرهابية، وكان من سوء حظها أنها عانت من التعذيب لمجرد أنها لا تعرف. وحتى لو كانت تعرف وتعمدت ألا تفشي عنهم شيئاً، يحق لها التكتم عليهم.

من طرف آخر، كان الحظ سيكون إلى جانبها لو أنها كانت على علم بنشاطاتهم، ومتأكدة أنهم لقوا حتفهم، لما أخفت شيئاً، وأنقذت نفسها من الاغتصاب؛ فضحنا للأموات لا يضيرنا إلا في حالة واحدة، عودتهم إلى الحياة.

ابتسم في وجهه، كانت الاعتبارات الأمنية العسكرية الاستثنائية قد أحلت بيرنز من جريمته، ما جعله يؤكد وضعه الجديد:

«اطمئن لن ينجم عنها أية ذيول».

لم يبد على بيرنز الارتياح، وإن بدا أنه سيتعاون معه. شجعه كيلي:

«فلنبدأ من جديد».

على خلاف ما توقع، لم يكن بيرنز بحاجة إلى تشجيع، كان يأمل بمثل هذه المبادرة، لينطلق بالكلام. غير أن البداية كانت مخيبة، بيرنز كرر اعترافه السابق وكان طويلاً، كأن الفكرة لم تصله، وتمسك بوصفه اعتقال الفتيات الثلاث بأنه كان اختطافاً من عرض الشارع، واحتجازهن في مكان لم يكن سجناً، واغتصابهن طوال ثلاثة أشهر.

لم هذا الإصرار على الخوض بجرائمه مع أنه برأه منها أكثر من مرة؟! التحول الموعود لم يحدث في داخله، ولو بقدر بسيط!!

بعد ذلك لبث بيرنز يفكر ويتردد، ثم أحجم عن الكلام، وبدا قلقاً.

راودت كيلي فكرة غريبة، هل يحس بيرنز بالعار؟ إذا كان ما يزال يعاني من تأثيرات الحادثة فالأفضل مواجهته بها، لا التهرب منها. ربما إذا استعادها بحدودها، مع التعليمات التي تلقوها، قد يمتنع عن تحميل نفسه عبئاً مثقلاً مع قدر مضاعف من الأوهام.

بدأ بسؤاله عن المعلومات التي حصلوا عليها من الفتيات.

كان في توجيه انتباهه إلى اعترافاتهن توجيه في الوقت نفسه إلى الدوافع التي أملت عليهم القيام بتجاوزات لا مفر منها. عندئذ سيدرك بيرنز بشكل صحيح أنها كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذ المفقودين من الضباط والجنود.

كان الجواب الذي لم يتوقعه، بأنهم لم يحققوا معهن!!

«وبماذا اعترفن؟».

«لم نسألهن حتى يعترفن».

هتف كيلي مندهشاً: إذاً، لماذا التعذيب؟!

تنبه بيرنز، ولم يكن مندهشاً:

التعذيب لم يكن بهدف الحصول على معلومات، بل لكسر مقاومتهن، في البداية تمنعن ورفضن خلع ملابسهن، وتكررت ممانعتهن عندما لم يسايرن رغبات الجنود الجنسية. فكان الضرب لتسهيل الاغتصاب، واستمر التعذيب لإجبارهن على الرضوخ لنزوات بعض الضباط وصف الضباط في مضاجعات فاحشة غير عادية، أو في حفلات جنسية جماعية ماجنة...

«كانت الأعباء الجنسية الواقعة عليهن كثيرة».

كان دون أن يدري قد أضاف معلومة خطيرة نسفت الاعتبارات الأمنية العسكرية ودواعيها الاستثنائية، إلا إذا كان بيرنز يجهلها، أو أساء فهمها.

«هل كنَّ معتقلات لقضاء حاجات الجنود الجنسية فقط؟».

«نعم، لا شيء عدا ذلك».

«ألم يكن احتجازهن في معتقل تابع للجيش؟».

«لا، كان نزلاً أشبه بماخور».

أحبطه تجديد اعترافه على هذا النحو، هل كان بيرنز يتلاعب به أم يتلاعب بالكلمات؟ لكنه لم يفلّ من عزمه، ربما هناك ما يجهله فعلاً.

«لا تقل لي إنك لا تعرف أن الاغتصاب نُفذ بالاستناد إلى أوامر عليا، وكان رسمياً، وإن لم يكن قانونياً، استدعته ظروف إنسانية، هناك جنود وضباط اختطفهم الإرهابيون، ولا وسيلة غيرها لانتزاع المعلومات من السجينات. لعل الخطأ الذي حدث أن قائد مجموعتكم الذي أصدر الأمر لكم، لم يُعلمكم لماذا طلب منكم القيام باغتصابهن، مع أنه تلقى الأمر بذلك، وتم بعلم القيادة».

انتفض بيرنز من مكانه على الأريكة، وانتصب قاعداً:

«كل ما فعلناه كان بالخفاء عن القيادة».

«هذا ما تطلبته التعليمات نفسها».

«هل كانت ألا نفعل شيئاً سوى ممارسة الجنس بالقوة؟».

«إنها التعليمات كما يبدو».

«كنا نأتي سراً، ونتكتم أمام الآخرين على ما نفعله».

«حسناً لقد أحسنتم التنفيذ».

«بل وأقسمنا على عدم البوح به لأحد».

لم يقف بيرنز عند هذا الحد، بل وخالف تخميناته كلها، الحسنة والسيئة معاً، ونقض أكذوبة الأوامر العليا برمتها.

«لم تكن هناك أية تعليمات على الإطلاق».

«هل أنت متأكد؟».

«نعم متأكد، كانت خشيتنا أن يضبطنا أحد».

بل وأكمل ما فات بثينة نفسها معرفته، وأضاف إلى جريمة الاغتصاب جرائم أخرى، لا تقل عنها قذارة، لم تكن ثقيلة فقط،

بل وفي منتهى الانحطاط!!

المنزل السري لم يكن مكان احتجاز وتعذيب وتنكيل، ولا فسحة للهو والمرح فقط، وإنما وكر للدعارة، لا يشبه الماخور، بل ماخور بالفعل، وما يجري في داخله جنس بالإجبار ودعارة مأجورة.

«كان الجنود والضباط يترددون عليه بقصد المتعة، ولم تكن دون مقابل. كانوا يدفعون لقاء ممارسة الجنس. وكل هذا تحت إشراف السارجنت ماغواير».

الأكثر إمتاعاً تخصيص ماغواير أكبر حجرة في البيت في مشروع استثماري، عبارة عن ملهى ليلي للعسكريين الأصدقاء بامكانات ضئيلة. كان مجرد بداية واعدة، على أن يزود الملهى مع الوقت بوسائل ترفيه جنسية، كانت من ضمن خطة توسيع المشروع، ما دام السعي جارياً لاصطياد المزيد من النساء والفتيات من شوارع بغداد.

في الوسط، منصة عبارة عن مرتفع بسيط غطي بسجادة كبيرة مدّت على الأرض، وضع فوقها فراش ضخم وحشايا. صفت الكراسي حولها على شكل دائرة، ليجلس عليها جمهور محدود من الضباط والجنود. وبجوار الحائط زاوية خشبية أشبه ببار: مصطبة فوقها كؤوس، وإلى الخلف وضعت على الرفوف زجاجات الويسكي والبيرة. الخمر للجمهور، وحسب الطلب.

في أرجاء الصالون توزعت الشموع الكبيرة والصغيرة. على الجدران صور لنساء بأوضاع مغرية ومكشوفة، وصور لمضاجعات جنسية متنوعة. المنظر المثير قادم، خلفيته: ظلال تتراعش على

الستائر الشفافة، وموسيقا فائرة، ورائحة بخور فواحة لإضفاء لمسة شرقية على الاستعراض المجسم للأجساد العارية.

تلك كانت حلبة العروض الجنسية الحية.

عمل ماغواير قبل الالتحاق بالجيش في أحد ملاهي سان فرانسيسكو وقدم عروضاً أميركية مع نساء شقراوات وبيضاوات، ملساوات بلا كدمات ولا جروح، عدا بعض الخرمشات ناجمة عن زبائن متطلبين. العرض العراقي كان أكثر تميزاً، كل شيء فيه كان حقيقياً. يأتون بالفتاة عارية إلا من غلالة رقيقة بيضاء على طبق نحاسي كبير، قدماها ويداها إلى الخلف مربوطة بأسلاك بلاستيكية، وشريط لاصق يغلق فمها، والعصابة السوداء حول عينيها. ثم يظهر ماغواير الوحش الجنسي الأكثر فحولة!!

يبدأ العرض بنزع الشريط اللاصق عن فمها، ليسمع الجمهور الصغير صوت صرخاتها المستغيثة، على هذا الإيقاع يجري تعذيبها واغتصابها... وكلما جرى تخليصها مما يقيد حركتها، أو انحلّ رباط، فلكي تقاوم بلا جدوى وتنتهك أكثر ومن جديد. أخيراً تُرفع العصابة عن عينيها، ليجن جنونها، الضجيج لم يكن في رأسها، بل صادر من جمهور بلغ به التهيج أقصاه، وربما أخذت الحماسة أحدهم، فخلع ملابسه وشارك في العرض. لا تمثيل على الإطلاق.

عرض حي: الرعب حقيقي، والألم حقيقي، والصراخ حقيقي، والدماء حقيقية.

لم أطالب بيرنز بمزيد من التفاصيل، بل تجاهلتها.

كان هناك ما هو أشد إيذاء ومهانة من الضرب والاغتصاب.

نعم، بوسعك أن تدرك من دون عناء أنه كانت لدينا القدرة على الإتيان بأفعال في منتهى الخسة، تثير التقزز، وعلى سبيل التسلية، في حالتنا كان إذلال الفتيات على هذه الشاكلة المرحة يزيد من عيارات اللذة والنشوة... والزهو بقوتنا.

ينتهي العرض بماغواير منتفخ الأوداج، يحيي الجمهور بكلتا يديه، بينما اثنان من الجنود يحملان جثة الفتاة غائبة عن الوعي، تجر وراءها غلالة حمراء بلون دمها.

وإذا أراد أحد الزبائن التنفيس عن احتقانه، مع فتاة مغمى عليها، أو الاعتماد على نفسه، ففي الغرف الداخلية: لكل شيء تسعيرة.

بيرنز لم يكتف بهذا القدر، تابع الوشاية بجماعته وسرد وقائع عنهم بلغت حداً غير معقول من الجشع والإجرام معاً، حتى أنني اعتقدت أن هدفه توريط السارجنت قائدهم، بالمتاجرة بالرقيق الأبيض، والأدهى أن وشايته كانت اتهاماً لماغواير بالشروع في القتل... كاد أن يقتل الفتيات الثلاث، ويُمثل بجثثهن، لولا...

كاد ذلك أن يحدث عندما تبلغوا أن كتيبتهم ألحقت بالفرقة ١٢ وعليهم التحرك إلى سامراء في غضون ثلاثة أيام، ولن يعودوا إلى بغداد قبل فترة لا يمكن تحديدها. بادر السارجنت ماغواير إلى إجراء مفاوضات مع ضابط من الكتيبة المجاورة، عرض عليه شراء الفتيات الثلاث، واتفقا على الثمن، لكن تعسرت العملية كلها بعدما أُبلغت الكتيبة الثانية بالتحرك إلى الفلوجة، فنكل الضابط المشتري عن الصفقة. ما أوقعهم في مأزق، كان الوقت قد

دهمهم. لم يبق سوى ليلة واحدة على المغادرة.

«اقترح ماغواير التخلص منهن خلال ساعات لا أكثر».

قرر قتل المحتجزات الثلاث على أن يتبع أسلوباً يشابه القتل الطائفي بتشويههن ورميهن في نهر دجلة. لم تعترضه مشكلة في هذا الحل، كان قد مارسه من قبل في إحدى مهماته، عندما قُتل صديق له، فانتقم له باقتحام بيت شك في أنه كان مصدر النيران، وقتل كل من فيه، لم يوفر الأطفال والنساء.

«اعترضتُ وآزرني جندي آخر، وهددناه بإبلاغ القيادة».

وبات ماغواير مخيراً بين إطلاق سراحهن، أو قتل بيرنز والجندي الآخر أيضاً. ما حال بينه وبين قتلهم جميعاً، أن باقي الجنود أعلنوا أنهم لن يشاركوا في هذه المجزرة.

«إذن أنت الذي أنقذهن من الموت؟».

«فقط من الموت، لا من الشيء الآخر».

كان الشيء الآخر هو الاغتصاب، قالها بلهجة فيها من الحزن أكثر مما يجب، وكأنه اغتصبهن وحده.

أردت تعنيفه، مع أنه كان ينبغي أن أضربه. تُرى عندما كانوا يفعلون معهن الشيء الآخر، أين كانت مشاعره المثالية؟ الآن أفرج عنها!!

«أين ماغواير؟».

«في المعسكر، إنه قائد وحدة صائدي زارعي الألغام».

كان قد أتى على ذكره في جلسة سابقة، ذلك الجندي الذي يقتل على الشبهة، هل كان يحسده على شجاعته، أم على سرعته في القتل؟

«سمعت عنه أنه جندي بطل».

«هل تعرف ما هي الحرب التي يخوضها؟ قبل أيام قام مع وحدته بجولة في الحقول القريبة، صادفوا ثلاثة فلاحين، قتلوهم بمجرد رؤيتهم، أصلوهم بجحيم من الرصاص. كانت حجتهم أنهم من زارعي العبوات الناسفة. كان مجرد ظن، ظهر أنهم أبرياء».

«كيف عرفوا؟».

«تبين لهم ذلك بعدما اقتربوا منهم، تفحصوا جثثهم لم يكن بحوزتهم ما يثير الشبهة، فألقوا رفشاً إلى جوار كل جثة، ليثبتوا أن الفلاحين كانوا يحفرون في التراب كي يزرعوا ألغاماً».

«من أين جاؤوا بالرفوش؟».

«كانوا يحتاطون، فيأخذونها معهم، تكرر هذا ثلاث مرات».

ما دام ماغواير واحداً من ذوي المعنويات المرتفعة في الفرقة ١٢ فثمة صعوبة في اتهامه بالخطف والقتل العمد وإدارة شبكة دعارة.

أدار بصره عنه، ما الذي يسعى بيرنز إلى إثباته حقاً؟! ألم يكن أحد شركاء ماغواير في مغامراته العراقية؟ ماذا لو كان يحقد عليه لأنه نجح في إخفاء جرائمه وأحالها إلى بطولات؟ أليس العبث بالقوانين والسخرية منها خصلة في الحرب يتباهى بها الكثيرون إذا أرادوا تبرير ما اقترفوه؟

قبل ذلك، هل يصدق ما ادعاه بيرنز عن بطولته بعدم السكوت على قتل الفتيات، ألا يستدعي فتح تحقيق سيكون فيه متهماً أسوة بماغواير، ولن يشفع له إنقاذهن من القتل؟

ترى ممّ يشفيه الآن، من إنهاك المعركة أم من الجبن والحسد والغيرة؟

القصة بشعة سواء كان بيرنز صادقاً أو كاذباً، ولا يمكن إثارتها باتهام ماغواير وجماعته. مع أنه يعرف بأن الأسوياء هم الذين يسقطون ضحايا الاضطرابات النفسية الظرفية، أما القتلة والزعران والعصابيون فيصمدون في جميع الظروف.

في أسوأ الأحوال، كل هذا مبرر، إنها الحرب، تحول الجنود إلى مجرمين، وإذا كان ضحاياها كثراً فليس من المستبعد أن يكون من بينهم مدنيون أطفال ونساء وكبار في السن.

نفخ كيلي حانقاً، أمعن النظر إليه، ليته لم يتكلم.

فكر، الطريق إلى العدالة كيفما اتجه شائك، ولا ضمانة في تخطي العتبة نحوها، لكن ماذا يعني الوصول إليها؟ لن يحاول، ولن يقاتل من أجلها، لا يريد أن يكون الباحث الوحيد عن الحقيقة، اكتفى منها بهذا القدر البشع، لن يُظهره، بل سيخفيه. وإذا كان سيفعل شيئاً، فلن يكون سوى لملمة ما أحدثه جنود شبان حمقى، لا مجرمون. الحمقى نلومهم، وقد نقسو عليهم، لكننا لا نجرهم إلى المحاكم، ولا نُشهّر بهم؛ أسوة بهذه الحرب المجنونة. من يتجرأ على محاكمة الحمقى الذين أشعلوها؟

«أسألك، هل تريد التخلص من كل هذه الوساوس، وتعود إلى

حياتك الطبيعية كأن شيئاً لم يكن؟! حسناً، ما عليك إلا أن تنكر كل ما لغوت به. بالنسبة إلي، أنا لم أسمع شيئاً منك».

«والفتاة؟».

«دعك من الفتاة سأعالجها، إنها مشكلتي وليست مشكلتك. بعد بضعة أيام سوف تكون على ما يرام».

أرخى بيرنز رأسه. هل كان يفكر بعرضه؟ رفع رأسه وقال:

«سأتحمل نصيبي من المسؤولية، وأقوم بالإبلاغ عنهم».

«إذا لم تنكر، فسوف تصبح هناك قضية، لن تستفيد منها، سيسارع الكثيرون لطمسها. أريد تبرئتك أيها الغبي».

«لا تبرئني، الأمر أصعب مما تتصور».

«بالعكس الأمر سهل جداً. انس ما قلته لي».

«لا تطلب هذا مني، أنا لا أستطيع».

كان لابد من إخراجه من قضية لا مكان له فيها إلا على أنه المجرم الوحيد. مسؤوليتي عنه تستدعي تبرئته، وإبرازه على أنه الضحية. أما الفتاة فأردت شفاءها وتأهيلها للحياة، حياة لا علاقة لها بالإرهابيين، ولا أن نستخدمها نحن الأميركيين مادة للدعاية ضدهم.

أردت إنجاز عملي من دون ضحايا ولا انتحاريين.

17

مثال سيئ لكنه حقيقي

أجّل كيلي الجلسة المقبلة لبيرنز يوماً آخر، إقامته ستطول، لم تعد مؤقتة، أرسله إلى قسم الشؤون الإدارية، لتأمين منامة له في المهجع المخصص لفصيل الحراسة من الجنود العاملين في المستوصف والمستشفى. لن يعيده إلى سامراء قبل إنهاء علاجه وزحزحته عن عناده.

في انتظار الفتاة والمترجم، أعد كيلي ملفاً عنونه باسمها «بثينة»، وتأهب لاستقبالها. بعد أقل من ساعة دخلت ووراءها المترجم أبو سعيد. هذه المرة، الترتيبات نفسها؛ لن يطلب منها التمدد على الأريكة. بعد هذه الجلسة ستحس بالأمان وتألف المكان، فيصبح الاضطجاع أمراً مقبولاً دون شبهات عربية.

طلب منها الجلوس على الكرسي، بينما جلس المترجم على طرف الأريكة. مظهرها الهادئ أوحى أنها غدت في حال أفضل

من البارحة، فارقتها حالة الشرود، وذهب عنها التوتر. بدت على استعداد للكلام، وللتفكير أيضاً.

عزم على تجنب ذكر بيرنز خلال الجلسة، لئلا يثير مواجع كانت قادمة في حينها. لكنها سألت عنه، فانتهزها فرصة وقال لها إنه ليس أحد الجنود الذين اغتصبوها، اعترافه المرتجل لا يُعتد به، ولا يؤخذ على محمل الجد، أو يشكل دليلاً ضده. حالته المرضية منساقة للكثير من التهيؤات غير الواقعية، ومعاناته النفسية تدفعه إلى التطوع لحمل أوزار الآخرين والاستمتاع بها. أما بخصوصها فينبغي عليه مصارحتها، إن وضعها غير المستقر نفسياً، لا يسمح لها بتمييز جندي من آخر، وبالتالي لا يمكن الجزم بشهادتها، أو اعتمادها كدليل، هي أيضاً تعاني من تهيؤات مشابهة غير جدية، حالياً ينصحها بألا تلقي بالاً إليها، سوف تتخلص منها في غضون أيام.

كان يريد أن يمحو من ذهنها صوراً كثيرة على رأسها حلبة العروض الجنسية الحية. لن يستطيع التقدم خطوة واحدة إن لم يبعد الصور نفسها عن ذهنه هو أيضاً. قد تؤرق ضميره، لكن بعد أن يمضي عليها الزمن، ماذا تكون سوى شيء أشبه بكابوس؟ عساها استيقظت منه.

لاحظ أنها ترمقه بسخرية. لا يلومها، كلامه غير مقنع، ومع هذا عاد وأكد لأبي سعيد أن ما صدر عن بيرنز ليس أكثر من ثرثرة فارغة أطلق بها بعضاً من مكبوتاته بطريقة ملتوية. كل شيء متوقع من هؤلاء المرضى العصابيين المبتلين بلوثات مزمنة، لا يمكن معالجتهم على المدى القصير، يُمضون أحياناً عمرهم في استعمال المهدئات، وإزعاج من حولهم.

وافقه أبو سعيد وترجمه للفتاة بشكل موجز.

راقبها كيلي وهي تصغي إلى أبي سعيد، لم يلحظ رد فعل سيئاً. كانت تستمع، ملامحها باردة، لا تعبر عن شيء، أو أنها استخفت بما سمعته. أدرك أنه إذا استمر هكذا مؤكداً من جهة ونافياً من جهة أخرى، فلن تثق به. فقرر تحويل اتجاهه نحو مسار آخر، يؤازر فيه دعواها، ويؤيد اتهاماتها، قد يحقق تقدماً سريعاً. ولكي يخطو خطوته الأولى، بادر قائلاً لها بتؤدة، إن حقها لن يضيع، سيوصل قضيتها إلى الجهات العسكرية والأمنية المسؤولة للقبض على الفاعلين. وتعهد لها:

«لن أدعهم ينجون بجريمتهم».

بثَّ الرجاء في داخلها، لاحظه من الارتياح الذي ظهر على وجهها، مما بعث الأمل فيها، فأضاء ملامحها للحظة سرعان ما ارتدت غائمة. تخيل في تلك البارقة، أنها لو ابتسمت فسوف تكون ابتسامتها جميلة.

عند هذه البارقة، انتهت قضيتها، لن يوصلها إلى أية جهة، ولن يُقبض على الفاعلين، ليست مشكلته ألا يلاقوا جزاءهم. إذا كان المطلوب معالجتها، فإثارتها ستجعل حالتها تتدهور، لا جهة ستأخذ بها، الجميع سيتبرعون بطمسها. لكنه لم يطمئن، نظراتها أقلقته، أحس بضرورة إخراجها من هذه القصة، ما دام بدأ ببيرنز، فعليه أن ينتهي بها، قال لها:

«اسمعي مني، لن نثير هذه القضية حالياً، بل في الوقت المناسب».

لو حاولت أن تعارضه، فسوف يقول لها، ليست القيادة والجيش ضدكِ، بل والعالم كله، أميركا في قضايا الإرهاب، هي العالم كله.

وبما أنها لم تعترض، أحس أنه حقق تقدماً ضئيلاً، لا يزيد عن خطوة أو أقل، كانت كافية ليواصل التقدم بحذر. لن يكلفه إصلاح أمره معها سوى بضع كلمات أخرى، سرعان ما تواردت على لسانه بعفوية:

«المستحسن أن تتعافي نفسياً».

تمنى لو يدفعها بعرضه هذا نحو القبول بما اقترحه عليها من دون وساوس، وعلى أن تتقبله بحدوده، الشفاء فحسب. أما ما تهدف إليه القيادة، فالأفضل ألا تفكر فيه، حتى هو لا يثق بهم.

رد فعلها الذي تباطأ كان سلبياً جداً، كانت تنظر إليه ساخرة، لا، لم تكن آبهة بأن تشفى أو بالمعافاة. ما زال مشواره معها طويلاً. ما زالت على حالها، ولا يجهل لماذا؟ وإن كانت أعادته إلى البداية.

لكن من أين جاءه التفاؤل؟

عثر على الجواب، لم يكن لغزاً: كان هو الذي يتكلم، أما هي فكانت تسمع، الإصغاء ليس دليلاً على القبول ولا الموافقة، وتحقيقه للتقدم مجرد تخيلات. غير أن ما تخيله ثانية كان مرعباً، ومرسوماً على وجهها؛ كانت تتوعده، قضيتها لن تحل بالوعود والمحاكمات، بل بتفجير نفسها وتمزيق العدو إلى أشلاء. وكأنما عاد إلى الصفر.

هل يتخيل أم أنها تقاومه، لكن إلى متى؟ ما دامت صعبة المراس، فمهمته صعبة، اختارت أن تُشفي نفسها بالانتقام، فلم يستبعد التفجير والأشلاء. لن يتركها طُعماً لأحقادها، سيعمل بالتدريج على أن تفقد كل ما يمكن أن يشكل تضاداً مع الواقع الحقيقي، ويفتح لها أبواب حياة أفضل، تمتلئ بالفرص الواعدة، طبعاً بلا ضمانات. في يوم ما ليس بعيداً، ستدرك أن الحياة مروعة مهما بلغت من الروعة، لكن بعد أن تكون قد تعلقت بها.

خطتي كانت، قبل السعي إلى تأهيلها واستعادة ثقتها بنفسها، إعادتها من عالمها المرعب إلى الحياة اليومية العادية. لا يمكن دفعها إلى اجتياز هذا الفاصل الكتيم بين عالمين دون تفكيك الرعب المسيطر عليها، وتبديده إلى هباء، وتخليصها من أهوالٍ، الجزء الأكبر منها ناجم عن تضاعيف حدث مؤلم، خلّف مخاوف متينة، وإن كانت غير راسخة. ينبغي للحقائق ولو كانت قاسية أن يكون لها الأسبقية في المعالجة. بعدئذٍ لن يضيرها شيء، ستكتسب مناعة تدفع عنها ما يؤرقها، وتنير لها طريقها.

الأجدى توضيح صورة ما حدث، على أن يجري تفنيدها، كي لا تعتقد أنها أصيبت بما يشينها إلى الأبد.

«الأمر ليس كما تتصورين».

اختار أولاً إطلاعها على الخندق المقابل، إلى حيث تظن أن هناك من يتربص بها متحفزاً للانقضاض عليها واغتصابها.

«هل تعرفين من يكون هؤلاء الجنود الذين ارتكبوا هذه الأعمال

الحقيرة؟ إنهم مثلي ومثلك، والأرجح أسوأ، قليلاً أو كثيراً، أولاد ساقطون ذوو إرادة ضعيفة، معرضون للأخطاء والسخافات. لا، ليسوا متوحشين ولا مجرمين. بل جنود يافعون بعيدون عن بيوتهم، لم يتوفر بقربهم إنسان حميم. ببسيط العبارة، يفتقدون الدفء، ومن الممكن رد خطاياهم، وعلى الأصح زلاتهم إلى حاجتهم إلى صديقات للتعويض عن صديقاتهم في الوطن».

بعدما انقض عليها بالإنكليزية، التفت نحو المترجم كي يقلبها إلى العربية.

تردد أبو سعيد، الترجمة شاقة على الرغم من بساطة العبارة، ولابد لإيصال المعنى إلى بثينة، أن تحافظ الفكرة على سويتها المخاتلة، وإلا فلن تتقبل فلسفة الطبيب في تحويل المغتصبين إلى شبان يتشوقون إلى لقاء صديقاتهم.

بثينة استمعت واستغربت، التبريرات شوشتها. لم يستوقفها سوى أنه لا صلة بين الصديقات والجنود والاغتصاب!! لم تفهم تماماً ماذا يعني بالدفء!! حاول أبو سعيد أن يسد الثغرة التي أغفلها الطبيب:

«الصداقة لديهم لا تعني ما تعارفنا عليه في بلادنا، هناك يقيم الشبان مع صديقاتهم علاقات دافئة، أي غير باردة».

سارع وبرر مفهوم الصداقة الدافئة بأنها في حقيقتها ساخنة!!

توقف عند هذا الحد، مع أن المعنى يقوده إلى تفسير مواتٍ وهو اضطرار الأصدقاء والصديقات إلى خلع ملابسهم من شدة الحر، مع أن بلادهم باردة، وهذا وحده كاف لتدرك ما يحدث بعدها بينهما.

كان في هذا اللف والدوران تلاعب طريف لا تطيقه حالتها. حسم الأمر قائلاً:

«المعنى أنها جنسية».

وتابع بعد هنيهة، ولم تكن استوعبت بعد الفروق الحرارية:

«نحن نستنكر هذا النوع من الصداقة، وفي الحقيقة ليست صداقة».

الشرح لم يكن كافياً. تابع:

«ربما بعض حالات الاغتصاب لديهم تحدث تحت تأثير هذه الصداقة».

أدرك أنه يتخبط، لابد من علاقة بينهما، بحيث تؤدي الصداقة الجنسية إلى الاغتصاب الجنسي:

«الصديقات أحياناً يتمنعن من باب الدلال، مما يجبر أصدقاءهن على ممارسة الجنس معهن عنوة. الطبيب يريد القول إنك كنت البديل من صديقاتهم، أي إذا كان اغتصاباً، ينبغي أخذه على المحمل الحسن، هذا يحدث أحياناً بين الأصدقاء. أظن هذا ما يقصده».

وعلى الرغم من إحساسه أنه بالغ في التأويل، فقد أصاب المعنى الخفي الذي أراده الطبيب. بثينة لن تؤوّل، قالت:

«الصداقة إذا خالطها الجنس فهي صداقة غير بريئة».

أحس بالارتياح، بعد أن أنقذته بهذا التوصيف:

«كما تقولين تماماً، صداقة غير بريئة».

ترجم ما قالته وطلب من الطبيب ألا يعتمد على عدم توفر صديقات للجنود، هذا المثال، لا يصلح عربياً، ليس فقط أنه غير واقعي، بل ويسيء إلى فكرة الصداقة الخالية من المنافع الجنسية.

وافقتُ أبو سعيد، المهمات القتالية على أرض المعركة لا تبني صداقات بل عداوات. هذا في الحد الأدنى، أما في الحد الذي يليه فاغتصابات. فكرت بمثال آخر، لكن عبثاً، مقاربة الواقع في بلد محتل تحتاج إلى جرأة كبيرة، الحدود الأعلى لا تبرر اغتصاب الفتيات فقط، بل والأطفال... كذلك القتل للتسلية والترفيه عن النفس. كما أن هناك من يضاجع الأموات، ويتلذذ بذبح النساء وتقطيع أوصالهن وأكل لحومهن، وتناولها شطائر. هذا ليس مباحاً، لكنه وارد حتى في أوقات السلم، فما بالنا في الحرب.

هل أقول لها إن مصيبتها لا تستحق الذكر إزاء مجازر المصادفات؟! قد تصاب بصدمة لن تشفى منها إلا بمعجزة لن تحدث. العراق ليس أرض المعجزات، لو أن لدى هذا البلد القدرة على صنع معجزة، لما تمكنت منه جيوش التحالف خلال أيام قليلة.

بحث كيلي عن مبرر آخر، أسعفه به خاطر مرّ سريعاً:

«الظروف القاسية للجنود تضطرهم إلى خيارات خاطئة. وبالتالي إذا كان اختيارهم للفتيات الثلاث سيئاً جداً بالنسبة إليهن، فإنه كان صحيحاً جداً بالنسبة إليهم، إنهم بحاجة إلى التنفيس عن احتقانهم الجنسي. الواقع يقول، لا أمان صحياً مع العاهرات، لا

يضمن أحد خلوهن من الأمراض المعدية، بينما فتيات المدارس والجامعات أضمن صحياً، هذا مثال سيئ، لكنه حقيقي».

تنحنح أبو سعيد، كيف يترجم هذا الاختيار السليم إلى المنطق غير السليم؟ هل تكون ضحية جنود يحبذون الفتيات النظيفات من الأمراض التناسلية، لئلا تتأثر سلامتهم الصحية؟!

كانت فكرة الانتقاء الواعية بشعة بحد ذاتها، تستهين بأعراض النساء، بذريعة طبية. هل تعبر عن الواقع الذي يتعامل معه الجنود؟ طبعاً لا، ومع هذا حاول أن يشرح لها أن المسألة ليست مسألة اضطرار فقط، نجم عنه اختيار موفق، منحها امتيازاً في صالحها. إن العقامة التي تتمتع بها ميزة لا يستهان بها، فهي لا تحمل مرضاً يُخشى من نقل عدواه إليهم، هذا ما شكّل إغراء لهم.

كان قد تورط بتفسيرات جعلتها هي المذنبة، كانت عقامتها سر جاذبيتها، والدافع الذي سوّغ اغتصابها، وبالتالي هي مسؤولة عما اقترفه الجنود معها. ومع هذا تابع نقل الفحوى الكامن والنهائي لما يوحي به الطبيب.

«هل هذا ما يقوله؟».

«ما وقع عليك يستدعي منك تفهم أسبابه، مع أنها ليست الحقيقية».

«لماذا؟».

«لأنه لا يمكن تبريره».

كان وقد استفزّه الطبيب، يبغي استفزازها.

«الخلاصة، هذا ما يريد قوله: مادام الجنود بعيدين عن وطنهم،

فهم في حالة حنين يضطرهم إلى استعادة ذكرياتهم بوسائل حتى لو كانت شريرة، تبيحها حالتهم التي تستثير التعاطف معهم في محنتهم».

أراد أن تكون على بيّنة من العلاج، بإطلاعها على المعنى العميق لوسائل الطبيب الحضارية، الذي يحيل الاغتصاب إلى فعل عادي، صحي أو اضطراري، أو اختياري، أو ما شاء له. ولهذا عليها تفهم ظروفهم والتسامح معهم، والتغاضي عما حصل لها.

كان قد حصل على ما يبتغيه؛ أثار غضبها على الطبيب.

هتفت بثينة: الطبيب مخبول!!

قال المترجم: بل أحمق.

والتفت نحوه، بدا الطبيب أحمق فعلاً، قال له بانفعال:

«لماذا لا يغتصبون المجندات اللواتي معهم؟»

«أغلب المجندات إما سحاقيات أو مسترجلات».

«هذا لا يمنع اغتصابهن».

كيف لأبي سعيد إدراك أن قضاء رغبات الجنود لا يمكن أن يحصل على حساب المجندات ولو كنَّ شاذات، نزعاتهن الجنسية الخاصة لا تتيح لهن مشاركة الرجال رغباتهم، ولا تروق لهن هكذا اتصالات جسدية، لاسيما أن اختياراتهن لجنس شركائهن نهائية.

أبو سعيد لم يستوعب الفكرة، رفض واعتذر عن الترجمة، قال إن فيها إهانة للفتاة؛ ألا تكون لها حقوق

السحاقيات الأميركيات، لأنها عراقية!! كان من المستحيل أن اذكر له السبب الحقيقي وهو أن عمليات الاغتصاب تحدث لأن النساء العراقيات بمتناول اليد، ومن الممكن التغاضي عنها والتستر عليها. أما المجندات فالأغلب أن تنكشف وتنتج منها تحقيقات ومقاضاة وشائعات وصحافة وإعلام... لم يمض بعد على الفضيحة الأخيرة زمن طويل، اتُهم فيها رقباء تدريب ذكور بإقامة علاقات جنسية غير لائقة مع عدد من المجندات، وأدينوا في المحاكمة.

لم يكن بوسعي مهما تحايلت أو ذهبت بعيداً في ردي، إهمال واقعة الاغتصاب بالذات، لكنت بحاجة إلى جواب حاسم أُسكت به أبا سعيد.

قال كيلي: القوانين الأميركية تمنع الاغتصاب.

رد أبو سعيد: القوانين العراقية تمنع أيضاً.

قال كيلي: لا تحول الحديث بيننا إلى مباراة. ترجم ما تسمعه مني فقط.

قال أبو سعيد: لا تحرجني معها، إنها فتاة ذكية. قُل كلاماً معقولاً.

لأول مرة يجد كيلي مشكلة مع الذكاء، كان يعتقد أن الحياة البسيطة لا تحتاج إلى معدلات ذكاء عالية، خصوصاً بين النساء.

قد لا يعجبك ما سأقوله، لكن هذا ما خطر في بالي حينها: إذا كان الذكاء يُسهل الأمور في أميركا، فهو هنا في العراق يُعقدها.

ولأول مرة يدرك أبو سعيد أنه أصبح من محبذي وضع رقابة على الترجمة، لا ينبغي تركها على عواهنها، خاصة إزاء طبيب كهذا ومعالجة كهذه. أحس بالارتياح، لم تعد مسؤوليته تجاه بثينة مشكلة عويصة، وعده لها بأنه سيمنع شفاءها أخذه الغبي كيلي على عاتقه، كان يقوم به على أحسن وجه.

لم يلحظ كيلي التطور الذي طرأ على أبي سعيد، تابع نظرات بثينة، وكان فيها ما يفوق الاستخفاف، أدرك أن رعونته زادت مأزقه سخافة. على أنه سيحاول ثانية ويأخذ بعين الاعتبار ذكاءها، ويغير الاتجاه ثانية، ويستخدم توصيفات أخرى، ربما وفّق في استعمالها والتعبير عنها. لن يلقي باللائمة على الجنود، لئلا يتكبد عناء الإجابة عن مزيد من الأسئلة عن ظاهرة غير طبيعية، لكن بما أنها تتكرر، ينبغي أن تفهم على أنها طبيعية.

أراد الاطمئنان قبل أن يتخبط في التوصيف ثانية، ويستثمره المترجم على نحو مضاد.

«هل تجد عسراً في الترجمة؟».

«لا، بل في أن ما تقوله لا يصح ترجمته».

قالها وصبره قد نفد، كان وبجلاء، يرفض المتابعة، بل ويلومه:

«لماذا لا تقول شيئاً يستحق أن يُسمع؟!».

لم تكن محاولاتي ساذجة ولا اعتباطية، سعيت إلى خفض آليات الرفض لديها، بفتح ثغرة في قناعاتها الثابتة، من خلال فهم مختلف، خلاق وواقعي لما جرى، عار من الوساوس، هذا الفعل لو شاءت لم تقم له وزناً، أو رزحت تحت أثقاله. أنا أردته تافهاً.

إذا كانت هذه المحاولات قد نجحت في أميركا، فلم لا تنجح في العراق؟

أحس كيلي بالعجز، ليس لديه ما يقوله ما دام المترجم واقفاً له بالمرصاد. كان بحاجة ماسة لإعادة ترتيب أفكاره مع بداية أخرى، وإلا لكان إخفاقه كاملاً. لابد من إيجاد سبب يعتذر به عن عدم الاستمرار في الجلسة.

لم يحتج إلى سبب، جاءه عبر الهاتف، اتصلت به ممرضة أبلغته أن مريضه جاك بيرنز نقل إلى المستشفى بحالة إسعاف بعد محاولة انتحار فاشلة.

18

فليستمتع بهذا العذاب، ألم يسعَ إليه؟

في المستشفى، سأل موظفة الاستعلامات عما حلَّ بالجندي المنتحر، أعلمته أنه تم إسعافه، لكن مازال تحت الرقابة الطبية، بعد نقله إلى القبو، قسم المحتجزين لصالح الشرطة العسكرية للتحقيق معه.

لم تعد المشكلة كبيرة ولا عاجلة، مادام صديقه الليفتنانت كليف هو المسؤول عن احتجازه. وجده في مكتب القبول ينهي بعض الأوراق. شرح له كليف حالة بيرنز، وأعطاه ملخصاً عن إفادات شهود العيان حول محاولة انتحاره:

لم يلفت القادم الجديد المتوتر الأعصاب أنظار الجنود في المهجع، فلم يهتموا به. تجول بينهم متحاشياً الكلام معهم. لفتت البندقية المركونة إلى الحائط انتباهه، فحام حولها. بعدما تسلم سريره، تمدد مغمضاً عينيه، يُعدُّ خطة انتحاره. ثم نهض بعد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قليل، غافلهم وتناول البندقية من دون استئذان، تنبه صاحبها الجندي إليه، صرخ عليه وحذره من العبث بها. لم يصغ إليه، فانتابه الشك. كان القادم الجديد الذي أخذ يتصرف آلياً قد تشبث بالبندقية وأخذ يتفحصها ثم لقمها. اندفع الجندي نحوه وحاول انتزاعها منه، فدفعه بيرنز بخشونة بعيداً عنه، نادى الجندي رفاقه كي يساعدوه على التغلب عليه. وعندما ارتد ببصره إليه، كان بيرنز قد وضع فوهة البندقية في فمه، بينما أصابعه تمتد نحو الزناد، فرمى بجسده عليه؛ انحرفت البندقية، وخرجت منها طلقة استقرت في السقف. تدافع الجنود المتواجدون نحوهما، واحتدم العراك معه. دافع بيرنز عن نفسه بشراسة وأصاب اثنين منهم بجراح، ما اضطرهم إلى ضربه بشدة، إلى أن تمكنوا من ليّ ذراعيه وانتزاع البندقية منه، لكنه استطاع الإفلات منهم وأراد الهرب، فسدد جندي لكمة إلى وجهه رمته أرضاً، أفقدته وعيه، قيدوه وسلموه للشرطة العسكرية.

التحقيق الفوري الذي أجراه كليف مع بيرنز بعد إسعافه مباشرة، كان بلا جدوى، بيرنز لم يجب عن أسئلته، تهته بكلام لم يُفهم منه شيئاً، بدا غائباً عما حوله، ما أقنعه بأنه يشكو من خلل نفسي. استفسر عن سبب وجوده في المهجع، فعرف أنه جاءهم من قبل وحدة الإسعاف النفسي. فكان ظنه في محله، كان ممسوساً بشيء ما.

تعهد كليف بمراعاة وضع بيرنز الخاص، مع أنه رهن الاعتقال، وضعه الصحي ليس جيداً، لكن لا خطر جدياً عليه. ووعد كيلي، بعدم التقيد بالإجراءات الاحترازية. إذا احتاجت حالته، فسينقله يومياً تحت الحراسة إلى الوحدة. إلا إذا كان من المفيد الإفراج

عنه، ومتابعة علاجه في العيادة. لكن ليس قبل ضمان عدم تكراره محاولة الانتحار.

قال كيلي إنه سيرسل إليه تقريراً طبياً رسمياً عن حالته النفسية لإبقائه معزولاً عن بقية المرضى المساجين، ، ربما تابع علاجه هنا في السجن، إن لم ينقله إلى العيادة.

اصطحبه كليف إلى القبو، وكان يضم عدة أقسام مخصصة لاحتجاز مرضى موقوفين ارتكبوا مخالفات مسلكية، أو رهن التحقيق. كانت الغرفة الموجود فيها بيرنز في القسم الأخير. طلب كليف من الحارس تسهيل دخول الطبيب ساعة يشاء.

كان بيرنز نائماً، قُيدت معصماه وقدماه إلى قوائم السرير، الكدمات الزرقاء واضحة على وجهه ويديه. توقع أن تكون فوهة البندقية قد جرحت صدغه، أو أصابت فكه أو عينه. لكن لا إصابة مباشرة، بل أربطة مطاطية ملفوفة حول الرسغ والركبة، وعدة قطع من الشاش ملصقة حول رقبته، وانتفاخ حول عينه اليسرى.

ممرضة شقراء قصيرة القامة، كانت تتفقد الأربطة. سألها عن وضعه الصحي. قالت له: بعض الرضوض في اليدين، وتمزق في أنسجة المعصم الأيمن، الإصابة الرئيسة ارتجاج خفيف في الدماغ لاصطدام رأسه بالأرض. غيّرت قطع الشاش حول الرقبة فبانت الجروح غير عميقة. ثم أعطته حقنة مسكن ألم.

هتف باسمها: ليزا.

تساءل كيلي: كيف عرف اسمك؟

قالت: لم يعرف غيري، تسلمته منذ جاؤوا به إلى الإسعاف.

خرجت، بقيا وحدهما.

فتح بيرنز عينيه، حدق إليه بعينين جامدتين، كأن بصره لم يقع عليه سابقاً. همهم بكلمات خرجت من فمه أشبه بالأنين. الدموع تملأ عينيه وتسيل نحو سالفيه. لم يكن يراه. أراد كيلي أن يخفف عنه. لكنه تريث... لماذا؟

منظره لم يشجعه على مواساته، كان متهالكاً على الألم بكليته.

ضمير بيرنز كان حياً أكثر من اللزوم، لم يؤنبه أو يوبخه، كان يجلده، وكاد أن يقتله قبل ساعات قليلة. حيّرني انتقاله من حالة إلى حالة بهذه السرعة القياسية، وكل منها بلغت حدودها القصوى. ليس فرط الإنهاك ما جعل وضعه يتدهور، بل ما نجم عن الشعور بالذنب من استجداء للموت، استسلم إليه وتركه يستفحل، ما أدى به إلى حالة ليس من الصعب تشخيصها: «الحاجة إلى العقاب». بيرنز لم يتوان، أراد معاقبة نفسه بالموت، وأخفق في الانتحار، غير أنه نجح في إطالة فترة العقاب، ها هو يتعذب.

فليستمتع بهذا العذاب، ألم يسعَ إليه؟

يدرك الآن كم بات يثقل عليه، مع أنه قدم له أكثر من وصفة لينجو بنفسه. لا، لم يخطئ الظن به. لم يترك له مجالاً ليُخرجه من ضائقته. الحل الأمثل هو التصرف حياله بلا رحمة، لن يعبأ بظروفه النفسية القاسية، سيعالجه كيفما اتفق، ثم يتخلص منه بأقرب وقت ممكن، سواء شفي أو لم يُشف، قبل أن يصبح حالة غامضة جداً ومستعصية بالكامل.

كان يتنفس بصعوبة، ويحاول التخلص من قيوده، يداه لا تساعدانه في العثور على بندقية أفلتها، لكنه بعد جهد حثيث تغلب على ضعفه واصطكاك فكيه ورعشة يديه، وتمكن من الإمساك بها، فتح فمه وعقف إصبعه على الزناد، وأطلق الرصاص. يا للخيبة، لا نار ولا دخان.

انحنى عليه وهمس في أذنه:

«كان من المستحسن أن تموت».

لا فائدة، لن يسمعه.

ليته يستمر على هذا الثبات، في يوم قريب سيحالفه الحظ ويجد أكثر من بندقية ومسدس، لكن لن تتحقق أمنيته، حينها لن تحالفه الجرأة، ما حدث اليوم لن يتكرر فيما بعد، وريثما يخيب أمله، لن يعرف المسكين ما ينتظره: الشقاء لا الشفاء، مع الإحباط

«لقد مُنحت فرصة، لم تحسن استخدامها. ستحيا رغم انفك».

كان واثقاً أنه لن يكون وحده الذي سيجبره على الحياة، بل رؤساؤه، وأصدقاؤه، والجيش والقيادة والبنتاغون... سيضطرونه إلى ما يخشاه، العيش رغماً عنه، من دون خيار آخر. عندئذٍ، ستتكفل الذكريات باستدراجه إلى اجترار جريمة مصحوبة دائماً بالذنب.

«ليس بوسعك سوى أن تعيش».

لن يمنعه شيء عن الاعتراف ولا الندم مرة ثانية وثالثة، لكن من سيصغي إليه؟! القاضي سيبرئه من جرائمه كلها.

«لا تأمل كثيراً، بعد اليوم لا موت قريب ولا حساب عاجل».

لماذا لم يصح ضميره في حينها؟ استيقظ بعد فوات الأوان، حين لا جدوى من اليقظة ولا من الضمير، لن يأخذه العذاب إلى الموت، وإنما دائماً إلى المزيد من الألم. لن ينجو من هذا الذي يمكر به. سيتلفه ولا يقتله. فليثابر على اتهام نفسه ما شاء له، لذة لن يطول سوى مراراتها، يستطيع إيذاء نفسه بأية وسيلة، لكنه لن يرتاح. العقاب المميت الذي ينشده، فاته.

سمعه بعد قليل يقول بصوت خافت:

«اعذرني، لم أستطع التحمل».

«أعرف كان أمراً فوق طاقتك».

«لقد فشلت».

«لم يكن لديك سوى محاولة واحدة».

«ماذا تعني؟».

«لقد ضيعتها».

أخذ بيرنز يبكي. كيلي لم يشفق عليه:

«الأمر ليس لك».

تركه يبكي ومضى.

لم يذهب إلى عيادته. تابع طريقه إلى مكتب الميجور أدامز، وأخبره بمحاولة انتحار بيرنز. وطلب منه إعفاءه من علاج بثينة، كان غير قادر عليه. لم يعد يرغب بمعالجة أحد، إلا اضطرارياً، بيرنز تحديداً، لكي يتخلص منه بأقصى سرعة.

استمع أدامز إليه بمنتهى البرود، لم يعبأ بطلبه، يعرف مهما كان

موقف كيلي صلباً، فسيلين ويستجيب. تساءل بصوت لا يكاد أن يُسمع.

«لماذا؟».

لمجرد السؤال من دون رغبة في سماع جواب منه.

لا مبالاة أدامز وسخريته التي لم يظهرها بعد، ضاعفتا إحساس كيلي نحوه بالكراهية، ومع هذا كانت عادية ما دام أنها متبادلة.

«لن تشفى، نحن مؤهلون لتعذيبها».

تعجب أدامز من رقة الطبيب، لكن لا أهمية لما قاله، كيلي ليس من أصحاب المواقف المبدئية، بل هو في حالة سيئة، فقد الثقة بنفسه، فلماذا لا يتفوه بسخافات، هذه المرة تهديدات حانقة تبدو من العيار الثقيل، لكنها بلا وزن.

عدا أنه لا يملك أن يريد أو لا يريد.

«سأنقل طلبك إلى القيادة».

«لا يمكنني تحمل أكثر من ضحية واحدة، سأعمل على حالة بيرنز فقط. هذا إن أردتم أن يستعيد رشده، وإرساله شبه معافى إلى فرقته، أو تسريحه وإعادته إلى أميركا. إنه مصمم على الموت، وإذا أردت نصيحتي، فليمت هناك».

لم يقل له إنه قبل قليل أبطل لديه أي قابلية لمحاولة ثانية... منافذ الموت أمامه مسدودة.

لكن لابد من تعليل يبرر به تشخيصه الجديد.

«صحيح أنه فشل في الانتحار، لكن بقي إفشال جهوده المستقبلية، هناك علاج استباقي، ينبغي العمل عليه».

وإذ نظر إليه أدامز ساخراً. تابع:

«بالنسبة للفتاة بثينة، أحيلوها إلى طبيب آخر، أو أرسلوها إلى العراقيين، هم أولى بها، لماذا نتحمل وزرها؟! سيقدّرون وضعها أفضل مني، يطلقون سراحها أو... يتصرفون معها بشيء ما، قد تستجيب لهم».

الآن، إزاء لا مبالاة أدامز، لن يتردد، سيضع أمامه الحقائق الذي توصل إليها، لكي يدرك أنه ليس بإمكانهم أن يقدموا لها شيئاً، الاحتفاظ بها عبء مرهق للضمير، طبعاً سيتحاشى ذكر الضمير، سيؤكد أن التخلص منها أسلم وأكثر فائدة:

«هل تريد معرفة ما جرى فعلاً؟».

لم يكن أدامز يريد معرفة شيء، ولا يرغب بأية حقيقة، أدار له ظهره وأخذ ينظر إلى الساحة الفارغة في عز الظهيرة، بينما كان صوت كيلي يجرش في أذنيه...

الجنود الذين اعتقلوها اغتصبوها من دون إجراء أي تحقيق، لم يمارسوا عليها التعذيب بهدف انتزاع أية معلومات، وإنما أخضعوها لجميع أنواع الضغوط الوحشية لإخضاعها لرغباتهم الفاحشة، إلا إذا قلنا إنهم بدأوا من النهاية. الاغتصاب لم يكن الوسيلة الأخيرة، بل كان الأولى والأخيرة!! ارتكبه جنود أسوياء وأبطال، كانت هذه إحدى بطولاتهم. ما حصل وليكن معلوماً لديك: اغتصاب جنائي، متعمد ومتكرر، لا يبرره الاعتقال، الذي

كان اختطافاً تحت تهديد السلاح، أما مركز الاعتقال فكان بيتاً للدعارة ...

«هل تريد معرفة المزيد؟ لن يسرك على الإطلاق».

«لا».

«بل ينبغي أن تعرف».

«أعرف أكثر منك».

وتابع صارخاً في وجهه:

«كيلي، لا تتعبني، ولا تناقش، حالة بيرنز لا تهم القيادة، فليذهب إلى الجحيم».

كان لحالة بثينة الأولوية.

19

حظـوظ معدومــة

منذ بداية الجلسات، سيطر عليّ يقين أن بثينة اتخذت قرارها بالانتقام، ولولا المصادفة لما اعتقلت. هذا اليقين لم يتغير، وبما أنها لم تراوغني، أدركت أن العلاج لن يفيدها، كان مرفوضاً منها، ولا حاجة إليه، كانت قد اختارت الثأر لنفسها، وخياري كان محدداً، إما أن أدعها للمشنقة، وإما معاودة بث الأمل في داخلها مهما كانت الصعوبات، علّني أنجح، على أن تبذل هي جهداً بالمقابل، لكن جهدها كان منصبّاً على الممانعة. لو أنها تثق بي لجعلتها تتمسك بالحياة أكثر مما هي متمسكة بالموت. صراعي كان مع يأسها، ولم يكن سهلاً. من ناحية أخرى، لم أتبنَّ رأي القيادة إلا لأنه كان رأيي أيضاً، ما حدث لها نوع من أنواع الترويع الذي لا يمكن تجنبه في الحروب. أما

الاغتصاب الذي تعرضت له، فلم يكن أكثر من فعل جنسي رافقه العنف، ولن يضيرها التفكير فيه بحدوده من دون تزيّد، عقابيله ضئيلة، لا أكثر من رضّ نفسي.

بثينة ضحية من ضحايا حرب كانت ضرورية في سبيل الديموقراطية، لكن من الواقعية حالياً، تجنب الحديث عن الديموقراطية بالذات.

اتخذ كيلي حيطته من أبي سعيد، وقال له محذراً:

«تقيد بالترجمة ولا تتبرع من عندك بأي تفسير».

أبو سعيد لم يعترض، مادام الطبيب لا يعرف اللغة العربية، فالرقابة غير فعالة، على ألا تكشف تعبيرات وجه بثينة ما يدور بينه وبينها. الطبيب أعدّ خطة لحصارهم، وليس من العسير توفير خطة مضادة لإبطال مفعولها. تابع كيلي:

«سأتكلم اليوم بمزيد من الصراحة، قل لها هذا».

أبلغها بنية الطبيب، وشجعها:

«أجيبي أنت أيضاً بمنتهى الصراحة».

باشر الطبيب الحديث، واسترسل فيه، ولم يقطعه إلا مراعاة لإجراءات الترجمة، التي تتطلب وقفات للاستيعاب والنقل والتوصيل. توخى أن يذهب بها إلى مجاهل النفس الإنسانية السوية وغير السوية، ولم يغمط الأمراض النفسية مفعولها في تشويه البشر، وتحويلهم إلى انطوائيين معاقين ومجرمين عصابيين، من الممكن تفادي عواقبها بقدر لا بأس به من التعاون مع الطبيب، لا يكلف المريض عناءً، خاصة إذا كان متبصراً حالته.

هذه الأفكار، تطلّب شرحها عرض أمثلة كانت شائكة وإن حاول تبسيطها. بالإضافة إلى مدخل علمي لكي يصل إلى خلاصة لا علاقة لها بكل هذه المقدمات، وهي أن الحرب كظرف قاهر، تستثير النوازع الجنسية مترافقة بالتهديد والإجبار. أتبعه بسلسلة من النتائج، ركز فيها على الميول المازوخية التي يتوسل أصحابها من شركائهم في سبيل اقتناص المزيد من اللذة، إيقاع أكبر قدر من الأذى بهم بمختلف الوسائل الخشنة: تقييدهم بالأصفاد الحديدية، الضرب بالسوط والكرباج، استعمال الأدوات الجارحة، وقد يموت بعضهم أثناءها نتيجة تحريضه الطرف الآخر على ضربه بشدة، وانخراط شريكه في هذه المتعة، وقد يلفظ أنفاسه مترافقة مع بلوغه ذروة النشوة!!

في الحرب، إذا كان مبعث العنف الجسدي ميولاً سادية مكبوتة، فسوف يجد صاحبها في اغتصاب النساء والفتيات والأولاد متنفساً لها، وإذا توفرت لدى الطرف الآخر ميول مازوخية، فسيحققان معاً اتصالاً فريداً من نوعه، فعالاً ومُرضياً لكليهما.

كان أسوأ ما أوقعت نفسي فيه هو هذه الاستطرادات الجنسية، ذهبت بعيداً إلى حيث أضعت الطريق والبوصلة، في سبيل قول أشياء تقارب الخزعبلات العلاجية، مع أن ذلك التطابق المعاكس الجنسي الشاذ، كان من قبيل الطرائف الجنسية، ولو كان قابلاً للحدوث، لكن نادراً، أو مدفوع الأجر.

حديثي بالفعل كان موجهاً بالدرجة الأولى إلى أبي سعيد وليس إليها، أخذته إلى مناطق لا تخطر له. ليدرك كم هم قاصرون عن الاجتراء على اقتحام تابوهات

محرمة ولو بالخيال، أما نحن فلا محظورات لدينا، مهما كانت خطرة.

هذا إذا نظرنا إلى الانحرافات الجنسية بنظرة حيادية، فهي تحقق إشباعاً عالياً فيما لو تحقق لها قدر جيد من التوافق، عندئذ لن تنحط، بل ستصبح مثالاً فريداً على حالة داؤها دواؤها، وانقلاب المرض المستعصي إلى علاج شاف.

وختم استعراضه حول السادية والمازوخية، منوهاً لأبي سعيد بالفرصة التي أُتيحت لبثينة، ولم تغتنمها لأسباب خارجة عن إرادتها:

«لو أنها من النوعية الثانية لتمتعت بالجنس والعنف معاً بمشاركة عدة رجال من النوعية الأولى».

تنبه إلى أن هذا التعليل على علاقة بالألعاب الجنسية المشوقة والخطرة. كان من الحماقة إيراد هذا المثل، فحاول تلطيفه. استدرك قائلاً:

«لا تترجم عبارتي الأخيرة، هذا له علاقات بالمصادفات السيكولوجية الاستثنائية، ولسنا في مجالها».

وارتدّ ثانية، ربما أفلح هذه المرة:

في هذا الظرف القتالي، الاغتصاب فعل مفهوم وإن كان غير محبذ، ليس إشباعاً للرغبة فقط، بل تعويضاً عن القتل. يستعيض فيه الجندي بمضاجعة الآخر بالإرغام، إلى تصعيد النوازع العدوانية إلى نوازع جنسية. اقتحام الأنثى لا يقل عن الغزو، إنه احتلال

وهيمنة، سيطرة وفرض إرادة وتأكيد للذات وإثبات للقدرة على الفعل.

... وهو بمثابة انتصار، يحقق من خلاله الجندي ما أخفق بفعله في ساحة المعركة. لو أن المغتصبة شاركته الفعل لأحست هي أيضاً بالظفر على هذا الذي يغتصبها، ولأدركت تسيدها على هذا المدجج بالدبابات والمدرعات، وهي تسمع لهاثه بين فخذيها. وأبطلت بإقبالها على الفعل الجنسي تفاهة الأسلحة.

الجنس يُجهض الحروب، مثلما يؤججها، تلك هي إحدى الأفكار التي خطرت لي، لم أكتشفها، بل تذكرتها.

هذه المعاني، هل تبلغتها بثينة؟ لا.

القناة الموصلة لم تكن سيئة، بل معطلة.

المترجم لم يترجم شيئاً، ظن أن الطبيب يهرّج، وعندما تلمّحه جاداً ومصمماً أيضاً، خطر له أنه بحاجة إلى تطبيب. كان من المستحيل التطرق إلى الأفخاذ واللهاث؛ أو التجرؤ على إفهام بثينة أن الاغتصاب هو الجانب الإيجابي من الحرب، يكسر حدة التوتر العدواني... نعمة لا ينبغي التقليل من شأنها.

«من الصعب ترجمة هذه الفكرة، كيف ستصدق أن ما أصابها من انتهاك وتنكيل، قد يُشعرها بالانتصار؟! لديها تجربة عادت عليها بالإذلال».

استنكر محاولة أبي سعيد تفنيد تنظيراته.

«لا بد من صدمة، هل أنت أدرى مني بما يفيدها؟!».

«اسمح لي إذن، بالابتعاد عن الترجمة الحرفية، والتحايل على بعض التعبيرات الفظة بمترادفات لا تؤذي مشاعرها. الفتاة صغيرة وبريئة».

كيلي لم يعد يفهم، أبو سعيد لا يترجم بل يعترض ويناقش:

«لم تعد بريئة بعد أن اغتصبوها طوال أشهر. قل لي ما الذي لم يفعلوه بها؟! لم يوفروها من أية قذارة، حتى تلك التي لا تخطر على البال. لقد استباحوها، لم يعد هناك شيء تجهله، إنها تعرف أكثر منك ومني، تعرف أكثر من العاهرات».

احمرّ وجه المترجم بينما واصل كيلي هجومه:

«لا تتوقف، ترجم ما قلته لك، أم أنك غير قادر؟».

«نعم غير قادر لشعوري بالخجل. هذا كلام غير لائق، وبصراحة في منتهى البذاءة والانحطاط».

أحس كيلي أنه كان وقحاً في التعبير عن عدم براءتها، ومع هذا غضب:

«لا تقنعني، لا بديل عن الدقة مهما كانت فاحشة».

«ترجمة هذا الهراء ترعبني، إنها بعمر أولادي، ولا أتصور أنني أتكلم معهم بهذه الطريقة».

كان على استعداد ليس لعدم التراجع، بل وللصدام معه. آراء الطبيب لم تعد مقبولة بعد أن اتخذت منحى وقحاً ومتعمداً.

ماذا يدعى هذا العناد سواء كان مني أو منه؟ هل له علاقة بالكرامة؟ لا أدري، فلأزح أبا سعيد جانباً، كان

لما حدث علاقة بتقديري السيئ للأمور. لم أدرك أنني تجاوزت في علاجي العلاج نفسه، إلا عندما رأيت منظر أبي سعيد المتقزز والمتحفز، كنت في زحام أفكاري أتنقل من فرضية لأخرى بلا محاذير، لم أكن لأرتكب هذا في حالات أخرى. لم يكن استفزازي له إلا بفعل الغضب.

ولقد أدركت متأخراً أنه لا يجوز استغلال هذه الفتاة واستعمالها حقلاً لتجارب متخبطة. أجلت العملية كلها، لا ينبغي التوغل في مشكلتها بلا حذر. الأمر الهام الذي فاتني أنني لم أتعرف على الفتاة بعد، كنت أجهلها.

حاول كيلي تهدئة الموقف.

«فلنقل إنها كانت مصادفة سيئة من الممكن أن تصيب أي فتاة. هذه المرة كانت من نصيبها ورفيقاتها».

أبو سعيد لم يفلته، تبرع بتساؤل من دون الرجوع إليها:

«شيوع المصادفة لا يعفي الفاعلين من العقاب».

«كلا، لا يعفيهم، إنهم أناس أوغاد، لا يخلو منهم جيش في العالم، ولئلا نضخم المأساة، فلنقل إنها إصابة حرب».

«هل تعني إصابة حرب أنها من الخسائر الجانبية المسموح بها؟».

دار النقاش بيني وبين أبو سعيد الذي توخى ألا يشرك صاحبة العلاقة به. وكان عليّ كي أفحمه أن أتكلم بلغته.

«البشر في هذه المنطقة، يؤمنون بالحظ، وما داموا تحت الاحتلال فحظوظهم معدومة، إن ما أصابها يعد لا شيء إزاء الذين قتلوا. إذا أردت سبباً مقنعاً لما حدث، فهو أن وجودها في هذا البلد لم يجنبها هذا المصير».

لم ينتظر الجواب من أبي سعيد، توجه إليها، وقال لها باختصار بليغ:

«حظكِ سيئ».

لم يكلف أبو سعيد نفسه عناء الترجمة. سأله كيلي وقد حيره صمته:

«لماذا توقفت عن الترجمة؟».

وانتظر ترجمة العبارة الأخيرة، بعدها يغلق الجلسة لهذا اليوم ويستريح. أبو سعيد لم يدعه يستريح:

«إذا اعتقدنا بالحظ، فلا مسؤولية على أحد، حتى أنت بوسعك التذرع به في عدم شفائها».

> **لم يكتف أبو سعيد بلعب دور المترجم السيئ، بل وانتحل دور محامي الدفاع. كان الوسيط المتحكم بالتوصيل بيني وبينها، وبوسعه تخريب كل ما أسعى إليه. لم أطلب استبداله، غيره لن يكون أحسن منه. كان إقناعه يعني إقناعها، لا يمر شيء إلا من خلاله. قبلت التحدي، وأقدمت على خطوة عملية، كنت جاداً فيها.**

رفع كيلي السماعة وطلب من الميجور أدامز إلغاء الحراسة على

الفتاة بثينة، لا داعي لأن يرافقها جندي من الشرطة العسكرية، المترجم أبو سعيد سيتكفل بمرافقتها من المعتقل إلى العيادة، وبوسعهم التنقل معاً خلال النهار في المنطقة الخضراء، ريثما تنتهي الجلسات.

«إن شعورها بقدر معقول من الحرية سيُساعدها».

ولكي تكون أريحيته في مكانها، قال لأبي سعيد إن هذا يشمل اليومين القادمين، بوسعه عدّهما يومي عطلة أسبوعية، سيمنح بثينة إجازة، بلا جلسات أو احتجاز، على أن يعيدها أبو سعيد يومياً إلى المعتقل قبل غروب الشمس.

«لكي تعلم مريضتنا أن للحياة وجهاً آخر».

20

كيف تأتّى كل هذا القتل من قلب ذاك الركود الروحاني؟!

بالنسبة إلى كيلي، كانا يومي عمل. إيقاف الجلسات المؤقت أتاح له فسحة من الزمن لترتيب مدخل آخر. يلزمه بعض الوقت والهدوء للتفكير بمنهجية غير عدائية، وأقل حدة للتوصل إلى معالجة فعّالة.

لم يكن كافياً معرفة بثينة، وإنما معرفة ما الذي يؤذيها، ويفقدها أعصابها ويثير غضبها كي أتجنبه. ربما كان في أسلوب معالجتي ما يحرض على استفزازها. لم أكن مستعداً لارتدادات تذهب بالعلاج إلى عكسه. كنت متأكداً من أمر واحد، أنها بحاجة إلى رعاية حقيقية، وهذا ما دفعني لأن أضعها بين يدي المترجم، ربما استعادت بعض ما افتقدته من أمان وطمأنينة.

كان أملي من هذه الخطوة أن أتمكن أيضاً من تحييد أبو سعيد، وأن يتعهد لي بأن يقتصر عمله على لعب دور المترجم النزيه فقط.

اتصل كيلي بصديقه كليف ضابط الشرطة العسكرية، والتمس منه التحفظ على بيرنز، وعدم إثارة قضية انتحاره، لئلا يجري تحويله إلى المحاكمة. إن تعريضه للتحقيق يعني إبقاءه فترة طويلة بين الجدران، مما يزيد وضعه الصحي والنفسي تدهوراً، سيعاينه اليوم في المعتقل. إذا كانت حالته قابلة للتحسن، فسوف يرسل إليه تقريراً إيجابياً يطلب فيه إطلاق سراحه تحت كفالته.

في معتقله بالمستشفى، ومن النظرة الأولى، بدا أن تشخيصه القديم لحالة بيرنز لم يخطئ، بل أصاب وأزود قليلاً، حالته تفاقمت نحو الأسوأ، مع أنه تحرر من القيود والشاش والأربطة. كان باضطجاعه على السرير، وتقوقعه إلى جانب الجدار مثيراً للشفقة، بهيئته المنكوبة هذه، وقد أخفى رأسه تحت ذراعه، خائفاً من العيون غير المسلطة عليه، مختبئاً من مطاردين وهميين مُعَرِّضاً ظهره لجلادين غير مرئيين يتناوبونه بسياطهم، يرزح تحت وطأة الضمير والذهول.

كان باستسلامه لهذه الوضعية المهينة، يبدو متجهماً ومقززاً، تجاعيد وجهه قاتمة، فمه مفتوح واللعاب يسيل منه، يبعث على القرف لا الرثاء، قد استدرج إلى فاصل صامت يعبر عن انغماسه في طريق الملامة، لا يجهده بقدر ما يهيئه لتخيّلات مَرَضية ولعذابات أشد.

حاجته إلى العقاب كانت ماسّة.

ردَّ كيلي حالة بيرنز التي استفحلت خلال يومين إلى طغيان نزوة الموت، باتت تشكل دليله في رحلة التحلل من ذنب يتضخم بلا هوادة، حتى يكاد أن يسحقه، وقد يذهب به هذه المرة، إذا لم يتسارع، إلى انتحار على شاكلة مختلفة، بطيئة وغير مملة؛ حافلة بالاعترافات الدنيئة. خلالها، يجتر بوهن وبلا كلل آلاماً تصونه من الإرهاق، لا من التعاسة. كان صموده على هذه الشاكلة من التآكل الذاتي، ينبع من صلابة تقاوم الشفاء بكل الوسائل، وتستعين عليه بالشقاء، والتشبث بمعاناة تهبه البأس واليأس معاً.

هل ثمة سبيل لإقناعه؟

«نحن في معركة، هذا أمر ليس بوسعنا التحكم به. هذه الحرب نحن آلاتها وضحاياها في آن واحد. أنت، ماذا تكون الآن؟ القاتل والقتيل معاً».

لا، لا سبيل لإقناعه بشيء يتطلب تشغيل العقل، ونبذ العواطف، لو أن لديه القليل من الإيمان لتغلب على ضائقته. سأله:

«هل زرت قسيس الفرقة؟».

بدا على ملامح بيرنز التي تغضنت وكأنه استنكر السؤال. كيلي اعتبر أنه أجابه بالنفي، فقال:

«كان غفر لك، ومسح خطاياك كلها».

جواب بيرنز المسموع كان مناقضاً:

«لقد فعل، لكنه لم يُرحني».

خرج صوته كأنما من قعر بئر. فقال كيلي:

«ألا تعرف أن الرب يتسامح مع ما نرتكبه من هفوات».

لم أؤمن يوماً بإله أو دين، ولم أعتبر الأنبياء والقديسين سوى بشر غير طبيعيين، وإذا كانوا يشطحون ويرون الله رؤية العين، أو يهتدون إلى الإيمان بعد ارتكاب العديد من الزلات والموبقات، فتحولاتهم المفاجئة نتيجة لعلل جسمية لا لقناعات روحية. اعتقدت دائماً بالتفسير المادي للظواهر النفسية كاضطراب بعض الغدد والتشوه الجيني. لم أؤمن بالرسل سواء كانوا من أبناء الله أو لم يكونوا، ولا بالقديسين مهما كانت معجزاتهم وزهدهم وورعهم وجوعهم. المسيح شخصية ذهانية، والقديس بولس مصاب بالصرع، عدا أولئك المصابين بالتقمص والفصام والدونية المشبعة بالحقارة. ربما كانت هذه التفسيرات مبسطة وساذجة ومشكوكاً بها علمياً، لكنها لا تأخذ روحانياتهم وقدراتهم على الامتناع عن الطعام والنساء على محمل الحقيقة، بل ترهات غيبية، خارج نطاق العلم.

لا وجود لبشر مقدسين ولا لموضوعات مقدسة.

لم أقصد السخرية من بيرنز بل التخفيف عنه. الإيمان يتفوق على العلاج النفسي، لكن الشبان في هذا العمر، لا يعتقدون أن رجلاً مثلهم ولو كان أكبر منهم، حليق الذقن، يرتدي بذلة سوداء وياقة بيضاء، يخفي تحت ملابسه سترة مضادة للرصاص، يمكنه الاتصال بالله ولديه القدرة على محو خطاياهم.

«القسيس لم يهتم سواء زنيتُ أو اغتصبتُ أو قتلتُ».

لو أنه اهتم لنجا بيرنز. هذا ما جعل رب العراقيين أقوى تأثيراً من ربنا. ربهم لم يغفل عنهم، مع أن أبصارهم لم تقع عليه أبداً. قدرته على الفعل خارقة، تصورات المسلمين عنه وعن نبيهم وأصحابه المقدسين لا تشذ عن تصوراتنا. ومع هذا كان متواجداً معهم على الدوام في المدن والقرى والحقول، لاسيما المثلث السني، يزرع الموت ويحصد الجثث، يتكلم مع المتمردين والإرهابيين، يمدهم بالعزيمة، ولا يبخل عليهم بالوعود، يتعهد لهم بالجنة، ويرسلهم إلى العمليات الانتحارية.

أنا أيضاً لم أر ربهم، لكنني عرفته من ضحاياه.

لم يكن قد مضى على وصول كيلي إلى العراق سوى شهر واحد، عندما رافق الليفتنانت كليف في دورية طافت شوارع بغداد. كانت الجولة استعراضاً لقوة الجيش ورد اعتبار له. في اليوم السابق، هاجمت ميليشيا مجهولة الهوية دورية مشتركة في حي المعلمين، وكادت أن تكون الخسائر كبيرة لولا تدخل مروحيات الأباتشي، التي غطت انسحابهم.

كان الصيف في بداياته، الرياح حارّة، أكوام النفايات مكومة فوق الأرصفة وتحت الجسور، بعضها يتطاير عالياً، روائح القمامة منتشرة تزكم الأنوف. أضاعوا الطريق إلى الحي، وتاهوا في الشوارع. أحسوا أنهم محاصرون بأبنية نوافذها مغلقة، وشرفات رثة مفتوحة على الفضاء، ترى ما الذي سيبرز منها فجأة؟ اعتقدوا أنهم لن يجدوا طريقهم. كانوا في أتون فرن ملتهب وقد يعلقون

في كمين وهم يتنقلون من شارع ضيق لآخر عريض، الحرارة داخل مدرعة البرادلي تزيد عشر درجات عن الحرارة في الخارج، الاتصالات لا تنجدهم، العربة مكتظة بهم، خلعوا من فرط الحر ستراتهم العسكرية وكوموها إلى جانب صناديق القنابل اليدوية، لم يسمعوا سوى هدير البرادلي وهم يتنشقون رائحة آباطهم وجواربهم المتعرقة.

على طول وعرض الشوارع والأحياء وفي الأزقة والدخلات، تناثرت المساجد بمآذنها المرتفعة. جموع البشر في الأسواق كأنهم في رحلة حج إلى مكان ما، عربات الحمير تمتلئ بالخضار، نساء ملفوفات بالعباءات يحملن أكياساً منتفخة على رؤوسهن. صور قتلى الاشتباكات ملصقة على الجدران والأعمدة، اللافتات السوداء تتأرجح في العالي.

فجأة اخترق آذانهم صوت يشبه النحيب، أشبه بدمدمة أخذت تعلو وتعلو، بعثت فيهم الرعب، تخيلوا أزيز صاروخ، حدد وجهته نحوهم، الجنود يحدقون إلى جدران العربة بوجوه خالية من التعبير، قبل أن تتفجر بهم، كانت المنظر الأخير قبل الموت. الصاروخ لم يصطدم بهم. كان هذا صوت المؤذن يلعلع في سماء شديدة الزرقة، يردد دعوة الله إلى الصلاة، وربما إلى القتل.

> **... كنت وكأنني أتجول في معبد كبير، لا يحوم فيه سوى الموت.**

قرر كليف قائد الدورية مداهمة المسجد، والتحرش بالموجودين، لغرض واحد؛ رفعاً لمعنويات الجنود التي هدّها الحر وصوت المؤذن. نزلوا من العربات المصفحة، يستعيدون لياقتهم القتالية،

طوقوا المسجد ومنعوا المصلين من الدخول، ثم اقتحموه، داسوا بأحذيتهم على السجاد، وحطموا خزائن الكتب الدينية، وأخذوا يفتشون الغرف الجانبية الصغيرة المتوزعة في صحن الجامع. تابع المشايخ ذوو العمائم البيضاء والسوداء صلواتهم، شيخ يقرأ القرآن لم يرفع رأسه عن الكتاب. بعض الزوار لبثوا في أماكنهم إلى جانب الضريح الفضي الذهبي، يتمسحون به ويتبركون بأذيال ستائره. رجل سجد ثم قعد، أغمض عينيه ورفع كفيه نحو الأعلى وقدم الشكر لله!!

> **على ماذا يشكره؟!**
>
> **تابع الموجودون صلواتهم مطمئنين، كأن لا جنود ولا صليل أسلحة ولا فوهات رشاشات مسلطة عليهم، ولا بساطير تدوس على السجاد. المسجد متخم بالخشوع والتضرع، الثريات متدلية من السقف، القناديل على الجدران، متوهجة تشع أنوارها، وتسبغ على النقوش النافرة والزخارف الغائرة ألواناً حارّة، بينما في الزوايا تترجح الظلال داكنة، ومن الأعواد المتقدة تتصاعد روائح البخور.**
>
> **اعذرني، لم أتلمس ذرة من الصفاء أو السلام، وإنما صورة للركود الروحاني بين معالم باذخة توزعت بإسراف؛ الجدران المرمرية والرخام الأخضر والأصفر، والسقوف المرصعة بالمرايا، والتواءات الحروف العربية وهي تتداخل في بعضها ومع بعضها وفوق بعضها. كل هذا كان مستغلقاً على الفهم، نفرت منه، متواليات الزخارف بلا معنى، مجرد متاهة بلا دليل. لو أنني**

حاولت أن أفهم، لأدركت لماذا كان السبيل إلى الجنة سالكاً؟ في طريق عودتنا، تلقى كليف اتصالاً عن تفجير انتحاريين جسديهما، عندما وصلنا إلى المكان، كانت أرواح الكثيرين قد صعدت إلى السماء، بينما تناثرت بقاياهم على الأرض قرباناً لهذا الذي لا يُرى، والنحيب يتردد في الفضاء، أشبه بهستيريا جماعية.

كيف تأتّى كل هذا القتل من قلب ذاك الركود الروحاني؟!

حانت منه نظرة إلى بيرنز، فوجئ به نهض، مسح فمه بكمّ قميصه وجلس باعتدال، وعلى وجهه ابتسامة محيرة، نافضاً عنه الأوهام والوساوس، لا يشكو من شيء، يتكلم بارتياح، هل كان يخدعه؟ لم يصدق ما أخذ يسمعه منه، كان بكل جلاء نادماً على محاولته الانتحار. شكا من وقوعه تحت ضغوط هائلة، ما فعله كان شيئاً جنونياً.

«كنت مُسيَّراً».

لام كيلي نفسه على تسرعه في الحكم عليه؛ يا للحماقة إلى أين أوصلته هواجسه؟! إذا كانت نزوة الموت قد مسته، فقد انقلبت إلى تشبث بالحياة!! كيف لم يأخذ بعين الاعتبار جسده الهزيل وأعصابه الرخوة وروحه الخائرة. بيرنز ليس من الأشخاص الذين يستسهلون الموت، لا يمتلك الجرأة ولا الإصرار، ما فعله كان لعبة، تظاهر فيها بأنه يريد الانتحار، فتعمد لفت الأنظار إليه، فتنبهوا إليه قبل أن يقتل نفسه.

الآن انتهت التمثيلية.

قال له محذراً مع ابتسامة خفيفة:

«أعرف أكثر من حالة، إحداها كنت شاهداً عليها، قصد صاحبها الانتحار من دون أن يكون جاداً فعلاً، لكنه ارتكب خطأً فقتل نفسه عَرَضاً أثناء التهديد بالانتحار. محاولة كاذبة، للأسف، غدت صادقة، ولم يتمكنوا من إنقاذه».

ومع هذا لم يطمئن، ربما كان يخدعه ثانية، لم لا؟! على كل حال، سيحتفظ بتقييمه النهائي إلى غد.

في اليوم التالي، عاد كيلي، كان وضع بيرنز أفضل، وجده يمزح مع الممرضة ليزا. فسألها عن جروحه، قالت إنه شفي، لاسيما أنه لم يكن مصاباً بكسور، بل برضوض خفيفة وجروح سطحية؛ وضعه الجيد يؤهله للمغادرة في أية لحظة، لكن ليس قبل موافقة الليفتنانت كليف المسؤول عنه.

نظر كيلي إلى الساعة، مازال هناك وقت، وعد بيرنز بإطلاق سراحه اليوم، بوسعه بعد أن يخرج الترويح عن نفسه. دلّه على عدة أماكن باستطاعته السهر فيها الليلة، يعرف خمس حانات، واحدة فوق السطح لشركة جنرال إلكتريك، وحانة مقطورة لشركة بكتل، وبار بريطاني، وكازينو يحتوي على صالة ألعاب رياضية. المكان الأخير لا ينصح به؛ حانة «أو جي أي» تابعة لوكالة المخابرات المركزية، تستقبل الغرباء بالدعوة فقط. على كل حال، أغلب الحانات فيها ديسكو. بوسعه أيضاً التسكع في المنطقة الخضراء، هناك ما يستحق الزيارة، مطاعم وأسواق ومعالم، مثلاً في السوق القريب، تباع الحلي التقليدية والتذكارات الرخيصة، وفي المطعم الصيني يقدمون وجبات شهية من الطعام.

غمزه مشيراً إلى ليزا، كي ترافقه في جولته. لابد أنه دعاها بمجرد خروجه.

عقب وصوله إلى العيادة، كتب التقرير وأرسله إلى كليف شارحاً فيه تحسن حالة بيرنز، وانتفاء الحاجة إلى إبقائه محتجزاً. ثم اتصل به طالباً منه المسارعة بإرساله إلى الشارع ليرى البشر يتمشون فيه بلا عقد ولا ذنوب.

فكر، بعد غد سيستقبل بيرنز في جلسة ستكون الأخيرة، إذا لاحظ أنه على ما يرام، فالاحتمال الأكبر أنه سيودعه في نهايتها، ويُرحّله إلى الفرقة بلا إبطاء.

21

كل يوم قد يكون الأخير في حياتي

حسب وعده، لم يخلف أبو سعيد ما تعهد به لبثينة، فهو لم يساعد الطبيب على شفائها، لكنه سيحاول هو أن يشفيها، لمجرد إحساس غامض، ما زال أمامها ما تفعله في هذه الحياة، لا يعرف ماذا يكون، وربما لأن أحداً أيضاً لا يعرف، ينبغي أن تكون قوية في مواجهة هذا المجهول القادم. لكن كان الأمل معقوداً على أن تصغي إليه، لديه من الوقت ما يكفي، لعلّه يفلح.

طوال يومين وهذا الأمل يقود خطواته ويقودها معه من مكان لآخر. منذ صباح يوم العطلة الأول، عزم على أن يزيح من مجال رؤيتها مناظر كانت تصادفهم على طريق الذهاب والإياب من سجن النساء إلى العيادة: القناصة في العالي وقد اتخذوا مواقعهم فوق أسطح فندق الرشيد ومجلس الوزراء والبرلمان ووزارة التخطيط... وخلفهم عند المدخل، البوابات الحديدية الضخمة،

ومتاهة الأسوار الإسمنتية، والجدران الخرسانية العالية الرصاصية اللون. وعلى طول الطريق، دوريات التفتيش وكلاب الحراسة، ومجندون من تايلاند وجورجيا ونيبال والتيبت... شوارع لا تخلو من الجنود الأميركان، والدبابات الأميركية. أما منزل السفير الأميركي، والإدارة الأميركية في القصر الجمهوري، فلم يبتعدا عن أنظارهما، كانا يتراءيان دائماً من بعيد والأعلام الأميركية ترفرف فوقهما.

قال لها، هذا حال لن يدوم. الوقت لن يطول حتى يرحلوا.

كان ينبغي أن تعرف أنها تنتمي إلى عالم مختلف، عالم حتى لو لم تلح بشائره بعد، لكنه ليس في علم الغيب.

لأول مرة بعد الاحتلال، يتجول في المنطقة الخضراء. كان طريقه فيها يقتصر على الدخول والخروج منها.

لم يتصور أنه سيستعيد العالم الذي احتله الرئيس صدام حسين طوال نحو أربعين عاماً، الرجل الذي كان يهابه ويخشاه وطالما أوقع في قلبه الرعب لمجرد ذكر اسمه، لم يلتق به أبداً، مع أنه تمنى ذلك. يراه الآن، لم يغادر أماكنه مع ما أصابها من خراب، مرسوماً على اللوحات الجدارية زاهية اللون، يتوضع في الصميم منها، على الرغم من تشويهها، متخذاً مكانه في الواقع، وليس في خيالاته.

كان الماضي أقوى من الحاضر: صدّام في زي عسكري محاطاً بأسراب من الحمام الأبيض. صدام على خلفية من اللونين الأسود والبرتقالي. صدام وخلفه جبال مكللة بالثلوج. صدام يحمل بيده بندقية ويطلق الرصاص. صدام وعلى وجهه ابتسامة الظفر. صدام

بظلال داكنة معتمراً قبعة أجنبية. صدام في بذلة غامقة اللون.

الآن، صدام في ساحة الاحتفالات الكبرى على مقربة من قوس النصر على الشرفة الرئاسية مرتدياً الثوب والعقال العربيين، يرفع يده اليمنى محيياً الجماهير، وإلى جانبه الرؤساء والملوك والقادة العرب، والآلاف من العراقيين يهللون له.

الساحة مهملة وقاحلة، أرضها الخضراء تحولت جرداء. تمثال الرئيس أزيل، قوس النصر هناك من حاول تحطيمه. الشرفة الرئاسية تعرضت للنهب. قاعات المسارح والصالات التشكيلية هدمت، منتزه الزوراء الشعبي مهجور لا يقصده أحد. نصب الجندي المجهول جلله التراب.

«كان عندما يضاء ليلاً يشعّ بألوان العلم العراقي الأحمر والأخضر والأبيض».

اللوح المرمري الذي يحمل كلماته وبخط يده، ما زال شاهداً على عالم انحسر.

«ليتني أُشفي نفسي» قال لها.

يمشيان عبر شوارع ضيقة، تتلوى وادعة وهادئة، إلى الجانبين بيوت حجرية، خلف بواباتها المنخفضة فناءات صغيرة تظهر منها الورود الملونة والنباتات الخضراء. على الرصيف سيارة زينت لحفلة زفاف. منزل تتسلل منه أصوات موسيقا، ربما كانت تتردد في رأسه؛ لماذا الموسيقا غربية؟ عزف على البيانو، ترافقه أنغام كمنجة، وصوت ساكسفون.

الحياة تسير رغم كل شيء، مطعم أنيق، على رصيفه تبعثرت الكراسي والطاولات تحت مظلة حمراء، يقدم وجبات سريعة، وعلى بعد أمتار مطعم تفوح منه الرائحة الشهية للفلافل المقلية. على الجدران إعلانات كوكا كولا وبيبسي، وتنزيلات على الهواتف الجوالة، تلاميذ يحملون حقائبهم على ظهورهم عائدين من المدرسة إلى بيوتهم، أولاد يلعبون كرة القدم... ثم فجأة يندفع رتل من سيارات الشوفرليه البيضاء رباعية الدفع ذات الزجاج الداكن، تسبقها سيارتان مكشوفتان تحملان حراساً أمنيين يضعون نظارات شمسية سوداء وجهوا فوهات بنادقهم نحو المارة، لا يتورعون عن دهس من يصادفهم من دون إنذار.

كان اليأس المرتسم على وجهها في منتهى العنفوان، وفي أقصى تجلياته، شيئاً لا يمكن التغلب عليه إلا بعد عبور نقاط التفتيش، واجتياز متاهة الحواجز الخرسانية العملاقة المضادة للمتفجرات، والبوابات الضخمة، بعيداً عن الأسلاك الشائكة وأكياس الرمل والجنود الأميركان والقناصة والكلاب البوليسية... والخروج إلى بغداد الأخرى.

أمّا هنا، فاليأس أطبق عليها، لن تعرف للحياة فيها جانباً آخر سوى الانتظار.

كيف يقنعها بجدوى حياة لا جدوى منها؟

لن يدافع عن حياة في حقيقتها هي حياته أيضاً، حياة أصبحت عبئاً ثقيلاً، وغبناً مستديماً، ومأساة مستقرة. حياة لا مستقبل لها، ولا تستحق المحافظة عليها، ماذا تكون إلا أنها مضت، يعيش اللاحياة، وموت ما قبل الموت. لا، ليس مخطئاً، لم يحالفه

الأمان، حالفه الخوف.

كان عليه أن يقنعها، قبل أن يُمضي الوقت وهو يكلم نفسه، بينما هي ساهمة عنه وعن المكان، بأن ما مضى لم يكن عالمها، ولا هذا، عالمها لم يأت بعد.

كيف يمنحها الأمل، هو الفاقد كل أمل؟

«هل أنت عميل للأميركان؟».

فاجأه أنها تكلمت، وكأنها قرأت ما يجول بفكره، واستفسرت بسؤال لا يخفي اتهاماً، لم يكن صارخاً، لكنه مؤلم. وبلغ من حنقه على نفسه، أنه لم يتردد في الجواب:

«تنكرت لكل ما قبلت به من قبل، أنا خائن لبلدي. كان يجب ألا أعمل مع الاحتلال».

لم يكن يماري الحقيقة، غير أن ما لاحظه على وجهها جعله يهدأ قليلاً، كان فيه الكثير من الشفقة.

«من أجل أولادك، أليس كذلك؟».

رد قائلاً لها، وكأنه يردد مونولوجاً لم يملّ منه: تمنيا هو وزوجته الحامل أن يرزقهما الله بصبي، بعد ثلاث بنات. تحققت أمنيتهما وجاءهم الصبي، فرحت به الأم دقيقة أو دقيقتين، ثم دخلت في غيبوبة، ماتت بعد أن نزفت دماءها. كان المستشفى يفتقر إلى أكياس دم. ضحايا القصف الأميركي استهلكوا المتوفر من الأنواع كلها. عندما شيعها كان القصف ما يزال مستمراً، القتلى والجرحى يتوافدون بالعشرات تلو العشرات، المستشفى لا يتسع

لهم. كان بقاء أي عراقي حياً يعتمد على المصادفة أكثر منه على توافر الدم.

«عناية الله لم تكمل مشوارها معنا».

اضطرب منحى المونولوج، ولم يعد يسيطر عليه:

«اختيار الحياة كان اختياراً للخيانة، فتذرعت بأولادي. أنا من عالم انطوى إلى الأبد. كان ينبغي ألا أعيش».

«أردت النجاة بأولادك».

«اخترت الحياة مع الموت من دون أن أدري، تشبثت بالحياة، ولن أستطيع تجنب الموت؛ الحكم صدر ضدي».

«هل يلاحقونك؟».

«ليس بعد...».

«هل أنت خائف؟».

«كل يوم قد يكون اليوم الأخير في حياتي».

توقيع عقد مع المحتل، ما هو إلا توقيع على شهادة وفاة.

كان البيان الذي أصدره المقاومون بمختلف فئاتهم واتجاهاتهم يقول: كل عراقي أو أجنبي يعمل مع سلطة التحالف يصبح هدفاً للقتل: الوزراء، المرتزقة، المترجمون، رجال الأعمال، الطباخون، السائقون...

مع ذلك لم يكن أبو سعيد موسوساً بالموت. كان يعرف، في حال انكشف أمره، سيغدو مطلوباً من

الجميع: البعثيين لتنكره للحزب، الإسلاميين لأنه كان بعثياً سابقاً، المقاومين لأنه يعمل مع قوات الاحتلال، الإرهابيين لأنه مترجم...

في الوقت نفسه لم يكن يثق بنا، قال لي إنه يتخيل لحظة رهيبة، آتية في يوم ليس ببعيد، المنطقة الخضراء مسرحاً لعملية إخلاء ضخمة مثلما حدث في سايغون. الجنود والمرتزقة والقادة يسارعون إلى الهرب بالسيارات والشاحنات إلى المطار بحماية الدبابات والمدرعات وطائرات الأباتشي، ويمنعون عملاءهم المحليين من اللحاق بهم، ولا يسمحون لهم بالدخول إلى المطار، ويطلقون عليهم الرصاص لو حاولوا الاقتراب من المهبط، بينما الطائرات تعلو في الجو وتتركهم لمصائرهم المرعبة.

كان يفضل الموت على التعرض لهذه المهانة.

يجمعه معها مصير واحد، قريباً يوضع على قوائم التصفية الجسدية، وهي على قوائم الانتحاريات. كل منهما مطارد من طرف، هو لا يستطيع أن يعيش، وهي لا تستطيع إلا أن تموت.

«دعيني أساعدكِ في ما فشلت أنا فيه».

«لا تساعدني».

يعرف بعض هذا الألم ولا يجهله في هذا الذي يستبيحه على الدوام، لو أنه بلا أولاد، فهل يتمسك بالحياة؟ لا، كان الآن في مكان ما يقاوم الاحتلال.

أراد أن يهوّن عليه وعليها، لماذا العيش إذا استبيحت الحياة؟ لكنه قال:

«الأمر غير ما تعتقدين، شفاؤك يجعلك أقوى على تجاوز محنتك».

«لا تهون عليّ، سألت الله أن يهبني القوة على تحملها لا تجاوزها».

«عندما نلتمس نحن المسلمين من الله الشفاء، نظفر به بقبول بقضائه، اقبلي به».

«هذا ليس قضاء الله، إنه قضاؤهم، ولقد رضيت بالتعايش مع عاري، ربما موتي يطهرني».

«لا تهجسي بالموت، فكري بالحياة التي وهبها الله لك».

«لن أقرر قبل الوصول إلى بعقوبة».

أدرك أنها اتخذت قرارها سواء وصلت إلى بعقوبة أو لم تصل.

22

إذاً، ما الشرف؟!

خططتُ للعلاج ليس من تلك البداية التي خانتني أكثر من مرة، وإنما من جانب مختلف، كان هو الجزء الأكبر الذي أسهم بصناعة مأساة بثينة، هذا الذي يجري على الأرض: التمرد السني، الاقتتال الطائفي، الخطف والقتل والذبح، العمليات الانتحارية، السيارات المفخخة... كانت كلها مجتمعة السبب في ما يعاني منه العراقيون ونحن معهم. هذا يستجر ذاك، ينبغي عدم الفصل بينها، بتقريبه إلى ذهن بثينة. الجميع مجرمون وأبرياء، جنود جيش الاحتلال، الميليشيات الدينية، عصابات الإجرام، فرق الموت، المتمردون، المقاومون، الإرهابيون، الجهاديون، الانتحاريون... إلخ، مهما كانت صفاتهم ومسمياتهم.

حالة عامة لا أحد وحده مسؤول عنها، ستؤلمها الحقيقة، لكنها فيما بعد سوف تنجدها، وتجعلها مستعدة لما هو قادم. هذا الصراع المستميت الناشب بين الجميع، أخلف فوضى شاملة، اختلطت فيها الأوراق. لم تكن بثينة طرفاً في هذا كله، لكنها كانت ضحيته، ضحية بلد دخل ضمن استراتيجيات القوى الكبرى.

لفتته ملامحها بقوة، لم تخل من بعض النضارة والحيوية، كانت تشبه طالبات المدارس اللواتي يلمحهن من العربة العسكرية المسرعة به في الشوارع، وهن يهرعن عائدات إلى بيوتهن، حمرة الخجل على خدودهن، مع مسحة من الخوف تضفي اصفراراً باهتاً على البشرة البيضاء والسمراء لوجوههن الشاحبة الملوحة بشمس الصيف الحادة. كانت في العمر المقارب لتلك الطالبات.

أما نظراتها فلم ترق له.

خشيتُ أن يكون تجوالها بحرية في المنطقة الخضراء انعكس عليها سلباً، وأفسح لها الخيال بانطلاق غير مأمون نحو المطالبة بحقوق مرتبطة بالتمنيات لا بالواقع. رجوت في سري ألا تكون تعرضت لخديعة الحرية، لن ينالها منها سوى المزيد من الإحباط.

في ذلك الحين، لا أمل لعراقي إلا ما نمنحه إياه نحن الأميركان. لكن من يعرف ماذا نريد؟!

تجاهل كيلي ما يدور في رأسها، ولم يحاول الاستفسار كيف أمضت اليومين الماضيين بعهدة المترجم، مهما يكن ما فعلته،

أفضل من قضائها الإجازة حبيسة الزنزانة. كانت نظراتها المحتقنة بالكراهية، هذا ما تصوره، قد ضيعت الأسلوب الجديد الجاهز في ذهنه، مع أن عينيها تخففتا من جحوظها واحمرارها، وإن لمع بريق في البؤبؤين السوداوين، انطلق منهما شعاع داكن اللون غير مريح.

المعالجة والبدء فيها، تبددا من رأسه.

أحس كيلي بالغيظ، دائماً يعترضه أمر تافه يحبط خططه. هل يطلب من المترجم أن يأخذها في جولة أخرى، ريثما يتوضح شيء بخصوصها؟ ربما في اللجوء إلى ما اختتم به جلسته السابقة، بداية معقولة قد تكون ملائمة، ريثما يجد أخرى، على الأرجح حالتها ما زالت كما هي، لم يطرأ عليها تغيّر ملموس، مجرد تحسن بسيط، استمدت منه نزراً يسيراً من حالتها الطبيعية.

هذا التحسن البسيط حتى ولو كاذباً، أو أنه يتراءى له، سوف يشد من عزمه.

رغبتي لم تكن إقناعها، ما أنشده شيء يفوق الإقناع، أن تستسلم لما حلّ بها، يجب أن تدرك أنه يقع تحت مفهوم القضاء والقدر، النظرية التي يعتقد بها المسلمون؛ أمر لا رادّ له، يقبلون به شاءوا أو أبوا.

قال من دون أن يعطي لكلامه أية أهمية، كان مفروغاً منه:

ما جرى معك وقع على الجميع بلا استثناء، وإذا أردنا تشبيهاً عاماً فهو اغتصاب الحياة، أصابك منه جزء ضئيل لا يكاد يذكر من مصيبة شاملة، كان الديكتاتور السابق سبباً لها. اغتصب حياتكم

كلها، لولا التدخل الخارجي لما تخلصتم منه. العهد السابق كان امتحاناً من الله، وكان الاحتلال هو العناية الإلهية، ما قدمناه من أجل تحريركم كلفنا آلافاً من الجنود الشبان. عاجلاً أو آجلاً، ستدركون معنى هذه الهبة، عندئذ ستفخرين بأنك شاركتِ في هذا الانتقال العظيم من الديكتاتورية إلى الحرية.

توقف قليلاً، ثم وبلهجة مسرحية:

«تذكري أن الشطر الأكبر من الحياة ما زال أمامك».

لم يغب عنه أنه اشتط بالمبالغة، لم يُضخِّ بها فحسب، بل وحمّلها جميلاً. كان أكثر ما أعجبه في كلامه، أنها لو حاولت إلقاء نظرة شاملة على ما حولها، لأدركت أن مأساتها قد تضيع في مأساة بلد لا ينفع معه شيء. وهذا حال قصتها؛ لا ينفع معها شيء.

تلكأ أبو سعيد، إذا كان هذا ما سمعه بالضبط، وعليه نقله بأمانة، فهو تلاعب بالألفاظ لا يستحق الترجمة. اعتقد أن الطبيب الذي استجمع أفكاره وتكلم ببساطة شديدة وحزم أشد، سيعمل على علاج لن يكون مضيعة للجهد، فإذا بالمطلع سياسي، والتحليل فائض عن اللزوم، والروابط ضعيفة، وإلّا فهل الاحتلال هِبة ربانية؟! ثم ما هذه الحرية التي جاءت بها الدبابات، ولا ينعم بها من العراقيين سوى الذين جاؤوا معها، وقد يرحلون معها!! حدق إلى الطبيب، أحس بالأسف من أجله، كان من الممكن أن يكون طبيباً جيداً وعاقلاً.

لم يخرج أبو سعيد عن صمته، فتساءل كيلي:

«ألا توافقني؟».

لم يخفِ أبو سعيد مشاعره:

«اعتقدتُ عندما دخل الجيش الأميركي إلى العراق، أن عالماً انهار وعالماً سينهض. ولقد حدث، لكن العالم الذي نهض كان مشوهاً ومشلولاً».

قال كيلي لنفسه، ما دام الحديث أصبح على هذا المستوى، فليكن على سويته:

«لا تشغل بالك بهما، كلاهما سيذهبان إلى التاريخ، يقول يوماً كلمته فيهما، وينصف الجميع، إذا كنتم على حق تظفرون بشيء ما. على كل حال، لنضرب صفحاً عما جرى، في ذاك اليوم لن أكون أنا ولا أنت أحياء».

«مهما كانت كلمته، فلن يعوض البشر عما أصيبوا به».

نظر أبو سعيد صوب بثينة، كانت الدليل على ذلك.

«ألن تترجم؟».

ما الذي يترجمه، ما دام كيلي يتخبط بين العناية الإلهية والقضاء والقدر إلى التاريخ الذي سينصف الجميع؟!

أطرق أبو سعيد برأسه أرضاً، وعندما رفعه اشترط ألا يترجم شيئاً قبل استبعاد هذه المماحكة القسرية غير العادلة، وإلا باتت الترجمة أحبولة مرهقة لا تفيد في التقارب بل في التباعد، ولن تصلح بعدها أية مراجعة في ترميم ما خربته الاستهانة بأمور لا تنازل عنها. ما حصل لبثينة لا يحمل معنى آخر سوى الإذلال الإنساني، ولقد حدث على الأرض لا في السماء.

كانت المشكلة في افتقار الطبيب لتصور معقول لحجم الفجيعة التي تعاني منها.

التفت كيلي نحوها ورجاها:

«إذا كنتِ ترغبين فعلاً في أن أساعدك، فعليكِ أن تساعدي نفسك أولاً».

فكر أبو سعيد إذا كانت خطة الطبيب متجهة فعلاً إلى شفائها، فلن يعرقلها، بل سيغض سمعه عن الكذب، والتزوير، والتلفيق، وإخفاء الحقائق وانتحالها...لن يمنعه عن اقتراف أي منها. خطرت له بضع كلمات يدل بها كيلي على الهدف تماماً، لئلا يُضيّع الوقت في الثرثرة:

«المسألة أن شرفها أصيب في مقتل؛ إنها تعاني من الشعور بالعار».

العار!! ترددت الكلمة في رأس كيلي، ما بالها؟! كأنها تراجيديا ترزح تحتها المريضة، ولا تقدم في العلاج من دون الإفلات منها!! وافقه مؤقتاً على أمل التخفيف من «العار»، بإعطائه معنى أقل جعجعة، وبلا زعيق، لاسيما أن الشرف لا علاقة له بالجنس. الجنس ليس عاراً. وهذا ما عبر عنه قائلاً باستغراب:

«الشرف أمر مختلف».

الشرف على علاقة بالوطن، بالمهنة، بالمرتبة الاجتماعية أو العسكرية، بما نتعهد به أو نقطعه على أنفسنا من وعود للآخرين... أما أن يكون مرتبطاً بالجسد، وفي أضيق أماكنه، فهذا مستحيل. أصر كيلي على هذا التفسير، ولم يكن كافياً، فأعطاه

شمولية أوسع: الشرف يختص بالأمور الرفيعة والسامية.

مع أنني لا أعتقد به. الشرف مفهوم كاذب، عبء على الناس، وعائق وهمي ينكد عليهم تسيير أمور حياتهم اليومية.

إزاء عدم إدراج الشرف في لائحة الطبيب، واستثنائه البشر العاديين منه، اضطر أبو سعيد لشرح ما تعنيه حادثة شرف هنا في هذه البلاد:

إن الفتاة التي تفقد عذريتها بالرغم منها، لا يجعلها تفقد احترامها لنفسها فقط، بل وتفقد مبرر وجودها. إن العار الذي تشعر به يجعل الموت أقل وطأة عليها من مواجهة المجتمع، النبذ أقل ما يصيبها منه، فتسترخص الموت إن لم تستحلِه. إن ما يتعرض إليه أهلها وأقرباؤها من ذل وتعيير أكثر مما يمكن أن تتحمله كرامة رجال العائلة وشبانها، الأمر ليس بهذه البساطة، ولا يمكن التغاضي عنه بتجاهله. العار في عرف العشائر لا يمحوه إلا الدم. إن شرف العشيرة يتعرض للإهانة إذا أصيبت امرأة بضر أو أذى.

«فما بالك إذا وقع عليها من أجنبي محتل؟».

ما قاله أبو سعيد كان عبارة عن تهويل محض، ما علاقة العذرية بالشرف، أو علاقته بشرف العشيرة؟

حتى ضمن هذا المفهوم العراقي عن الشرف، كان نصف مشكلتها محلولاً مادام لم يبق أحد من عائلتها حياً، ألم يُقتلوا كلهم؟ كما أن العشيرة، ليست أكثر من

هراء، إذ ليس في قاموس العالم المتحضر مكانة لها ولا تأثير، ماذا يعني أن أكون أنا من أصول ايرلندية أو بولونية؟! هل عليَّ الانتقام لأي ايرلندية أو بولونية اغتصبت، وربما قتلها أيضاً لأن ما وقع عليها يؤذي مكانتي أو سمعتي؟

استجمع كيلي أفكاره، وتكلم بهدوء:

«هذا الإحساس بالعار لا يشمل سواها، إنه شخصي، أصابها وحدها، ربما أدى إلى إحداث جرح نفسي لا يستعصي على الشفاء».

«شرف البنت، أمر لا يمكن التسامح به».

«لكن من الممكن تعويضه».

«هل تستطيع أن تعيد إليها عذريتها؟».

لم يستبعد الطبيب إجراء عملية رتق لغشاء البكارة، إذا كان فيه علاج نفسي للاغتصاب. فانتفض أبو سعيد:

«الرتق جراحة فقط، لا تعيد لها إحساسها بالعذرية ولا كرامتها المهدورة».

بلحظة بلغ الخلاف ذروته.

الكرامة أيضاً على هذه الشاكلة المتزمتة، لم يكن لها وجود في قاموسي، ما علاقتها بممارسة الجنس؟!

أصر الطبيب على أن الشرف لا يكمن بين الفخذين.

لم يترجمها أبو سعيد كما قالها الطبيب بهذه الفجاجة، أصابها تعديلات.

غير أن بثينة وقبل إنهاء كلامه، صرخت صرخة قوية:

«إذاً، ما الشرف؟! هل ترضى أن يصيب أختك ما أصابني».

حسب الطبيب أن نوبة جنون دهمتها:

«طبعاً لا أرضى».

وكان ينبغي أن أقول لها أيضاً، إنه لا أنا ولا أختي سنأخذ الأمر على هذه الشاكلة من التعنت، يهمني أن يعاقب الفاعل، وألا تتأثر نفسياً لمدة طويلة، ستحتاج إلى نقاهة مع بضع جلسات علاج فيما لو تأذت. إذا كان هذا سينجح مع أختي هناك، فلماذا لا ينجح معكِ هنا؟! أعرف، الأمر غير سهل، وأنا لن أكرر خطئي. غير أنني في تلك اللحظة، أدركت استعصاء مأساتها على النسيان، نحن أيضاً لا ننسى، لكن ليس على هذا النحو من التشنج.

هناك عقبة، بدأت أدركها، ولا يمكن المرور عنها. كيف يمكن تخليصها من مشاعر عار ليست مسؤولة عنه، عار لا يمكن حساب مقداره ولا آثاره المدمرة؟ لا جواب، لكن هذا ما جعلها مستعدة للموت، جاهزة له.

كان لابد من إعادة الكرة، ومحاولة تحجيم مأساتها إلى أقل قدر ممكن، ولو اضطررت إلى التحايل عليها.

استرد كيلي هدوءه، فكر في مخرج آخر، سيضرب على الوتر ذاته. حاول أن يشرحه بالارتداد إلى المفاهيم الأساسية في الحياة، ربما ينفع في توسيع أفقها:

«إن الجنس لا يدنس المرأة ولو وقع خارج الزواج، أو تحت الإجبار إنه بحد ذاته شيء جميل مثلما هو ممتع».

انتبه إلى أنه يتكلم خارج الموضوع، سرعان ما وجد صلة بينهما.

«المشكلة في حالتك، أن الجنود أساؤوا إلى الجمال والمتعة معاً، الجنود تمتعوا بينما أنت لم تتمتعي، من هذه الناحية أصابك غبن شديد».

لم يتجرأ على القول لها إنها تتحمل جزءاً منه، كان بوسعها أن تتمتع، المغتصبات يشعرن بالنشوة أيضاً، لاسيما إذا تجاهلن هذا الموقف المؤلم وانخرطن سراً في جانبه اللذيذ.

أردت إقناعها أن الاغتصاب عملية جنسية أخطأت ظروفها الحسنة، وأن الخطأ أو المصادفة السيئة لا يبرران قتل نفسها، فقدان عذريتها ليس نهاية الدنيا، أي من الممكن أن نفهم الأمور بشكل مغاير لو أردنا، وأن نأخذها بخفة أشبه بملهاة مسلية، لا مأساة قاتلة.

وكأنني كنت أجرب التحايل على نفسي لا عليها بهذه المسوغات، أعرف ليس بامكاني أن أحل محلها. الدافع الوحيد لما أرغب في تسويغه هو، أننا لا ينبغي أن نخسر أرواحنا، لمجرد أشياء بوسعنا تجاوزها مهما كانت قاسية.

كلام كيلي لم يحدث أي أثر، حتى أن أبو سعيد كظم غيظه بصعوبة ولم يترجمه. ما قاله لن يجدي إلا في إشعال غضبها. قال أبو سعيد خاتماً الحوار والترجمة معاً:

«نحن على طرفي نقيض».

تهالك الطبيب على كرسيه، وتركهما يخرجان من دون كلمة.

مهما كان تصميمها على الانتحار، لم أعد مهتماً بها. من حسن الحظ أنها تفتقر إلى الوسائل. كذلك لم يفتني على الرغم من عدوانيتها الصريحة، حقيقة لن أخفيها:

بثينة بلا حزام ناسف لا يمكنها أن تقتل نملة.

لم يستقر طويلاً على كرسيه. خطر له حدس غامض، نهض واقترب من النافذة، رآهما يعبران الساحة.

الحدس الغامض انكشف، كانت المصادفة تحدث ثانية، التقيا ببيرنز في وسط الساحة، لم يتصور أن هذه المصادفة اللعينة، ستكون أسوأ من الأولى!!

23

لقاء مشبوه

كاد أن يصرخ بهم كي يتابع كلٌّ منهم طريقه. كلاهما بيرنز وبثينة معطوبان نفسياً، لا يصح أن يلتقيا قصداً ولا عفواً، لقاء ليته لم يحصل، إن لم يجدد الآلام فسيحيي الوساوس. لفحته نسمة ساخنة، فتراجع عن النافذة، لن يناديهم، صوته سيصل إلى أسماعهم ضعيفاً، إن لم يتبخر في هذا اللهيب اللعين.

تناول المنظار المقرب، وأجال النظر في الساحة، كانت هناك سيارات ثلاث إلى جوار الرصيف وسط الساحة الفارغة إلا من سائق في انتظار ضابط، أسند رأسه إلى الخلف، يشخر على الأرجح. اطمأن عندما رأى جندياً مسلحاً من وحدة حرس المستشفى، واقفاً بالقرب منهم إلى جوار الحائط تحت الرواق المعدني محتمياً من الشمس، لا ينظر إليهم، لكنه سيتدخل فيما لو حدث ما كان على وشك أن يقع، لكن ما هو؟!

بدا اللقاء اعتباطياً تماماً. استغلها بيرنز فرصة، وأراد من شدة غبائه، أن يصلح بالاعتذار شيئاً لا يمكن إصلاحه بالتوسل ولا بالرجاء. الأحمق إذا خطر له هذا، فندمه سيودي به إلى الاعتراف بمشاركته باختطافها واغتصابها، وإذا استرسل بالكلام، فقد يتجاوز الحد المأمون. عندئذ ستنتقم منه في التو واللحظة، ولا تؤجل انتقامها إلى فرصة ثانية، لن تتوافر إلا بمصادفة فقط.

حتى هذه اللحظة، لم تقم بثينة بحركة مشبوهة. المُطمئن أنها لا تحمل سلاحاً إلا إذا كانت خلال اليومين الفائتين، نجحت في سرقة سكين من مطعم أخفتها تحت عباءتها، لكن لا خطر منها، سكاكين المطاعم تحدث جروحاً سطحية، ولا تصلح للذبح؛ أما إذا حاولت خنقه، فلن يتحمل بيرنز النحيل الذي سيستسلم لها، أكثر من ضغطة واحدة على عنقه ويفارق الحياة، إلا إذا تمكن المترجم أبو سعيد من دفعها بعيداً عنه، لكن حركته البطيئة لن تؤدي الغرض منها، لن تزيد على المحاولة لا المنع، الحارس المسلح لو تنبه سيكون أسرع منه.

غير أن الحديث طال بينهما، وكان يجري منتظماً، بيرنز إلى اليمين وبثينة إلى اليسار، وأبو سعيد في الوسط، بيرنز يتكلم، وأبو سعيد يترجم، بثينة تصغي ثم تتكلم، أبو سعيد ينقل، بيرنز يصغي ثم يتكلم... وهكذا.

لم يوحِ المشهد الدائر بأية حركة رعناء، وإن بدا على شفير التصدع بين لحظة وأخرى، لاحظه كيلي بقلق لا يهدأ حتى يتزايد. قدَّر المسافة بينهم وبين الجندي المسلح، كانت نحو خمسة عشرة متراً. ترى هل يتنبه ويسارع في الوقت المناسب لإنقاذ بيرنز من براثن الفتاة التي ستغضب وتطبق على رقبته؟ إن

لم يكن شارداً لحظتها فسوف يجبرها على إفلات قبضتيها عنه قبل أن تُزهِق أنفاسه.

طال الحديث ولم يتخلخل جريانه. حافظ على تدفقه بذاك الترتيب المنتظم، الهادئ والفعال، وفيما لو كانا يتصالحان، وهو أمر يستحيل حدوثه، فلابد أنهما في سبيلهم إلى إنجازه على أحسن وجه. هذا ما سيظنه شاهد عيان حسن النية. أما هو فليس حسن النية، كان قد أخضع المنظر إلى دراسة نفسية.

تشاءمتُ، العراك بدا وشيكاً، لم يكن ما تحمله نحوه سوى الحقد. توقعي كان جازماً، ستقدم على مهاجمته، لديها الدافع والسبب والعزيمة. ومع أن لحظة انقضاضها عليه تأخرت، كنت متيقناً أنها لابد أن تحدث. وبدا أكثر من مرة أنها لن تمهله، لاسيما أن الحديث لم يعد يجري منبسطاً، التوتر واضح عليهما، بيرنز الأهوج الذي لا يخفي جريمته ينتقي كلماته بحرص شديد، يثبّت فعلته ولا ينفيها. هذا ما تراءى إليّ عن بعد، بينما بثينة الضحية تفكر كيف ستقتص منه؛ هذا المأفون!!

لم أستغرب انهيار هذه الوفاق المخايل في أقرب وقت، ما دام الحديث يدور بين مغتصِب ومُغتَصبةٍ، وإذا كان ما يزال يجري دون اشتباك بالأيدي أو استخدام للأظافر، وحتى بلا شتائم، فقد حققا ضبطاً نادراً للنفس لا يستهان به. ومع هذا بدا لي أن أعصاب بثينة ستفلت سريعاً من السيطرة لدى أدنى بادرة من فهم أو سوء الفهم. كانا على حافة الاصطدام، ولا شيء مستبعداً بعده.

غير أن وقفتهما طالت، أو هكذا تخيلت، لقاؤهم مهما كان فحواه، شدهني، حديثهم على الرغم من مخاوفي، اتخذ شكلاً حضارياً متطوراً جداً بين أعداء حقيقيين، بل وكان، يا للعجب أشبه بحديث دبلوماسي، ولم يكن مستساغاً إلا على أنهما يعقدان هدنة أو يناقشان معاهدة سلام كلاهما بحاجة إليها. كانا بالرغم من المجاملات المتبادلة والمحسوبة، كما يفترض بهما التصرف تماماً في مثل هذه المواقف المتأزمة، متصلبي الأجسام والوجوه محتقنة، كأنهما سينفجران معاً، ويتطايران معاً، ربما لهذا تضاعف تعرق أبو سعيد، ولم يفتر عن مسح وجهه.

فوجئ كيلي بالاجتماع العفوي ينفضّ بسلام، مع أنهما لم يتصافحا، أو تظهر إمارات الرضا على الوجوه، وإذا كان ثمة تعبير بدا على ملامحهم، فالتفاهم على أمر ما، ماذا يكون؟! ليس هناك ما يتفاهمان حوله!!

تراجع بيرنز خطوتين، أدارت بثينة ظهرها له، مشت وتبعها أبو سعيد.

تبادر إلى ذهنه أنهما ربما تصالحا، ولم يكن الأمر مستبعداً، ألم يعمل هو نفسه على تبرئة بيرنز خلال حديثه معها، وأكد لها استحالة أن يكون أحد مغتصبيها، وإنما هو شاب ساذج ومسكين، يسعده حمل آثام الآخرين. وإذا جربت بثينة أن تستفسر بيرنز، فالأرجح أنه كان حذراً، وأنكر علاقته بالاغتصاب والمختطفين وبالبيت السري. هل يكون بهذه النباهة أم مازالت جرائمه مستولية عليه؟ لذلك كان سؤاله لبيرنز الذي دخل لتوه:

«عمَّ دار حديثكم؟».

غمغم بيرنز، أدرك أن كيلي رآهما، فلم يجب، وإن بدت على وجهه ملامح الارتياح. أكمل كيلي تساؤله متوقعاً:

«هل تصالحتما؟».

«قالت إنها ستسامحني». أجاب باختصار.

كان ما توصلا إليه على حدة أكثر مما طمح إليه، وكأن علاجاً تهيأ لكليهما بمحض لقاء عابر، حقق هدفاً نجح بامتياز؛ تخلص على أثره بيرنز مما يؤرقه، وتجاوزت بثينة مصيبتها بعقلانية، والتأم جرحها الجسدي والنفسي بلا عوائق جدية ومن دون ألم. هذا ما أمله كيلي. كان مسروراً، ولا شك أنه أخطأ عندما أسبغ تشاؤمه قبل قليل على المشهد.

اعتقدتُ أن الحكمة الشرقية تلك التي أسمع عنها ولا أعرفها، أسهمت في هذا الحدث، مما جعلني أعيد النظر في هؤلاء البشر وأنحاز إلى الذين يدافعون عنهم، كانوا يفكرون مثل غيرهم، وبوسعهم المخاطرة بحلول جريئة، ولو كانت خاسرة. جرأة بثينة تجلت في أنها كانت واثقة من اتهاماتها لبيرنز، وكان في إقدامها على مسامحته، تخطٍّ لمأساتها المحلية في ما يخص العذرية، تصرفت بمنتهى الحكمة، ما أوقع في ذهني أيضاً أن الشرقيات بعكس ما يقال عنهن، يضطرهن الواقع للتحرر من خرافات الجسد.

وفر بيرنز على كيلي متاعب معالجته، بدا على وشك التماثل

للشفاء؛ حتى أنه وافق على طلبه تمديد إجازته يوماً أو يومين يقضيهما في المنطقة الخضراء. كما لم يمانع عندما التمس منه المبيت ليلاً في العيادة، إقامته في المهجع باتت تحرجه أمام الجنود الذين كانوا شهوداً على محاولة انتحاره.

بعد أقل من يومين، أدركت أن هذا الحوار الحضاري لم يكن سوى مؤامرة للقيام بعمل أخرق، جرى فيه استغلال بيرنز الأحمق الذي تطوع له عن طيب خاطر. كان خطئي أنني أخذت كلامه على محمل الثقة، مع أنه لم يكذب عليّ.

كانت ستسامحه فعلاً، لكن مقابل ماذا؟!

24

انتبه، أنت في ورطة

من فرط تحمس كيلي لمكافأة بيرنز، لم يذهب مبكراً إلى العيادة، أراد إفساح الوقت له لينام إلى ساعة متأخرة، ويرى أحلاماً سعيدة مغايرة لكوابيسه الخانقة. تخيله يتمطى متكاسلاً، ويستعد على مهل لمزاولة نشاطه مطيلاً فترة الاسترخاء بتناول شراب ساخن مع إفطار خفيف. كان المطبخ الصغير يحتوي على سخانة كهربائية ومعدات للشاي والقهوة، وبراد لا يخلو من اللحوم الباردة والحليب والجبن والكورن فلكس.

بيد أن اتصال الميجور أدامز به عكّر صباحه الهانئ:

«الكولونيل جاكمان لا يريد لبيرنز وجوداً في المنطقة الخضراء. أسرع بإنهاء مهمته، أن يعود اليوم إلى سامراء أفضل من غد».

أدرك أن محاولة بيرنز الانتحار قد وصلت إلى مسامع الكولونيل،

فسارع إلى التخلص منه حتى لا يتحمل عناء إجراءات شحنه إلى أميركا في صندوق مختوم. تحجج كيلي بأنه لن يتسنى له بهذه السرعة تقرير ما المفروض اتخاذه بشأن بيرنز، هذا يعتمد على نتيجة الجلسة الأخيرة، وهي ليست بعيدة؛ غداً أو بعد غد على أبعد تقدير.

«الكولونيل مصرّ على إخراجه من هذه القضية مهما كانت النتيجة، يريده أن يختفي عن الأنظار، ويرجع إلى المكان الذي جاء منه».

«أخشى أن يعاود الانتحار».

«فليقتل على خط النار، أفضل من أن ينتحر هنا».

في العيادة، كان بيرنز قد غادر، ولم يكن بالجوار، عربته الهامفي ليست في الساحة. خمن أنه ارتبط بموعد مع ليزا المجندة القصيرة الشقراء التي قامت بتمريضه في المستشفى، وإلا لما ألحف عليه بطلب تمديد الإجازة، إن لم يكن يتجول معها الآن في السوق يشتريان بعض التذكارات الرخيصة، ففي موقف عاطفي ملتهب، سينتهي بهما إلى السرير، ويستعيضان عن الطعام بالغرام. أما من أين لهما المكان والسرير، فالشقراء القصيرة لن تعدم الحيلة، ستدفعه للتسلل إلى أسرّة المرضى، أو سيحسن استخدام عربته الهامفي لموقعة غير حربية، لا تقل ضراوة عن معركة بالسلاح الأبيض. لكن بالنظر إلى هزاله، هل يتحمل هذا النزال، وفي أوضاع غير مريحة؟ هذا شأنه، ولا مفر من أن ينتظر الكولونيل أن ينهي بيرنز معركته، عسى أن يفوز بانتصار يخرج منه غير محطم الأعضاء.

ألقى نظرة على ما حوله، كان لديه فائض من الوقت وأكداس من الورق، فانشغل بترتيب ملفات قديمة، لاحظ بعد انقضاء زمن أمضاه مستغرقاً في عمله، أن بثينة وأبا سعيد قد حلّ موعدهما قبل ربع ساعة ولم يظهرا. بعد حين، نظر إلى الساعة ثانية، فات على موعد الجلسة أكثر من ساعة. لم يثر تأخرهما قلقه، بل أحس بالارتياح، لا شيء عاجلاً، وإذا كانت رغبة بثينة في العلاج معدومة، فقد اتفق معها على شيء أخيراً. ويبدو أن أبو سعيد تجاوب معها وأخذها إلى حديقة الزوراء لتروّح عن نفسها، هذا إذا كانت ما تزال حديقة. مصالحتها مع بيرنز، أتت مفعولها بمعزل عنه، وجعلت العلاج يتقدم وحده نحو الخاتمة.

بيد أن النهار لم يمض هادئاً، ليس بسبب ضجيج أبواق السيارات، وكانت سرعان ما تزعق وسرعان ما تتلاشى أصواتها، أو قذائف الهاون المتفرقة التي سقطت على أطراف المنطقة الخضراء، وأدت إلى تفجيرات لم تُحدث خسائر أو أذى، اضطرته إلى الاختباء في الملجأ.. بل لسبب آخر، عندما كان في طريقه إلى المطعم، تلقى هاتفاً من الكابورال المسؤول عن مهجع جنود الحراسة، يسأله عن بيرنز!!

لماذا؟! رد عليه وقد أحس دون مقدمات أن محظوراً وقع.

«البارحة ظهراً قام بحركات مريبة، وليلاً لم يعد إلى المهجع. اليوم اكتشف الجنود فقدان مسدس غلوك عيار ٩ ملم، ربما سرقه بيرنز من جعبة أحد الجنود بينما كان نائماً».

أيقظه المسدس من غفلته الطويلة، يكفي اقتران السلاح ببيرنز صاحب السوابق، ليتصور أنه ارتكب جريمة، ليست غير قتل

نفسه. إذا وجده قبل أن يحقق أمنيته، فسوف يُعيده اليوم قبل الغد إلى الفرقة؛ الكولونيل على حق.

وكان في الوقت الضئيل متسع ليلوم نفسه على تعاطفه معه. تشخيصه الأولي لم يخطئ، وإنما أخطأ تصوراته اللاحقة؛ لماذا أهمله؟! حتى تفسيره المتفاءل للقائه مع بثينة على أنه مصالحة وغفران، لابد أنه كان من تضاعيف خياله.

لم يشأ البقاء أسير ظنونه المتفاقمة، ذهب إلى المستشفى، كانت ليزا على رأس عملها. سألها عن بيرنز، قالت له بأنه خرج قبل يومين من الحجز، والتحق بعمله. لاحظ أنها لم تبد اهتماماً به. فقطع كيلي العلاقة العاطفية التي افترضها عنوة بين كيلي وليزا، الأصح، لم تنشأ علاقة بينهما، هذه أيضاً من تضاعيف خياله.

تناول شارداً نزراً من الطعام، لم يدر ماذا كان يأكل، شيء يحتوي على المايونيز والخس والبهارات. تخايل بيرنز أمام عينيه مقتولاً، فأفقده شهيته. ما أزعجه أن بيرنز نجح في العثور على جحر في مكان منعزل، نفذ فيه حكم الإعدام بنفسه، وأطلق رصاصة على صدغه أو في فمه، كيف تجرأ؟! تصوره في أكثر من وضعية، لم تغب عن أية واحدة منها، منظره مستلقياً على الأرض فاتحاً ذراعيه، المسدس مرمي إلى جواره، وتحت رأسه بقعة من الدماء، وفمه مفتوح على وسعه... هل كان مندهشاً؟ لا، لماذا الدهشة؛ لن تستقبله في القبر جوقة شرف، ثم ما الذي يدهش في الموت؟

حاول أن يزيح هذه النهاية عن تخيلاته، لكن في هذه الظروف القاهرة، ما المتوقع أن يحدث لرجل مريض في عقله وقلق في تصرفاته يبحث عن مكان ينتحر فيه؟ ليس أقل من الموت، الحياة

هي الاحتمال المستبعد. حسناً هذه هي الخاتمة، لا غيرها، إن كان بيرنز حياً فسوف يزعجه فعلاً.

أوقف تداعياته، ما دام أسير هذا الترقب السقيم؛ فالموقف لا يحتمل الهذر ولا المرارة. وضع ثقته ببيرنز، وكانت في غير محلها. بات انتظار خبر سيئ أمراً لا محيد عنه. توقع بين لحظة وأخرى أن يتلقى هاتفاً، ويسمع صوتاً يقول له، مريضك في المشرحة، تعال للتعرف إلى جثته. وكان على أهبة الاستعداد.

الهاتف تأخر، فلم يحتمل الانتظار، ذهب إلى المشرحة: في البراد جثة جندي شاب انتحر قبل يومين، كانوا يعدون له التابوت، سيخبرون أهله أنه قتل في حادث تدهور سيارة. اليوم لا حوادث انتحار.

بعث الليل في داخله السكينة، قد يجده في أحد البارات أو النوادي الليلية التي يعرفها، لكن لا أثر له. ربما التقى صديقاً قديماً أخذه إلى بار مشبوه من الأنواع التي تباع فيها أصناف متنوعة من المخدرات العراقية الرديئة المغشوشة، أو الفاخرة المهربة من إيران وأفغانستان. لا تخلو المنطقة الخضراء من الممنوعات على الرغم من المحظورات الكثيرة.

ذهب إلى العيادة ليجري اتصالاته، لكن مع من؟! من الحيطة عدم إثارة قصة غيابه، يحتمل أن المسدس لم يسرق، صاحبه نسي أين وضعه، وسيجده فيما بعد، إن لم يكن وجده، وكل هذه التوقعات المتشائمة نتيجة قلقه المفرط. حسناً، لكن أين بيرنز؟ ليته لا يطيل سهرته أو سكرته وربما تحشيشه.

لم يستبعد رؤيته يدخل العيادة وهو يترنح، ويتوجه من فوره إلى

الأريكة ليغطّ في سبات عميق. عندئذ يحق له أن ينسى ما كابده من جرائه، ويذهب إلى النوم مرتاح البال، لكنه كان متأكداً أن بيرنز لن يهبه هذه الراحة.

عندما رن جرس الهاتف، كان يغالب ظنونه، رفع السماعة متوقعاً الخبر السيئ إياه، وتهيأ ليسمع من سيقول له إنهم وجدوا جثته. الفضول وحده سيدفعه للتساؤل أين وجدوها، لا يريد أن يعرف سوى المكان الذي انتحر فيه.

الهاتف كان أسوأ من توقعاته كلها، تلك التي من الممكن أن تخطر له، أو حتى تلك التي لا يمكن أن تخطر له.

أعلمه الضابط المناوب في سجن النساء، أنه لدى إجراء التفقد المسائي، تبين غياب الموقوفة بثينة، المترجم الذي تسلّمها صباحاً لم يرجع بها مساءً حسب التعليمات، هل هناك أوامر معاكسة لم يجرِ إبلاغه بها؟

أخفى كيلي اضطرابه وقال له إنه سيراجع القيادة بشأنها، ربما أُطلق سراحها.

أطار اختفاء بثينة مع المترجم صوابه من رأسه والنعاس من عينيه، الأخبار السيئة والأشد سوءاً تتسابق إليه متآزرة لتؤكد له أنه رغم كل احتياطاته كان المغفل الأكبر. لماذا تجري الأمور وكأنها تستهدفه بالذات، هل هي مصادفة أن يتواقت غيابهما مع اختفاء بيرنز؟ من المستحيل ألا تكون مصادفة.

توقع أنه سيمضي ليلة مضنية في العيادة، ما خفف عنه أن الذين فقدهم مازالوا في المنطقة الخضراء، لا يمكنهم الخروج منها. إذا

لم يتلّق خبراً عنهم خلال ساعات، فسوف يبلغ الليفتنانت كليف صباحاً باختفائهم جميعاً.

لكنه لم يستطع النوم، إذا انكشف أمر غيابهم فسوف يحاسبونه في القيادة بشدة، ولن يفلتوه من العقاب. على الأقل، لماذا أهمل الإبلاغ عنهم طوال يوم كامل؟ سيظنون أنه متواطئ معهم. ولا نجاة بعدها من كيف ولماذا؟ بل وأكثر، الاتهامات لن تقع تحت الحصر، يكفي أن يختاروا واحداً منها.

اتصل بكليف، وأخبره بمشكلته، وسأله البحث عنهم، على ألا تثار أية ضجة حولهم قبل معرفة ما جرى. وحاول خلال إجاباته على تساؤلات كليف ألا يعطي لاختفائهم أهمية كبيرة:

ـ لا أظن أن الأمر خطير، جميعهم يعانون من مشاكل نفسية.

ـ نعم، حتى المترجم أبو سعيد لا يقل حماقة عنهما، مادام شارك بثينة جنونها.

ـ لم يتفقوا على خداعي، لدى كل واحد منهم أسبابه.

ـ لا أعتقد أنهم تفاهموا على شيء، ولا اتفقوا على هذا الغياب الجماعي.

ـ على التأكيد ليسوا معاً، خصوصاً الجندي والفتاة.

ـ من المستحيل أن يجمعهم هدف واحد. أما إذا كان، فشيء على شاكلة شخصياتهم المهزوزة، تافه وغريب، لكن هذا غير معقول.

ـ ماذا تقول؟! ربما أقدم المترجم وبثينة على شيء غير متوقع؟! ماذا يكون؟!

ـ لا، هذا فيه هلاكي.

أغلق السماعة: هل يدركهم كليف قبل ارتكابه؟

لم يشأ التفكير في ما أقدموا عليه، لكنه لم يستطع التهرب مما أثاره كليف، هل يعقل أنهم اختطفوا بيرنز، وغداً سيساومون عليه من قلب المنطقة الخضراء؟ أية فضيحة!!

قاوم النوم، علّ أحدهم يظهر، لكن لا أحد. أغمض عينيه قبل شروق الشمس بقليل. غير أنه بعد شروق الشمس بقليل، أيقظه كليف وأعلمه أن ثلاثتهم غادروا معاً صباح البارحة المنطقة الخضراء، بمهمة رسمية صادرة عن وحدة الإسعاف النفسي!!

«لا تمزح معي».

«انتبه، أنت في ورطة».

تدافعت الأسئلة في رأسه. لماذا ثلاثتهم معاً؟ ما معنى أنهم أمضوا حتى الآن ما يزيد على نهار وليلة خارج المنطقة الخضراء؟ ما الذي هم في أثره؟

كانت المهمة الرسمية المزورة دليلاً على تواطؤ كامل، وإذا لم يكن كاملاً، فالمصيبة كارثة حقيقية، لم يتابع، رفض الفكرة، لكنها تشبثت به.

مخاوفه وجدت صدى.

هل تواطأ بيرنز معهم، وفروا جميعاً إلى جهة مجهولة؟! لا، لم يشاركهم الفرار، إلا إذا جرى تنويمه مغناطيسياً، شخصيته طيعة لهذه الألاعيب. أما أبو سعيد، فإذا لم يكن في الأصل عميلاً

لإحدى المنظمات الإرهابية، فالأرجح أن بثينة غررت به، ومن ثم اتفقا على الإيقاع ببيرنز لحساب إحدى الجماعات الإسلامية.

إذا كان هذا ما حدث فعلاً، فقد أصابت تخمينات كليف، وإن اختلفت قليلاً، فبينما كان الاختطاف حاصلاً داخل المنطقة الخضراء، أصبح الآن خارجها. بثينة وأبو سعيد استدرجا بيرنز إلى حيث كانت بانتظارهم عصابة خطف، ما الذي فعلوه؟ سلموه إليها!! ثم انتظرا دورهم للمشاركة في عمليات أخرى.

توقع إن لم يكن في هذا الصباح الباكر، فبعد ساعات قليلة، أن تعلن منظمة إرهابية اختطافها لجندي أميركي، وتبدأ بعدها رحلة الرعب وحبس الأنفاس: وساطات ومفاوضات ومساومات لن تفضي إلى فدية، وإنما إلى مزيد من الدعايات الترهيبية، ترفع حدة الانتظار المحموم وتوترات الموت المقسط... وفي النهاية، كالمعتاد، عرض فيلم فيديو، يشهد فيه العالم بأسره الجندي الأميركي بيرنز يستجدي القيادة الأميركية الخروج من العراق، ولن يطول الوقت عندما يشهدون قطع رأسه. أحس بالفزع، وهو يرى رأس بيرنز يتدحرج، هنا على الأرض، بين قدميه.

من سيخطر له عندئذ أن غفلة هذا الجندي كانت السبب في اختطافه، ومن سيعرف الكم الهائل من الحماقات التي ارتكبها هذا المسكين من دون أن يدري.

لم تكن نهايته برصاصة في الفم، بل بحد السيف.

كليف على حق، كان في ورطة حقيقية، ستقضي عليه، لن يتسامحوا معه إن لم ينقذه شيء ما ليس بالحسبان.

25

الشيء الذي ليس بالحسبان

لم يكن الدوام الرسمي بدأ في الإدارات المختلفة عندما اتصل به كليف وأخبره بأن نقطة التفتيش المناوبة في مدخل فندق الرشيد أوقف جنودها قبل قليل سيارة الهامفي وهي تعبر الحاجز قادمة من بغداد، وكان بداخلها الجندي بيرنز والمترجم أبو سعيد، وقد أحيلا إلى سجن الشرطة العسكرية حيث هما الآن معتقلان على ذمة التحقيق.

مع أن الخبر خفف عنه الجزء الأكبر من همومه، لاسيما إعادة رأس بيرنز المقطوع إلى مكانه بين كتفيه، بيد أنه لم يكن مفرحاً، إذ لا أثر لبثينة. إذا كان ثمة أمل في استعادتها، فالأفضل جثة هامدة، عندئذ سيكون خبراً مفرحاً.

في مركز التوقيف، حاول كليف استجواب بيرنز، لكنه لم يظفر منه بشيء، بدا مصمماً على قطع صلته بالكلام. لم يستغرب،

تجربته السابقة معه كانت صامتة. المترجم أيضاً رفض الكلام قبل إعلام الكولونيل جاكمان بأمره.

بعد ساعات، ولأول مرة تتفق في القيادة عدة أقسام، تختلف فيما بينها على كل شيء، على معالجة القضية بأسلوب موحد، مع الامتناع عن إبداء الرأي، وكان القرار هو التحفظ عليها وعدم إثارتها على أي مستوى قبل التحقق من ملابساتها، وصدور قرارين، الأول تقييد حركة بيرنز وأبو سعيد في المنطقة الخضراء، ومنعهما من المغادرة إلى المنطقة الحمراء حتى إشعار آخر، وذلك بوضعهما تحت الإقامة الجبرية في وحدة الإسعاف النفسي. القرار الثاني، إحالتهم إلى التحقيق، على أن يحقق معهما الطبيب كيلي!!

بدا في تحويل بيرنز وأبي سعيد إلى وحدة الإسعاف النفسي مع أنها جهة غير مخولة بالنظر في مثل هذه القضايا على الإطلاق، عدم أخذ أهمية هذه القضية في الحسبان، لكن أدامز الذي انصاع لتولي مرؤوسه كيلي المهمة، فسر هذا القرار بأن ضباطاً في القيادة راعوا حساسيتها، وعلاقة العمل التي ربطت بين الطبيب والمترجم، بالإضافة إلى إصابة المشبوه بيرنز باختلال نفسي، مما يجعل الطبيب الطرف الأقدر على التعامل معهما. على هذا الأساس نُقلا إلى العيادة واحتُجزا فيها.

قبل كيلي بالمهمة، كان المستفيد الوحيد منها، لن يوضع في قفص الاتهام، بل خارجه وفي دور المحقق. كان الشيء الذي ليس بالحسبان إلى جانبه تماماً.

بادر فوراً إلى إرسال بيرنز لسجن المستشفى، مع تعليمات اختصرها بالتضييق عليه، عسى أن يشعر بالملل فيخرج عن صمته.

هذا ما قاله، أما الذي لم يقله، فهو أنه لا يريد أن يسمع منه شيئاً، ومع أنه اضطر إلى زيارته، لم يجرب معه أية وسيلة لدفعه إلى الكلام، كان قد فقد أية رغبة بمساعدته؛ الصمت يساعده أكثر، والأفضل أن يقتله، هكذا بسكون وبمنتهى الهدوء، من دون إحداث أية ضجة.

كانت حالته معقدة جداً. بدا منهاراً، ويحتاج إلى وقت طويل حتى يستعيد توازنه، بعد أن جدد معاناته وأخذ يستثمرها على نحو بطيء، لا تتوقع متى تتلاشى دون أن تخلف أثراً، وهذا مستحيل، أو تطفو على السطح بشكلها الفج. أزمته النفسية لم تكن شديدة الخطورة، ولا تهدد حياته، مادام تحت الرقابة.

تشخيصي الحالي كان مبنياً على تخمينات قوية، لم تختلف كثيراً عما سبق: بعد أن عرّض بيرنز نفسه للموت بتظاهره بالانتحار، راهن على الحصول على الغفران ولو كان فيه اعتقاله ومحاكمته. أما ما سوف يفعله، فالتفكير بوسيلة أخرى تجعله يجتر شعوره بالذنب. حسناً، في السجن متسع لهذه الرياضة المؤلمة.

كان ميؤوساً منه، على الأقل في المستقبل المنظور.

التمس من ليزا رعايته ريثما يتفرغ له ويجد حلاً بشأنه. طلب منها مبدئياً المواظبة على حقنه ببعض المهدئات والمنومات، واستجاب بيرنز وأوغل في الصمت والنوم معاً.

لم يكن كيلي ساذجاً حتى يصدق أن الميجور أدامز راض عن الاتجاه الذي اتخذته القضية، وإذا كان قد أبدى سروره،

فلأنه سيشهد أخيراً خذلان مرؤوسه الطبيب، عندئذ لن يتورع عن إيداعه في السجن بعدة اتهامات، على رأسها، وإن لم يُنص عليها؛ الغرور.

> **القذر أدامز، كان لي بالمرصاد.**

توقع منه بعض العراقيل المعتادة، إحداها محاضرة تمهيدية ثقيلة الدم تنضح باللؤم والسخرية، بيد أنها لم تكن محاضرة، بل محاكمة، أو تصويراً لمحاكمة، خاصة وأن أدامز كان متحاملاً عليه وحقيراً جداً:

«إن لم تكن متعاوناً مع المتمردين، فمتعاطفاً مع مريضتك الإرهابية».

وتخيل كيلي نفسه خلال ثوان مكبل اليدين!!

استغل أدامز الرعب الذي تلبّس كيلي، وأخذ يشفي غليله منه، بعدما شوّشه كلياً، ولم يكن قد باشر بعد العمل على التحقيق المسند إلي. كانت كل خطوة محسوبة عليه، ولقد خالجه إحساس بأنه سيشارك أبا سعيد سجنه، ما دامت إقامته الجبرية في العيادة، وريثما أدرك أنه حر الحركة، يستطيع الذهاب متى شاء وأنى يشاء، حتى استجمع أفكاره، والتفت إلى القضية التي كُلف بها، تلك التي لم يبق منها إلا المترجم.

توقع رؤية أبي سعيد في حالة تصدع شامل، لكنه بدا على ما يرام، على الرغم من الاتهامات الموجهة إليه، وهي إن دلت إلى شيء فإلى وضع لا نجاة منه. غير أن المتهم لم يكن مهتماً بالعواقب، ولم تكن بالشيء اليسير.

لبث يتأمله، هذا الرجل خاض معه جلسات طويلة من المناقشة، لكنه غدر به.

> **كان ما نشأ بيننا علاقة من نوع خاص، شيء أشبه بالصداقة رغم ما لابسها من نفور وخلافات. لم يكن عسيراً عليّ الاستمرار هكذا، خلافاتنا لن تنتهي، وتنافرنا على حاله، غير أن فضولي إزاءه اتخذ شكلاً مختلفاً، مع صلاحية لاستخدام وسائل مجدية أكثر؛ بات بوسعي استعمال القوة. ما سبق بيننا كان خاطئاً منذ البدء، ربما لأنني عاملته معاملة جيدة، سمحت له بالتدخل والاعتراض... والترجمة كيفما شاء، حتى وصل به الأمر حد الامتناع عن القيام بعمله وتحريض بثينة عليّ.**

لم يتأمله طويلاً، العلاقة القديمة انتهت، والعلاقة الجديدة بدأت.

أراد مباشرة التحقيق على الفور، الكثير من التساؤلات متراكمة لديه. ما الذي جمع بين بثينة وبيرنز؟ هؤلاء لا يجتمعان!! ما الصلة التي عقدت بينهما؟ ما دوره فيها؟ كيف سيطر عليهما طوال يوم كامل؟ ما الذي جرى حتى تمكنت بثينة من الفرار؟ أو كيف تركوها تهرب؟! هل هناك أمل ولو كان ضئيلاً في أن تكون قد لاقت حتفها؟ ثم لماذا عاد مع أنه سيتعرض للمحاكمة؟ أسئلة ستفكك أكثر من لغز حيّره.

وفي الوقت نفسه، لا يرغب بتوجيه أي سؤال إليه، لإحساسه أنه سيسمع قصة ضعيفة وسيئة، يضطر إلى تجرعها كما يتجرع السم!! حتى لو اعترف المترجم باقتراف جريمتين: الأولى، التغرير

بجندي مريض، ينعم الآن بأمراضه السقيمة. والثانية، تهريب فتاة إرهابية، في سبيلها إلى تنفيذ عملية انتحارية. هل يمكنه الدفاع عن نفسه؟ لا.

عودته لا تعني براءته، كل ما جرى كان مدبراً ومتعمداً. لم يكن أميناً ولن يستعيد ثقته أبداً. ما الضمانة ألا يكون في داخله إرهابي محترف، ألن تكون خطوته التالية تفجير نفسه في مبنى قيادة الائتلاف؟

إذاً، لماذا السؤال، ولماذا الجواب؟ لكنه كان مضطراً لهذه التمثيلية.

«أين ذهبتم نهار البارحة؟» سأله كيلي بصوت يرتجف من الغيظ.

«إلى بعقوبة».

«لماذا بعقوبة؟!».

«طلبت بثينة مراراً الذهاب إلى هناك، تعرف لا أهل لها ولا مأوى في بغداد. لم يستمع إليها أحد، فتبرع بيرنز بتوصيلها وأنا رافقتهما لأنني خشيت عليهما».

كان أبو سعيد متعباً، يجر الكلام جراً، البارحة لم ينم. فالتمس من كيلي تأجيل التحقيق معه إلى اليوم التالي.

كان الوقت متأخراً ولدى كيلي رغبة في التأجيل. كان متعباً هو أيضاً، لم يذق طعم النوم طوال الليلة الفائتة إلا بضع دقائق. التأجيل مهلة لكليهما، ستوفر الراحة لهما، مع متسع من الوقت بالنسبة إليه ليستعيد هدوء أعصابه. وأيضاً لأبي سعيد ليفكر بخطورة ما أقدم عليه، والعواقب الناجمة عن كتمانه. غير أن

المهلة ذاتها غير مأمونة، مثلما ستحث المترجم على قول الحقيقة، قد تدفعه إلى المثابرة على إخفائها. بالعكس ينبغي ألا يوفر له هذه الفرصة. لكنه أجبر نفسه على التسامح معه، لسبب واحد، لئلا يزعم أنه حرمه من النوم مثل المحققين العسكريين والمتعاقدين المدنيين.

قبل أن ينصرف أبو سعيد إلى الأريكة، أبدى مخاوفه حول بيرنز:

«ينبغي وضعه تحت المراقبة، إنه في حالة صدمة».

«اطمئن، صدمة البقاء على قيد الحياة».

«لم يغادر دائرة الخطر، ما زال ينوي الانتحار».

«لا تهتم به، اهتم بنفسك».

وابتسم ابتسامة عريضة؛ أراد أن يقول له بشماتة إن موعد نوبة بيرنز الانتحارية القادمة ليست بعيدة، وليتها تحدث في القريب العاجل. لكنه غمغم وتلفظ ببضع كلمات لم يسمع منها أبو سعيد سوى: عسى أن تنجح.

في الصباح، استعاد أبو سعيد نشاطه بعد نوم عميق، كان كافياً ليكون على استعداد للتحقيق. فكر كيلي، ترى من أين نبدأ؟ وخشي أن تكون البداية أشبه بالجلسات التي سبقت ولم تفلح في علاج ولا شفاء.

أبو سعيد حدد البداية، لا يمكن الإحاطة بما حدث إلا بالعودة إلى مشهد لقائهم في الساحة، من هناك انطلقت الأحداث. كان ذلك عندما خرج وبرفقته بثينة من العيادة، ولاح بيرنز في الساحة قادماً من بعيد، وهو يعبرها ويتجه صوبهما.

26

صبي البار البصباص

رآه أبو سعيد فانحرف كي يتجنبه، بثينة لم تتفاده بنظراتها، ثبتت عليه عينيها الحاقدتين، واتجهت صوبه تريد الاصطدام به. تابع بيرنز سيره نحوهما، وقف واعترضهما، فأدارت بثينة نظرها عنه احتقاراً له.

طلب بيرنز من أبي سعيد ترجمة ما سيقوله لها. تحجج المترجم بأن الاتصال بينهما ينبغي أن يكون بحضور الطبيب. توسله بيرنز، مجرد رجاء صغير. بثينة قالت، اطرده. سارع بيرنز قائلاً: إذا أرادت الانتقام مني فلن أدافع عن نفسي.

لم تلتفت إليه، قالت لأبي سعيد إنها عندما ستنتقم منه فسوف تقتله فوق أرض المعركة. كانت تبلغه بنواياها، ستفجره، وإن كانت تتمنى تمزيقه الآن بأظافرها حتى النزع الأخير.

لم تضايقه كلماتها القاسية ولا لهجتها الغاضبة، آلمه أنها لم تمنحه أي رجاء. لم ييأس، عاد يتوسلها الاستماع إليه.

في العيادة، كأن حدساً قادني إلى النهوض والاقتراب من النافذة. رأيتهم، كان الموقف قد تبدل؛ بثينة وبيرنز وجهاً لوجه، الحوار قد بدأ، وأبو سعيد يحاول إنهاءه.

لم يكن حواراً بالمعنى الصحيح، كان صفقة.

قال لها المترجم، أصغي إليه، لكي نتخلص منه بسرعة.

قالت بثينة، فليقل ما الذي يريده؟

انطلق بيرنز بالكلام دون توقف. طلب منها أن تسامحه على ما فعله، لم يكن واعياً بما كان يحصل وهي في الأسر، ولا متمالكاً رشده، كان خائفاً من السارجنت ماغواير. لم يتجرأ على مخالفته، ولا الاحتجاج على تصرفاته، كان يخاف منه.

حججه لم تلاق أكثر من نظرة اشمئزاز من بثينة.

شكا بيرنز من أنه لم يعد يستطيع التحمل. يتمنى الظفر بلحظة نسيان واحدة، ليت روحه تستريح ولو بالموت. ورجاها أن تسامحه.

رفضت، وحصلت مشادة بينهما.

تولى أبو سعيد الترجمة بينهما، كانت القصة المعروفة نفسها؛ بيرنز شارك في اختطاف الفتيات الثلاث وحراستهن، لا جديد. لكنه حين اشتد الأخذ والرد بينهما أذهله ما أخذ يسمعه لأول مرة، وأثار استغرابه

الشديد، كان أشبه بالصدمة: بيرنز لم يشارك باغتصابهن، بل ولم يمس أية واحدة منهن بسوء!!

إذاً لماذا تحقد عليه؟! ولماذا يطلب الصفح منها؟!

ما حصل عبرت عنه بكل ألم:

«كان بوسع هذا الحقير الواقف أمامك إنقاذنا، بدلاً من التلصص على عذاباتنا، لكنه لم يفعل، ولم يعارض أو يرفع صوته احتجاجاً على ما كان يجري أمامه».

كان فرصتهن الضائعة، عولن عليه بعدما أيقنّ أنه الشخص الوحيد الذي بوسعهن التأثير فيه، لكن من دون فائدة. أصابه الذعر والخرع معاً. لم يشارك الآخرين، اختار أن يكون صبي البار البصاص. وعندما اعترض على قتلهن، كنَّ ساعتها في حالة فضّلن الموت على الحياة، تلك كانت جريمته الثانية.

«اصفحي عني، قوليها، واطلبي مني ما تشائين».

بثينة لم تلتفت إليه، امتنعت عن قول أية كلمة. وكادت أن تمشي وتتركه، لكنها تريثت، هل تأخذه على محمل الصدق؟ تساءلت:

«هل أنت على استعداد للقيام بأي شيء أطلبه؟».

«نعم، مهما كان هذا الشيء».

حرارة صوته وهو يؤكد استعداده، لاقت استجابة لديها.

«هل تستطيع إيصالي إلى بعقوبة؟».

وألقت بنظراتها إلى عربة الهامفي.

استغرب أبو سعيد البساطة التي تكلمت بها، وكأن باستطاعة الجندي المختل العقل تنفيذ رغبتها لمجرد أنه سائق.

«سآخذك إلى المكان الذي تريدينه» قال بيرنز.

فشرحت له لماذا بعقوبة ضالتها.

«ربما وجدت أخي هناك، أريد الاطمئنان إليه».

لم يرق العرض ولا القبول لأبي سعيد، الوصول إلى بعقوبة شبه مستحيل، ويتجاوز قدرات بيرنز الجاهل الذي وافق بغباء، وحدد المقابل:

«هل تسامحينني فعلاً؟».

اتخذ سؤاله منحىً خيالياً، وكأنه يستطيع أن يذهب بالهامفي إلى حيث يشاء، مع أنه حتى لو كانت العربة مصفحة، تبقى هدفاً أكيداً لإغارات المتمردين، إن لم تنل منها العبوات الناسفة، ومن دون حساب لحواجز الجيش الأميركي والشرطة العراقية، هذا إذا نجا من الحواجز الطيارة للإرهابيين والمقاومين وعصابات السلبية.

التقط أبو سعيد نظرة من بثينة، هاله ما تبدى على وجهها من تصميم، كانت تحدق في بيرنز بظفر؛ لقد نجحت في الإيقاع به. لم يعد لديه شك في أنها عثرت على شخص بات طوع أمرها لن يتأخر عن تنفيذ رغبتها.

ما هاله أكثر، وعد بيرنز لها بالانطلاق دونما تأخير: صباح غد.

فسارع لإفشال خطتهما:

«من سيعطيك الإذن بالذهاب إلى محافظة خطرة كديالى؟».

«سأحصل على مهمة رسمية».

«لن يخاطر أحد بذلك إلا تحت حماية الجيش».

«سأقنع الطبيب».

«لن يقتنع مهما حاولت».

«الطبيب يهمه شفائي».

«ومن سيضمن سلامتك؟».

تدخلت بثينة:

«سيعود سالماً».

«سلامتي لا تهمني».

أبو سعيد لم يطمئن لصفقة بثينة ـ بيرنز، أن تغفر له بثينة فعلته مقابل توصيلها. من هو الأكثر غبناً في هذه المقايضة؟ كلاهما مغبونان، لم يحسنا التفكير ولا التدبير. مهما كانت أحلام بيرنز عريضة، فلن يتمكن من تنفيذ وعده إلا في الخيال. مثلما هي لن تتمكن من ضمان عودته سالماً، ولا حتى سلامتها. هناك في بعقوبة من هم جادون في الاتجاه المضاد، إذا وقع بين أيديهم، لن يساوموا عليه طويلاً، جريمته تكفل قتله شرَّ قتلة، هذا مصيره، وكان يسعى إليه.

سألتُ أبو سعيد، ألم تحاول أن تقنعه؟

أجابني، مهما حاولتَ، لن تقنع رجلاً يائساً بأن يعيش.

> **كان يطلب شيئاً لم يكن سوى الموت. وكانت المهمة مميتة.**
>
> **كان ذاهباً برفقة فتاة لن تأخذه إلا إلى حتفه.**

السؤال الذي دار في رأس أبي سعيد:

«بعدئذٍ، ماذا يعني أن تسامحه بثينة أو لا تسامحه؟!».

27

مجرد سكون

إجراءات الانطلاق كانت جاهزة في موعدها صباحاً. أعدها بيرنز بعدما تحايل على كيلي وأقنعه بالسماح له بالمبيت في العيادة. في الليل فتش أدراجه وزوّر مهمة رسمية تخوله مغادرة المنطقة الخضراء مصطحباً معه بثينة والمترجم إلى مدينة بعقوبة.

تورط أبو سعيد بمرافقتهما بعدما أصبح شاهداً على الصفقة التي تمت بحضوره. كان مسؤولاً عن المحافظة على بثينة، وبات مسؤولاً عن سلامة بيرنز أيضاً، سيضبط تهوره، ويحميه كي لا يؤدي به طلب الصفح إلى خسارة حياته، وإذا ساءت الأحوال، فربما وفر له بعض الوقت، ليشعر بنعمة الغفران قبل الموت.

> **عزم أبو سعيد على العودة ببيرنز سالماً، وإن لم يأمل كثيراً.**

كان وجوده مترجماً ضرورياً لتيسير عملية التفاهم بين بثينة وبيرنز، والتصرف في حال اعترضهم على الطريق حاجز للشرطة العراقية، وشككوا بالمهمة الرسمية، كان أقدر على التخلص منهم، بيرنز لن يستطيع، شخصيته المهزوزة لن تقنعهم، قد يزلّ لسانه بهفوة، أو يرتكب خطأً غير مقصود، لاسيما أنه حصل على المهمة بتلفيق أكذوبة على الطبيب.

لكنه لم يتصور أن المهمة الرسمية كانت مزورة بالكامل.

تبعد مدينة بعقوبة الواقعة في محافظة ديالى عن بغداد نحو ستين كيلومتراً. لم يحدث ما يعيقهم طوال القسم الأعظم من الطريق، كانت سيارة الهامفي منطلقة كالصاروخ، حتى أن عناصر دوريات الشرطة العراقية التي صادفتهم داخل بغداد فوجئوا بسرعتها الكبيرة، فلم يحاولوا اعتراضها للاستفسار عن وجهتها، بل وأطلق شرطي عراقي من أحد الدوريات بضع طلقات من رشاشه في الهواء تحية لها، أجابه بيرنز عنها بتلويحة من يده. أما الحواجز الأميركية، فاطلعوا على المهمة ووجهة السيارة، ثم سمحوا لهم بالمرور.

قبل وصولهم إلى بعقوبة، أوقفتهم وحدة صغيرة من الجيش العراقي ونبهتهم إلى حاجز طيار للمتمردين، على بعد كيلومترات قليلة، المرجح أنه لعصابة سلّبية أو خطف، لم يشتبكوا معهم خشية من كمين، كانوا في انتظار قوة مساندة. ونصحوهم بطريق جانبي، فاتخذوا درباً ترابياً بين الحقول. أوقفوا الهامفي وأخفوها وراء كوم ضخم من القش الأصفر، واختبأوا خلف أشجار النخيل. من بعيد لمحوا خمسة ملثمين أوقفوا باصاً، أخذوا يفتشونه ويتأكدون من هوية ركابه، ثم تركوه يتابع طريقه.

انتظروا يترصدون ذهابهم، وإذ هاج الغبار، امتنعت الرؤية أمامهم، فلم يستطيعوا البقاء رابضين في أماكنهم، تقدموا زحفاً تحت شمس شحب لونها الناري، لم يكن بحوزتهم سوى مسدس الغلوك أشهره بيرنز كأنه يفيدهم في التصدي لهم. تواروا بين الأعشاب الطويلة المتموجة يترصدون انسحاب الملثمين من مشهد بدا وديعاً بعد تبدد الغبار، بيوت متناثرة على ضفاف النهر من الجانبين، أعواد القصب الأخضر على أطراف الجداول المتشعبة عن المجرى الرئيسي للنهر. وبعيداً كانت البراري مقفرة.

القوة المساندة لم تأت، فلم يحصل صدام. بعد الظهيرة بقليل غادر الملثمون المنطقة، فتابعت الهامفي طريقها إلى بعقوبة. لم تبتعد مسافة كبيرة عندما اضطرها زحام عند مخفر متقدم للشرطة العراقية إلى التوقف، حذرهم الضابط من وجود مناوشات في المنطقة التي سيمرون بها كانت مختلطة تضم شيعة وسنة. بعد صلاة الظهر، فيما كان المصلون خارجين من جامع للشيعة، حصل انفجار بقنبلة جهزت بواسطة ربط أسطوانة غاز بدراجة هوائية، قتل على أثره أربعة أشخاص، تلتها مناوشات بالأسلحة الخفيفة. انتظروا عند المخفر نحو ساعة من الزمن، ريثما علم الضابط أن المناوشات انتهت وانسحب المسلحون من الطرفين.

عندما وصلوا إلى الجامع، كان قد تم إخلاء الضحايا والجرحى، المكان مثل مقبرة، الجدران ممتلئة بعبارات معادية لأميركا، والرصاص ترك ندوباً سوداء على قبة المسجد الخضراء اللامعة تحت الشمس. نداء المؤذن يتردد في الفضاء ولا مصلّون. في المكان ثلاثة رجال من الشرطة، اثنان يكنسان أشلاء القتلى

ويضعونها إلى جانب الطريق، والثالث يحمل نربيشاً يغسل الأرض بالماء من آثار الدماء.

تابعوا طريقهم، مروا أمام مخفر في مدخل بعقوبة، أيقظ ضجيج السيارة رجال الشرطة، كانوا في قيلولتهم، بالكاد استطاعوا إلقاء نظرة على العربة وهي تشق الطريق المستقيم صوب منطقة الضواحي الجديدة، لم يفعلوا شيئاً، ما دام أنها عربة عسكرية أميركية.

تجاوزت السيارة الأبنية الحديثة وتوغلت في الحقول بين بساتين النخيل والرطب وأشجار الفواكه والحمضيات والكروم، أراض شاسعة، يسايرها نهر ديالى، وتحدها في الأفق التلال الساكنة. النسيم العليل يحمل إليهم فوح البرتقال. قالت بثينة، قبل سنوات عندما زارت بيت عمها صادف عيد البرتقال الذي يحتفل به الأهالي كل سنة.

اتخذوا طريقاً ترابياً، لاح من بعيد بناء حجري من طبقتين. أشارت بثينة إليه، توجهت السيارة نحوه، عبرت البوابة الخارجية وتوغلت في الممشى المظلل بالأغصان المتهدلة لأشجار التفاح والبرتقال، وتوقفت في نهايته أمام مدخل البناء. العرائش الخضراء تسلقت جدرانه الخارجية وامتدت إلى الممشى.

في الشرفة، جلست امرأة شابة على الأرضية الوسيعة تقشر حبات البطاطا، إلى جوارها طفلان صغيران، الأول يحبو على الأرض والثاني يتعثر في مشيته، لحظة وقع بصرها على عربة الهامفي، أسقطت ما بيدها، حملت الطفلين وهرعت إلى الداخل.

نزلوا ثلاثتهم من السيارة، طلبت منهم بثينة الانتظار، وتوجهت إلى

البيت. قبل أن تصعد الدرجات القليلة إلى الشرفة، أطل من الباب رجل أشيب وقور تجاوز الستين من عمره، مربوع القامة عريض الكتفين. كان عم بثينة، أطلق عابساً نظرة حادة صوبهم، بوغت برؤيتهم، وانخطف لونه، لم يفه بكلمة. أتبعها بنظرة أخرى إلى سيارة الهامفي. ثم ألقى نظرة إلى بثينة، ارتعدت من رؤيته، وكانت تتقدم نحوه. استدار نحو الداخل، مجرجراً خطواته ببطء، منظرهم أنهكه خلال لحظات. لحقت به، لم تستغرب، كان يظنها ميتة فإذا بها حية وبرفقتها رجلان أحدهما جندي أميركي.

وقف أبو سعيد وبيرنز في الفسحة قريباً من المكان الذي كانت المرأة جالسة فيه مع الطفلين. لم يعرفا كم سيمضي من الوقت وهما في حالة انتظار، فجلسا على طرف حوض الورود تحت العريشة.

ظهرت بثينة من خلال النافذة واقفة عند مدخل الديوانية، فيما عمها يلتفت نحوها. مضت لحظات طويلة وهي تنتظر منه كلمة. عمها بقي صامتاً، حاولت الكلام، فأسكتها، وأشار بيده إليها كي تجلس. تركها وحدها وخرج، لم يشأ الانفراد بها.

بعد أقل من دقيقة، خرج ثلاثة أولاد لم يتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره، انطلقوا صوب البساتين. خيم السكون في الديوانية طوال نصف ساعة من الزمن، إلى أن بدأ أولاد العم بالتوافد إلى البيت، يدخلونه واجمين، وهم يرمقونهما باستنكار. كان الأب قد استدعى أولاده الثمانية من الحقول ومن وظائفهم، ليلتئم شمل رجال العائلة.

لم يسمع أبو سعيد بوضوح ما كان يقال في الداخل. مجرد

همس يتلجلج في السكون. أنبأه أن بثينة تروي قصتها، بصوت خافت متهدج النبرات، تسرب عبر النافذة، يشرخ الهدوء بإيقاع تلاحقه أنفاس الجمع الصامت المتوتر، يتخافت تارة، ويتقطع تارة أخرى، من فرط ثقل كلماتها، واضطراب أنفاسها.

علا صوتها فجأة، فشنف أبو سعيد أذنيه وأصغى، كانت تطالبهم بأخيها!! فاقترب من النافذة، لئلا تفوته كلمة، سمع واحداً من أبناء عمها، ينكر وجوده لديهم.

«لم يأت إلينا».

«إنه أمانة لديكم، أريد توديعه».

«لم يعد أخاك».

«لا تعذبوني، جئت من أجله لا من أجلي».

تدخل عمها ناصحاً:

«يستحسن ألّا تريه».

تلاه لغط، لم يلتقط أبو سعيد شيئاً مفهوماً منه، وإن كان الواضح منه نبرات الغضب والوعيد والتهديد من أولاد عمها. ثم هدأ الجدال وأطل شاب من الباب طلب من أبو سعيد الدخول.

كان بعضهم يقتعدون الأرض، وبعضهم الآخر جالسين فوق الحشايا مستندين إلى الحائط. العم متربع فوق حشيّة رقيقة، منتصب بجذعه، مطبق الفم، يكظم غيظه ويغالب الهوان، وجهه تخضّب بالاحمرار. أولاده، أكبرهم في الأربعين من عمره وأصغرهم في منتصف عشرينياته، مطأطئون برؤوسهم أرضاً محتقنو الملامح، يهمهمون حانقين، مواجهتهم جلست بثينة. كانت قد

أنهت كلامها، وأطرقت برأسها، لم تكن مشتتة الخاطر، كانت مجروحة.

> **قال أبو سعيد، بدت مكسورة الجناح سألَتْ عن أخاها، ومُنعت عنه لئلا تتعلق بالحياة.**

مبعث ألمها، أن اغتصابها أذلَّ هؤلاء الرجال الأقوياء وأهانهم في صميم كرامتهم ورجولتهم. رفعت رأسها، في عينيها جسارة، تتصدى للجميع. التفتت نحو أبو سعيد قائلة:

«لا تُخْفِ عنهم أي شيء، قل لهم كل ما تعرفه».

كان يعرف الكثير، لكنه لم يضف شيئاً ذا بال، سوى أن الأميركان يظنون أن بثينة إرهابية ويريدون معالجتها كي تعود فتاة طبيعية.

«هل الأميركي الذي معك أحد الذين اختطفوها؟» تساءل العم.

صفن أبو سعيد، لم يشأ أن يكذب، قال بصوت متراخ:

«لقد اعترف بهذا».

عاد صوت العم الأجش مرتعشاً:

«تقول بثينة إنه ساعدها، لولاه ما وصلت إلينا، ما الذي نفعله به؟».

«ابنة أخيك وعدت بحمايته».

«هل اشترط الحماية؟».

«حسب علمي، لم يشترطها».

«سيلقى جزاءه، سواء اشترط أو لم يشترط».

رفعت بثينة رأسها وشملتهم بنظرة متحدية:

«لقد أعطيته الأمان».

«لا أمان لمن هتك عرضنا».

قالها العم وقد تحشرج صوته وكاد أن يختنق به، ثم التفت نحو أبو سعيد:

«ماذا تقول؟».

«لا تسألني».

ترك أبو سعيد الأمر لبثينة، إذا كانت ترغب في الانتقام من بيرنز، فقتله يمكن أن يحصل بقليل من التراخي، مادام العم يعفيها من التزامها نحوه، فلديها مبرر قوي، كانت مجبرة وغير مخيرة.

احتقن وجه بثينة، وسارعت قائلة:

«جئت إليك يا عمي لأضع مصيري لا مصيره بين يديك».

«اغسلي أولاً عارك بدم الأميركي. بعدها نقرر مصيرك».

«إذاً اغسلوا عاري بدمائي».

«والعار الذي لحقنا؟».

«اذبحوني أنا لا هو».

انتفض العم غاضباً، وخرج عن طوره:

«ليتهم قتلوكِ، كانوا ستروا فضيحتنا».

فهْمُ هذه التقاليد كان فوق طاقتي، وإن كان بوسعي أن أجد عذراً لبثينة لو أنها تواطأت على قتله، الثأر سبب

للكثير من الجرائم، شيء ما على غرار عصابات المافيا، إنه بشكل ما مبرر. بدا لي أن من الممكن تفسير ممانعتها بأن بيرنز حسب ظنها كان في حكم الميت، لن يعيش طويلاً، فلماذا تلوّث يديها بدمائه؟

لم يفهم أبو سعيد لماذا أرادت إنقاذه، كان شاهداً على حديثهم وجرى بواسطته، بيرنز لم يطلب وبثينة لم تتعهد. إذا كانت قد وعدته بالأمان، فهي نفسها غير آمنة الآن على حياتها. لم يضف كلمة، كان خائفاً أن يفلت زمام تعقلهم، فيقتلون بثينة مع بيرنز، ولم يكن مستبعداً أبداً.

حاول العم كبح مشاعره، فيما كان غضبه يتفاقم.

«انظري، أولاد عمك يعانون، لا يتجرأ واحد منهم على النظر إليك، أنت عارهم، أمرك يعنينا أكثر مما يعنيكِ، ما أهون ذبحه علينا إزاء تمريغ شرفنا في الوحل. قضى أبوك وأمك وإخوتك نحبهم تحت الأنقاض، دماؤهم لن تضيع، أولادي لن يتأخروا عن الثأر لهم. فلا تتقاعسي عما أطلبه منك، اقتليه كي نرفع رؤوسنا، اقتليه كي ترتاح نفوسنا. اقتليه، بلا شفقة. اقتليه، واستري عارك وعارنا. إياك والرحمة».

«سيعود سالماً كما وعدته».

«إن لم تقتليه، فسوف نقتله نحن».

توترت ملامح بثينة، صدرها يعلو ويهبط.

«لن تفعلها يا عمي».

قالت ولم تكمل، تجمدت الكلمات في حلقها.

اندفع صبي من الداخل، أجال بصره في الديوانية واندفع إلى بثينة، صرخت باسمه: محمد وفتحت ذراعيها له. لكنه لبث في مكانه، ولم يتقدم نحوها، وقف على مقربة منها وأدار بصره بين الموجودين يترقب. كان هو الآخر يتحداهم، بقيا لحظات طويلة على هذه الحالة، لا حركة، لا همسة، لا نأمة، لا نسمة هواء، مجرد سكون.

حاول أحدهم النهوض ليخرج به، لكن العم أوقفه. وإذ اطمأن الصبي، التفت إلى بثينة واندفع إلى أحضانها. وكان بكاء.

> **كان الصبي محتجزاً في الداخل بين نساء البيت، لكنه أفلت منهن، والأغلب أن النساء أنفسهن أخبرنه بوجود أخته وأطلقنه إليها، وزعمن فيما بعد أنهن لم يسيطرن عليه. قال أبو سعيد: كان الموقف محزناً، لا أنا ولا العم حبسنا دموعنا.**

بلغ البكاء حداً جعل العم يطرق برأسه أرضاً والدموع تسيل على خديه.

لم ينتبه أحد عندما تسلل ثلاثة من الإخوة إلى الخارج، إلا بعدما تعالى الضجيج، التفتت بثينة نحو النافذة، لم تلمح بيرنز، لكنها سمعت صوته، لم يكن يطلب النجدة، كان يصرخ ممسوساً من الألم. نهض الشبان من أماكنهم وهرعوا نحو الباب. أخذت بثينة بيد أخيها واندفعت ترى ما الذي جعله يصرخ، أوشكت أن تخرج قبلهم، صوتها يسبقها علّها تدركهم.

نهض العم، صرخ عالياً فتسمر الجميع كلٌّ في مكانه. تقدم بخطوات بطيئة وهو يرمق بثينة التي لجمتها نظراته عن الحركة.

وإذ خرج، تعالى اللغط، فهرعت نحو الباب ومعها أخوها، وفي إثرهم أبو سعيد.

ألقت بنظرها إلى الخارج، كانت الفسحة خالية، والشمس كنصل الخنجر، لكن أبعد قليلاً، كان المنظر من خلال الغبار والصراخ رهيباً.

28

الانتقـام

أولاد عمها الثلاثة يتراكضون ينهبون الأرض، الأول حمل فأساً بيده، وباليد الأخرى يشحط بيرنز من ياقته وراءه على الأرض، يجره نحو شجرة نخل قريبة، بينما أخوه تأبط حبلاً ثخيناً ولحق به. والثالث لاح من خلف السياج وقد استلّ ساطوراً.

بيرنز أغمي عليه من شدة الألم، ياقته تحز على رقبته وتخنقه، صدره يخرّ وأنفاسه تتقطع. أوقفوه عند جذع النخلة، الأول أسند ظهره إليها، والثاني أخذ يلف الحبل حول صدره وخصره وقدميه، يشده بفظاظة، ويعقده بقوة.

بينما الباقون الذين تبعثروا في أرجاء المكان، التأم شملهم خلال لحظات، وكل منهم يحمل شيئاً بيده، أنبوب معدني، بندقية صيد، معول، منجل... اندفعوا نحوه، داسوا في الأحواض على خمائل الورود قصفوا أعوادها وسحقوها بأقدامهم، أصواتهم تهدر

مبحوحة، يتنادون للإجهاز عليه ركلاً ودعساً بالأقدام.

رفع بيرنز رأسه، لم يتوسل منهم العفو ولا الشفقة، أمارات الذهول بادية على ملامحه. أغمض عينيه على الطيور والغربان التي انتفضت هاربة من بين أغصان الأشجار، والأسلحة الهاجمة عليه والشرر المتطاير من العيون. بينما فوهة بندقية الصيد ألصقت بصدغه.

كان في انتظار الطلقة التي ستفجر دماغه.

دفعت بثينة أخاها محمد إلى أبي سعيد، واخترقت تجمع أولاد عمها الثمانية، وقفت مواجهتهم. أرادت أن تقول شيئاً، أحست بالدوار، الأرض تميد تحت أقدامها، لسانها جفّ في حلقها. رأت ابن عمها يده على الزناد ونظراته إلى أبيه، ينتظر الإشارة منه.

العم يراقب المنظر، تعلقت عيون أولاده به، تمالكت بثينة أعصابها، ورجته بعيون هلعة، صرخت متوسلة وهي تكاد أن تنفجر بالبكاء:

«لا، يا عمي».

تردد العم طويلاً، لم يخذلها، رفع يده وأوقف الهرج والمرج... والقتل.

وقف شامخاً ومتحيراً، كانوا مثله متحيرين، ينتظرون منه كلمة أخرى، تستعيد اندفاع الموت بعد تلكئه. وكان على وشك قولها، أدركته بثينة:

«يا عمي، قل كلمة غيرها».

علا صوت محمود ابن عمها الأكبر، قائلاً لأبيه:

«فلنسألها، ربما غيرت رأيها، وشفت غليلها منه».

قال العم:

«دعوه لابنة عمكم، لقد آذاها وهي حبيسة».

ناولها ابن عمها البندقية، أمسكت بها ورمتها أرضاً وتراجعت إلى الخلف.

كانت بحركتها هذه قد أحبطته، آلمته، وقطّعت قلبه.

قال عمها بصوت متهدج:

«قولي شيئاً».

ردّها صوته إلى رشدها:

«هذا الأميركي لم يمسني بأذى، فبأي ذنب تقتلونه، هل لأنه ساعدني؟».

صرخ ابن عمها محمود:

«تكذبين».

أسكته أبوه، بينما تسمر الآخرون في أماكنهم. تابعت قائلة:

«لا تدعوه يصبح عاركم».

«فليدافع عن نفسه».

بيرنز لم يفهم، بقي صامتاً. سارعت بثينة تقول:

«الأميركي لا يرغب في العيش، افهموا هذا، لا يهمه أن تقتلوه، بل يريد، لا تحققوا له رغبته، دمه في أعناقكم».

الجميع يصغون إليها، أيديهم يبست على ما يحملونه من أسلحة وعصي. والعم يفكر. تلمّح أبو سعيد ما يجري، تقدم قائلاً:

«كنت شاهداً على هذا الجندي، منذ تعرفت إليه لم يكف عن طلب الموت».

«يريد الانتحار» أردفت بثينة.

وكأنها ألقت إليهم بأحجية إضافية، استحثها العم:

«لا تقولي لنا إنه انتحاري».

أومأ أبو سعيد برأسه، ونبههم:

«لا تتبرعوا بقتله».

توهجت فكرة في ذهنه، كانت غامضة، وأصبحت أقل غموضاً.

لا أدري إذا كان ما خطر لأبي سعيد، ولم يخفه عني، كان تساؤلاً فقط: هل كانت بثينة تريد الانتقام من بيرنز بعدم قتله؟! رغبت في إبقائه حياً ومعاقبته بعذاب مستمر إلى مدى غير منظور، ربما طوال حياته. هل كانت تدرك هذا؟!

بثينة أحبطت الجمع.

«صدقني، كان الوحيد الذي لم يمسّني، بل وأنقذني من الموت، لا تكافئه بقتله».

أصرت على الاستنجاد بعمها. حدق إليها، ولم يحر بكلمة، أدار وجهه عنها، من حوله تتعالى الأصوات مستنكرة، والعيون معلقة عليه. تحامل على نفسه، ترك الجميع، ابتعد عنهم ببطء، وأطلق بصره في الأفق.

هبط السكون مرة واحدة. الشمس صفراء، الأرض ملونة كما المهرجان بالأبيض والأزرق والأخضر والأحمر. وبمرمى البصر، عند الجدول صبية صغار يلعبون بالماء، تحجبهم بين الفينة والفينة أعواد القصب الأخضر. وتحت ظل شجرة برتقال تمدد فلاح شيخ وإلى جواره كيس. ومن بعيد لاحت في الأفق الحقول جرداء والضفاف جرداء والأرض ملتهبة، لا يسمع سوى صوت نباح الكلاب، كانت عيونهم تلمع في عز الظهيرة.

التفت فجأة، وقد اتخذ قراره، وخاطب أبناءه:

«فكوا وثاقه وأطلقوا سراحه».

لم يُسمع سوى صوت الحبل، عقدته تُفك، ثم يرتخي ويرتمي عند جذع الشجرة. نظر بيرنز إلى بثينة بخنوع، آسفاً وحانقاً، كان على شفا الموت، انتزعته منه، وبات على شفا الحياة. همس قانطاً لأبي سعيد:

«لم يكن هذا اتفاقنا».

«لم نتفق على شيء».

استرد المنظر أبعاده، الطيور المعشعشة في أعالي النخلة، بدأت تعود مثنى وفرادى، العصافير تتقافز بين أغصان الأشجار، الأوراق العريضة لنبات الخروع تتمايل، بقرة تخور، بينما الشمس الصفراء تنحدر من سماء كانت صفراء كلها.

هرعت بثينة إلى عمها وقبّلت يديه، اتكأ على ذراعها وتقدم نحو الشرفة، قال لها، إنه لم يتصور أنها ستدافع عن الأميركي. ونصحها بالقيام بعملية استشهادية، يعرف أناساً لديهم القدرة على

تأمين وصولها إلى القاعدة، وضمان قبولهم بها.

«لا ترددي، حياتك ليست صعبة، بل مستحيلة. أعلم ما لا تعلمين، ليس بمقدورك تحمّل ما وقع عليك».

ووعدها، بأن يكون أخوها، تحت رعايته أغلى من أعز أبنائه.

«ولن نتوانى عن أداء واجبنا نحو أبيك وأمك وإخوتك، دمهم لن يضيع هدراً».

لم تبد بثينة حماسة، قالت إنها ستفكر.

كان لديها مهلة معقولة للتفكير، بعد أن نصح العم المترجم أبا سعيد بعدم العودة إلى بغداد الليلة، وتأجيل رحيلهم إلى صباح غد. الطريق غير سالك في هذا الوقت، لا أمان من دوريات المداهمة الأميركية وغارات المقاومين. أخفوا السيارة بين الأحراش. وبات أبو سعيد مع بيرنز في المنزل، أفردوا لهما غرفة في نزل خلفي، كان يستعمل للضيوف.

قضت بثينة أمسيتها مع النسوة في الداخل. قبل النوم أرسلت خبراً مع أخيها إلى أبي سعيد لينتظرها قليلاً.

اعتقد أنها ستبقى في بعقوبة، ولن تعود معهم إلى المنطقة الخضراء.

ربما كانت تريد توديعه.

29

مأساة مع الله

لا، ليس توديعه.

كان جالساً على الدرج أمام النزل الخلفي، إلى جوار خميلة من الورود والأزهار، صوت الماء يتسرب من منفذ ما، نبات اللبلاب يتسلق السور المنخفض والجدار الجانبي، ضوء الفانوس الضعيف المنبعث من النزل، يحيل المرئيات الغائمة إلى لون كامد. شذا الحقول يكسر حدة الليل بعبير حار. بينما بيرنز نائم في الداخل.

أبو سعيد كذب عليّ.

بيرنز لم يكن نائماً، كان جالساً مجتمعاً مع أبناء عم بثينة.

رآها آتية من العتمة، متوجهة نحوه، لم يعد الليل الساجي البعيد شديد الظلمة، بات أقل ظلاماً، بعث فيه ظهورها رعشة من

البهجة والارتياح؛ العاصفة مرت على خير، دون أن تخلف وراءها جثة ولا دماء. رافق اقترابها هبّات رقيقة من هواء فاتر، فبدا وجهها مثل البدر، جميلاً وفي منتهى الوداعة.

تعجب، كأنه يراها بمنظار مختلف، كأنها أخرى بلا آلام ولا أوجاع. هادئة، مطمئنة، طفلة بريئة، قد تتأثر من منظر قطة جائعة أو عصفور ميت. بعد قليل، ربما بكت من روعة هذا المنظر المبطن بعتمة خفيفة والذي تتهادى فيه الظلال بخفة ويسر، وإذا كانت محظوظة، فسوف تسري بضعة أشباح أليفة بين الأشجار، تنعكس خيالاتها على صفحة الماء قبل أن تتبدد في الأثير.

أراد أن يقول لها شيئاً يُشعرها أنها غير ملتزمة تجاهه، ولا أن تجد حرجاً في الاعتذار عن العودة معه، بالعكس سيشجعها على الاستنكاف عن عمليتها الاستشهادية، ويعضدها، سيقول لها، ضمي أخاك بين ذراعيك وتلاشي بين هذه الظلال الحانية... وقد تجد في نفسها الجرأة، فتمضي مثل النسيم إلى حيث لا عار ولا شماتة، لا جنود احتلال، ولا أولاد عم، لا مقاومة وسيارات مفخخة ولا استشهاديون... لقد دفعت ضريبتها للجميع.

يا ربِ أين مثل هذا المكان؟!

هي أيضاً لن تصمت، وتتساءل، سؤالها لن توجهه إلى الرب، وإن كان عنه وبصوت مسموع:

«أين يوجد الله؟».

وأدارت بصرها في الفضاء.

«في كل مكان».

«في المكان الذي اعتقلوني فيه، لم يكن هناك».

وأكملت دورتها حول نفسها، وهي تدير بصرها عالياً.

«الله هنا يملأ الأرض والسماء... لماذا؟».

كانت تريد إجابات عما حيرها، ولم تكن لديه.

«هل من أجل ما لاقيتِه من عذاب؟».

يعرف أن إيمانها لم يهتز، لكن النساء لا يتخلين عن المعاتبة، فلتعاتب الله.

«لماذا لم يتدخل؟».

كيف يقنعها أنه من الصعب إدراك مآرب الله.

«لقد امتحنك».

«الامتحان كان أكبر من طاقتي على تحمله، لقد كفرت به».

«سيسامحك».

«لم يفتر لساني عن الاستغاثة به. لم ينجدنا... أم أنه غير موجود؟ اصدقني القول، هل أنا أتخيل وجوده؟».

لا، لم يهتز إيمانها، بل تهاوى!! كان عذابها عذابه، وحيرتها حيرته، وكفرها كفره. إزاء سؤالها هذا لا يحق له أن يؤمن.

«لا أدري».

وكان متأكداً أنه لا يدري. نعم، أين كان الله؟ ليته ينكر وجوده، ليعفيه من الاتهام وسوء الظن، فتيات ثلاث استجرن به، ولم يمد يد العون إليهن. مجرد لفتة صغيرة رحيمة لن تكلفه شيئاً؛ كان أنقذهن.

لماذا يفكر بهذه السذاجة؟!

«كنا نبكي، لا نتوقف عن البكاء، وقلوبنا تنزف. هل تعرف كيف تجلت قدرة الله؟ كان يزودنا بالدموع، لم تكفّ عيوننا عن السيلان، هذه كانت قدرته، كأننا نمتح دموعنا من بئر لا تنضب، ودائماً هناك المزيد، تلك كانت معجزته: الدموع!! ولم تؤثر فيهم، كلما بكينا حرضناهم على تعذيبنا أكثر. بكينا حتى عمينا من كثرة البكاء. لا، لم يستجب لنا».

«مأساتك مع الأميركان».

«بل مع الله».

«لا تبرئيهم من جريمتهم».

«هؤلاء لا يؤمنون بالله، أنا أؤمن به».

«الله خلق العالم وتركه وديعة بين أيدي البشر».

«إذا كان الله لا يسمع، فلا عجب أن يتصامم بيرنز».

هذا كان صك براءة بيرنز.

مأساتها؛ أن الله قد يكون موجوداً، أو لا يكون.

إذا كان موجوداً فسوف يعينها على تحمل عارها، وإذا لم يكن، فلن تحتمله. كان وراء كل احتمال طريقة للموت مختلفة، وإن كانت واحدة.

لم تطلب بثينة مهلة للتفكير، إلا لأنها كانت مخيرة بين الموت والموت!!

الموت استشهاداً، أو الموت انتحاراً.

أحس بالخشية عليها، أن تخسر إيمانها، هذا الذي يجعلها تتحامل على آلامها، وتطيق أوجاعها، ويشد من عزيمتها، ويبقيها حية، ويدفعها إلى العيش. أراد أن يقول لها: الحياة لا تحتمل في عالم بلا إله. إذا فقدتِ الله، فمن سيحميك من اليأس؟

من الإجحاف ألا يكون الله موجوداً.

لا بد أن يقول شيئاً آخر يساعدها على التفكير، ماذا يكون، وعلى ماذا يبرهن، يدرك أمراً واحداً: ينبغي إنقاذها ليس من الكفر، فيوماً ما ستجد الله، بل إنقاذها من أفكارها السوداء، وكانت أشد سواداً من هذا الليل المدلهمّ الذي غاب عنه فجأة الضوء الخفيف، وهجره النور الخافت، وحلّ ظلام، ظلام ما بعده ظلام.

«في هذا العالم شر هائل». هتفت بصوت مزّق الليل.

استجار بالله، كي يساعده.

من حوله تتكاثف العتمة، والهواء راكد، النسائم تتماوت، والكلاب تنبح، يبحث عن شيء يبدد خوفه وشكوكه، لا يرى سوى حشائش الأرض؛ أزهار وردية وبقول برية، تراب وحصى، وهذه النخلة التي يستظل تحتها. وكأن العالم بقضّه وقضيضه، هو هذا، شيء عارض ألقي كيفما اتفق، وقد يمّحي في لحظة، ومعه هذا العيش الهباء.

كان الشر ينقضّ عليه بصورة أفكار عابثة.

المخبأ الذي ظنه أميناً، لا يحميه حتى من نفسه.

«الشر كامن في نفوسنا».

قال، وحاول أن يفسر لها هذا العالم كما يراه:

خلق الله العالم غير كامل، عالم تنقصه العدالة، على أن يعمل البشر على تحقيقها ليكونوا جديرين بنعمته وعبادته، إذا لم يعرفوا العدالة في قلوبهم وأعمالهم، فبئس إيمانهم، لا سعادة على أنقاض تعاسات الآخرين.

الآن، لا يدري ما إذا كان يلفق، أو يخترع، أو يختلق. وحتى عندما ارتد يراجع في ذهنه ما قاله، تساءل: ما الذي كنت أقوله؟ ماذا لو لم يكن صحيحاً؟ ماذا لو أنه أكذوبة، أو كلام في كلام يجهل معناه.

كانت تستمع إليه، أو تصغي إلى حفيف أوراق الشجر، وخشخشتها وهي تنسحب على أديم الأرض، تتشمم الأريج الفائح من خميلة الورود ولا تلقي إليه نظراً ولا سمعاً.

أحس بالإحباط، ليس لديه حجة حتى تجاه نفسه. قال لها وهو يكاد أن يبكي:

«هذا العالم خلقه الله وليس البشر».

كي يبعد عنه النقصان والتشوه.

وخلق الليل والنهار، الأشجار والورود، الكواكب والنجوم، والقمر الغائب عن السماء... الأنذال والقتلة والأوغاد...

كانت منصرفة عنه بكليتها إلى هذا السواد.

لم تقرر شيئاً، لكن في الصباح، ستقول له إنها ستعود معه يرافقها أخوها وتسلم نفسها إلى الأميركان. لن تنفصل عن أخيها محمد بعد اليوم.

حاول أن يثنيها عن قرارها؛ الأميركان لن يقبلوا بجمع شملكما معاً. رجاها:

«على الأقل، دعيه في بعقوبة».

لكن من دون جدوى.

وكان العم في وداعهم.

أخذ العم بيدها وتمشيا بالجوار، كرر عرضه على ابنة أخيه، آملاً أن تتراجع عن قرارها.

كانت قد حزمت أمرها.

لم يستطع أن يفهم خيارها، سألها:

«ممّ تخافين أكثر، الموت أم العار؟»

«لا أخاف الموت، ولا يضيرني العار».

كان لديها ما تفعله.

لم يستوضحها، كما لم يرد أن يضغط عليها.

قال: لن نجبرك على شيء، كنت ميتة وستبقين ميتة.

توجهت مع أخيها إلى السيارة، تابعها صوته:

«كان الله في عونك، مصيرك ومصير هذا الصبي بين يديك».

عانت بثينة طوال ليلة كاملة من خيار مصيري حقيقي، ومثلما واجهت الحياة واجهت الموت. ولقد خافت، فأحجمت عن الموت واختارت الحياة. هذا كان تخميني.

أبو سعيد فسر خيارها على نحو مختلف، غير واقعي،

ولهذا كان التعبير عنه منمقاً، وكأنه يترجم نصاً أدبياً، فلم يفسر شيئاً. قال لي:

ليتك كنت مكاني في ذلك الصباح، القلق يعتصرنا، بينما الرائحة الندية للتراب المبلل بالندى، تهبّ من البيادر النائمة والأراضي المحصودة، وتنتشر فواحة وآسرة على سطح الماء، تتمايل مع رقرقة الجدول المتلوي تحت الشمس، والجانح إلى الاختفاء في السراب، وهو يشق مجراه بثبات بين الحقول.

في تلك اللحظة، رأيت ألقاً اندلع في عينيها، تواقت مع انسياب سرب من الطيور ناصعة البياض بين سعف النخيل المتهدلة، منحها النور والحقيقة والبشارة معاً. آنئذ من لا يجد الحياة عظيمة؟

وأكمل قائلاً، وكان ينقض ما قاله: ما رأيته، ربما لم يحدث إلا في خيالي. كانت أمامي ممسكة بيد أخيها وهي تتأمله مبتسمة.

احتل بيرنز مكانه خلف المقود، جلس إلى جانبه أبو سعيد، وبثينة وأخوها محمد في المقعد الخلفي. واتخذوا طريقهم صوب بغداد.

ادعى أبو سعيد أنه قبل الوصول إلى مشارف بغداد، أوقفتهم ثلة من الملثمين، انتزعت منهم بثينة وأخاها، لم يقاوموا، المسدس الذي يحمله بيرنز لا يفيد في الاشتباك مع الأسلحة المصوبة إلى رأسيهما، لو حاول إشهاره، لا محالة سيؤدي إلى إعدامهم فوراً، ما منع قتلهم أن بثينة رجت الملثمين تركهما يرحلان.

طبعاً أنا لم أصدق أبو سعيد، ولن أصدق بيرنز لو تكلم، كان متواطئاً معهم. حكاية الملثمين لا أساس لها من الصحة. بثينة لم تُنتزع منهم، بل غادرت السيارة بكل هدوء واطمئنان، ومعها أخوها، بعد أن اتفقوا على القصة التي ستساق لنا. وإذا كان أبو سعيد يعرف المكان الذي ذهبت إليه، فلن يبوح به.

عند أطراف بغداد، توقفت السيارة وجرى حديث طويل بينهم انتهى بمغادرة بثينة وأخيها عربة الهامفي.

حصل اتفاق بين ثلاثتهم، علمت به من بيرنز في إحدى نوبات تخبطه في البكاء والكلام قبل ترحيله. كان هذا أثناء علاج عاندني خلاله، ولم أكن أنا جاداً فيه.

أبو سعيد جهد طوال الطريق في إقناعها بعدم تسليم نفسها إلى الأميركان. رفضت الفكرة، عدم عودتها معه، لن يمر بسلام، سيذهب به إلى المحاكمة.

«إن كنت لا تخشى على نفسك منهم، ألا تخشى على أولادك أن يصيبهم مكروه؟».

محاولاته أفلحت، لكنه لم يتحمل مسؤولية هربها من دون مقابل. كانت قد قدمت له منحة وصفها بأنها لا تقدّر بثمن.

أراد أبو سعيد التكفير عن تعامله معنا. بل ورأى في المحاكمة والموت مقابلاً معقولاً لقاء التخلص من شعوره المثقل بالذنب. أما أولاده، فسوف يجد حلاً يجنبهم الأذى.

لم يبح لي بيرنز بهذا الاتفاق، إلا لأنه أراد أن يشكو لي ما أصابه من تمييز، لم يكن عادلاً: «بثينة ساعدت أبو سعيد على التكفير عن ذنبه، ولم تغفر لي».

ودّعها أبو سعيد، ولم تودع بيرنز الذي حوّل بصره عنها، وأدار المقود نحو الاتجاه المؤدي إلى المنطقة الخضراء، وانطلق بسرعة كبيرة.

30

سبب إضافي للحياة

ما سمعه كيلي من أبي سعيد، كان حكاية صادمةً انتهت مؤقتاً، أقرب إلى التلفيق منه إلى التحقيق. على الأخص، عودة بيرنز إلى الحياة بعدما كان على وشك الموت. وما صدمه أكثر، أكاذيب أبي سعيد، بثينة لم ينتزعها منه الملثمون، بل أفسح لها المجال كي تهرب، أو حرضها على الفرار، وربما تركها تمضي ببساطة. فكيف يصدقه ويأخذ بما قاله عن تكبده عناء الرحلة إلى بعقوبة لينقذ بيرنز، أو ليخفف من غلواء بثينة، ومع هذا كان وجوده إلى جانبهم عامل تهدئة.

ما أدهشه أنه لم يخلف لديه أية رغبة في الاستفسار، مع أنه كان راغباً في معرفة المزيد عن بثينة. لكنه لن يصل إلى مبتغاه. إذا كان أبو سعيد غامر بإطلاق سراحها، وهو يدرك عواقب ما فعله، فمن المستحيل أن يفكر بتسليمها لسلطة الاحتلال.

أمضى أبو سعيد يومه الأول من التحقيق يذرع غرفة العيادة جيئة وذهاباً، وعندما يدركه التعب يجلس إلى جوار النافذة ويلقي بنظراته إلى الخارج. وكلما حان وقت الصلاة ينصرف إلى ربه، ويطيل الصلاة. لم يكن مستعجلاً على شيء، تاركاً أمره لتحقيق كان يمضي بطيئاً ومتقطعاً ومملاً.

فكر كيلي، لن يجبره على شيء، كل ما بوسعه أن يفعله هو تعريضه لبعض الضغوط النفسية، لكنه لن يُقدم عليها، لدى رجال المخابرات وسائل أقوى وأجدى.

بعد ثلاثة أيام، رفع تقريره إلى أدامز، على أمل جواب فوري بإحالة أبي سعيد إلى السجن، أو إلى محقق آخر لاستكمال تحقيق غير منطقي، أو لمتابعة سرد حكاية مشوشة. لكن لا جواب. خمّن أنهم يعدون الاتهامات التي ستوجه إلى المترجم.

لكنه سيُبلغ بواسطة أدامز أن توقيف أبي سعيد في العيادة عبارة عن حجز احترازي، ريثما يُقرر مصيره. ولا داعي للتشديد عليه، ستؤخذ بالحسبان ولصالحه بعض الظروف المخففة، وهكذا تساهلوا معه، وسمحوا له بإجراء بعض الاتصالات الضرورية على أن تكون مراقبة. فاتصل أبو سعيد وأخبر أولاده أنه سيضطر إلى التأخر بضعة أيام أخرى في عمله.

أدامز من طرفه، لم يثر موضوع بثينة، مع أنه كان من المفترض أن يتحرك في هذا الاتجاه ويعطي أمراً بالبحث عنها والقبض عليها. ما أثاره أمر آخر تماماً، وكأنه حلقة تستحق أن تكون مفقودة، فسرها بأنها نقطة الضعف الوحيدة التي اعتورت القصة كلها، كيف أن أبا سعيد الشيعي تواطأ مع بثينة السنية؟!

سؤال بقي معلقاً.

لم تكن لدي فرصة للخروج من القضية نظيفاً من دون شبهات، كان أشد ما واجهني أن مريضتي اختفت في ظروف لم تعد غامضة، ولابد من جعلها غامضة، لكي أنجو من نتائجها الوخيمة ولو كانت نافلة. أعرف مهما كانت المحاسبة شديدة، لن ينالني سوى اتهام بالإهمال، إلا إذا شاءوا أن يجعلوا منها قضية كبيرة، ولم تكن ضمن نواياهم.

الأمر الوحيد الذي شكل إدانة لكيلي، عدم قيامه بواجباته كطبيب، تبدى في إخفاقه مرتين، الأول لم يحقق علاج بثينة أي تقدم، والثاني حفّزها على الفرار لا على الشفاء. توقع أن سؤالهم القادم لن يكون سوى: بثينة الآن، ما الذي هي في سبيله؟ ولكي يكون مستعداً لهم، عليه استدراج أبي سعيد لمعرفة الجواب. لن يطمئن فعلاً، إلا إذا تأكد أنها لن تقوم بتنفيذ عملية انتحارية، مع أنه كان من الواقعية الاعتقاد أنها ستفجر نفسها.

لم يسأله، كان الجواب معروفاً.

مادامت ضاعت في الزحام، فلن تنفذ عمليتها إلا في الزحام.

بيد أن ذلك الأشبه بالتحقيق أُغلق، وإن تجدد بعد أسبوع، عندما علم أن مقر الفرقة ١٢ في سامراء شهد هجوماً أوقع بعض الخسائر في الأرواح والمعدات؛ المهاجمون قدموا من بعقوبة، حسبما أشارت التسريبات المخابراتية. وكان الخبر المثير للقلق، هو مقتل ماغواير في كمين أعده المهاجمون ببراعة، وكأنهم يعرفون خط سير الدورية.

الخائن بيرنز باح لهم بخطط ماغواير وأساليبه في مطاردة الإرهابيين.

كان كيلي قبل يومين قد طلب من أدامز استدعاء ماغواير من الفرقة للتحقيق معه، ورفض أدامز بحجة أنه لا يريد لهذه القضية أن تتشعب.

دار جدل حاد بين كيلي وأبي سعيد.

كيلي اتهم أبا سعيد بإخفاء معلومات حول بيرنز الذي باح لأبناء عم بثينة بأساليب مداهمات ماغواير وتحركاته أدت إلى مقتله.

«كنت أنت المترجم بينهما!!».

«اسأل بيرنز» كان جواب أبي سعيد.

لم يسأل بيرنز.

بعد حادثة سامراء، كان تعليق أدامز على مقتل ماغواير:

«يبدو أن القضية انتهت».

كان كيلي واثقاً أنها لم تنته، ستعقب هذه الهجمات عملية انتحارية بطلتها بثينة.

أصر أبو سعيد: بثينة لن تنتحر.

ولقد أحسست بالغضب، إذا كان واثقاً فهو مخدوع.

ألم يقل لي أكثر من مرة: لا مأوى لبثينة في بغداد، ولا في العراق كله.

ذكّرته بما قال، وأردفت: ولا مستقبل لها أيضاً في أي عالم سوى العالم الآخر. ستضرب ضربتها خلال أيام

معدودات، لكن بعد أن تنجز تدريبها على استخدام الحزام الناسف، ويحددوا لها الهدف.

الانتحار خيار بثينة الوحيد.

وكان السؤال الذي طرحته على أبي سعيد يتلاءم مع تلك المهمة المقدسة:

«ألم تنذر نفسها للموت؟».

لكن أبا سعيد كان متأكداً من إصرارها على الحياة.

قال، هذه الفتاة لن تخطئ الصواب.

كان هذا رهاناً بيننا.

لم تربط كيلي بأبي سعيد هذه القصة التي جمعت بينهما ثانية، بل والمكان أيضاً؛ غرفة العيادة الكئيبة الخاوية إلا من الأريكة والطاولة والخزانة الحديدية والكراسي. باتت بالنسبة إليه كابوساً. كان مضطراً بحكم الأوامر إلى ملازمته. ولقد تخيل أحياناً أنهما يتشاركان زنزانة واحدة، وتهمة واحدة، وقيد الاعتقال مثله، ومع هذا لم يتشاءم، لن يعدم جانباً إيجابياً إذا ساءت أموره، ستفيده هذه الرفقة الإجبارية، كمرحلة يتأقلم خلالها على اعتقال مؤقت وربما سجن مرتقب، وقبله الاستعداد لتحقيق شبيه بهذا، لن يفضي إلى نتيجة.

المثير أنها عقدت الأواصر الحميمة بينهما.

تابعا خلالها توقعاتهما حول مصير بثينة، كأمر يهمهما بمعزل عن التحقيق.

قال أبو سعيد: لديها سبب قوي للحياة، لا يسمح لها بالموت.

كان رأيه أنها لن تدع أخاها لأحد، ستعيش من أجله.

رأيه بدا لكيلي ضعيفاً إزاء ما كانت جادة في تحقيقه، أخوها لن يمنعها عن الانتقام.

«لا تنس أن لديها أسباباً قوية للموت، بثينة تعيش في عالم يقدم لها مسوغات للموت تشق على الحصر، دواعي الحياة معدومة».

أبو سعيد تذكر كلماتها وهي تودعه:

«لن أستعيد نفسي بالموت».

كانت وقد امتلكت حياتها، لن تتصرف بها على نحو تفقدها، لاسيما أنها باتت لا تعنيها وحدها.

لكن ما أخفاه عني، هو أنه قدم لها سبباً إضافياً للحياة.

مشكلة كيلي العاجلة كانت مع أدامز. كالمعتاد لن يوفره، سوف يلقنه درساً وداعياً قبل أن يطيح به وبمستقبله، كان قد لمّح له إلى أن طرده من الجيش بات وشيكاً، لاسيما أنه لم يكن عسيراً عليه أن يجد أكثر من ثغرة في قصة كانت مثيرة للريبة فعلاً. وهذا ما شجع أدامز بداية على محاضرة موسعة، برهن فيها وبكل مهارة، أن العراقيين غرروا بالطبيب، الذي لم يفلح في المهمة المسندة إليه، والسبب عدم تقيده بالأوامر، بالأحرى لم يستمع لنصائحه، بالإضافة إلى غفلته.

اللازمة المعهودة نفسها.

كان لا مفر من تحمل أدامز المغرور. تعليقاته الجارحة لم تتعد السخرية اللئيمة، وكانت على غير توقع الثمن الضئيل على تسامحه مع أخطاء كيلي الجسيمة.

على عكس ما خمنته وما قاله، كان أدامز رفيقاً بي، ساعدني على الخروج من ورطتي، هذا ما فاجأني وحيرني.

أثبت أدامز أنه مخطط ممتاز، واستبق كل ما يمكن أن يحدث، بخطة تكفل تغطية اختفاء بثينة، ريثما تظهر فيما بعد معتقلة، أو متلاشية إلى دخان في فضاء ما. اعتبر أنها ما زالت معتقلة تحت العلاج، أرسل إلى الكولونيل جاكمان، طبعاً بالاتفاق معه، إشعاراً بأن الجلسات لم تنفع معها وارتأى تسليمها إلى العراقيين، وكان جواب الكولونيل: لا مانع، سلموها لهم. لكن لم تكن هناك فتاة ولا جثة ليرسلها إليهم.

أدامز انتظر يومين لا أكثر، مترقباً رد فعل الأجهزة الأخرى.

كانت أياماً عصيبة على كيلي، ما خفف عنه، أنه لم يصلهم من البنتاغون ولا من الخبير الأمني استفسار حول أسباب عدم جدوى علاج الفتاة الإرهابية، كانوا قد فقدوا اهتمامهم بها، أو أنهم لا يريدون الخوض في مشروعاتهم الفاشلة.

الخطوة التالية، أرسل إلى الشرطة العراقية إشعاراً بأن الفتاة المشتبه فيها، والتي كان العمل جارياً على تسليمها إليهم اختفت، وطلب منهم تعميم مواصفاتها على الحواجز ودوريات التفتيش، والعمل على العثور عليها حية أو ميتة. أجابوه أن لديهم الكثير من المشتبه فيهن، أسماؤهن حقيقية أو مستعارة، ربما كانت إحداهن، لكنهم لم يجزموا. وطلبوا مبعوثاً ليتأكد بنفسه من الموقوفات. قرر أدامز المجازفة بالذهاب ليختار واحدة منهن، وحدد مواصفاتها: فتاة صدر عليها حكم بالإعدام، وموعد التنفيذ خلال أيام قليلة،

وهكذا تختفي آثارها.

لكنه ألغى الفكرة، بعد إقدام فتاة على عملية انتحارية في بغداد، لم يتخلف عنها ما يكشف عن هويتها، فأعلن أدامز أنها الفتاة المختفية، وأغلق بذلك ملفها، نجحت فكرته، واختفت بثينة حتى من السجلات.

> **قلت له، لكننا غير متأكدين ما إذا كانت بثينة أم لا؟**
> **قال، إذا كانت بثينة، فقد ماتت، وإذا لم تكن فهي في سبيلها إلى الموت.**
> **المحنك أدامز كان على مستوى المسؤولية تماماً.**

ولقد بدت مماطلة القيادة مدروسة بشأن أبي سعيد، كانوا يعملون على لفلفة قصة شائكة، بغسل أيديهم منها. كانت قائمة المغفلين الذين اقترحوا معالجة بثينة تطال الكثيرين، وقد تؤذيهم فيما لو أوذي أبو سعيد. إذاً، لا تعليمات مستعجلة بشأنه، ولا محاكمة، كان تأخير قرارهم بخصوصه، توطئة لإطلاق سراحه.

31

لدي الكثير من الدموع

... تحسنت حالة بيرنز قليلاً.

وإن كانت عملية خروجه من حالته تزداد تعثراً. رفض أن يتكلم. كيلي لم يشفق عليه، قال له في أول لقاء معه:

«لقد قتلوا ماغواير، هل يخفف هذا عنك؟».

كان قد أعاد إلى ذاكرته كل ما أراد نسيانه، بينما كان مشوار معالجته يحتاج إلى ثلاث خطوات، الأولى تفريغ ما اختزنه من أفعال يخشى الإتيان على ذكرها، وإذا باح بها، فبشرط أن يرويها واعياً أنه يتحدث عن شيء مضى. والثانية، لكي تصل المعالجة إلى مبتغاها، عليه القبول بما حدث. والثالثة، الاقتناع بعدم السماح لهذا الماضي بالعودة.

كان كيلي قد حرض في داخل بيرنز كل ما لا ينبغي أن يتذكره،

فاستعاد جريمته كأنها حدثت الآن.

بات الطريق إلى شفائه أطول مما هو مقدر، ربما بعد عدة جلسات، يتمكن من المباشرة بخطوة ما، لكن ليس قبل أن تحرره الحرب القذرة نفسها من الإثم المرتبط بهذا العذاب. كان عليه، كي ينجح العلاج، أن يقنعه أنه غير مسؤول عما ارتكبه.

عندئذ، هل كانت جريمتي تقل عن جريمته؟!

عندما تكلم، كان في أشد حالات الإحباط، بل وعلى أهبة الاستعداد لمحاولة انتحار أخرى. لم يستطع التغلب على الشعور بالذنب. العلاج الذي اختاره لنفسه وجهد في تحقيقه، أخفق. مع أن بثينة وفت بوعدها له وغفرت له، لكنها كما أحس لم تكن جادة، سامحته بداعي الشفقة، فلم يسامح نفسه.

بثينة لم ترد قتله، بل أنقذته، وسواء كانت تدري أو لا تدري، تركته لعذاب أعظم، عذاب لا طاقة له به. هذا ما جعله يصر على أن لا شفاء لحالته إلا بالموت. وافقتُه، لكنني لم أوافقه في سري، ليس من السهل توفير الموت إلا بمصادفة دراماتيكية، لم أكن راغباً ولا مهيأً لافتعالها.

العراق ساحة مولدة للأمراض بأنواعها، ما يجري على بعد أمتار أو مئات الكيلومترات، يحرض على الحصر، لا الانفراج. وما دام بيرنز يرفض الواقع، فطاقته منصبّة على توظيف كل شيء لحساب نزواته القاتلة.

الحل الوحيد هو العمل على إعادته إلى أميركا، لئلا يشغلنا بمحاولات انتحارية، لن يكف عنها، وتفشل

دائماً. ما يطمح له لا حظوظ له في النجاح، إلا في حال إعادته إلى سامراء، وقد ينجح إذا توافر له من يقتله ويريحه من هذا العذاب. لم يهمّني تعريض نفسه للقتل، مادام سيموت بعيداً عني في ظروف طبيعية تحت القصف أو ما شابه، لكنه سيُعرّض غيره للخطر، لذا كان ترحيله سريعاً من العراق أفضل علاج له، ولو كان فيه حرمانه من أمل بدا له متاحاً. هناك في الوطن يصبح رمزاً للحاجة إلى العقاب من دون عقاب، أميركا لا تعاقب جنودها. سيبقى على قيد حياة. لن تدعه يكفر عن جريمته.

كانت الحركة النهائية، قبل إسدال الستار، عندما ابلغ أدامز الطبيب بالتعليمات الواردة بشأن المترجم: لن يتعرض للمحاكمة، ولا إلى تحقيق رسمي ينتج عنه أوراق مكتوبة. التقرير السابق ألغي من المحفوظات، كأنه لم يكن، الهدف إنهاء القضية برمتها، تجربة تحويل بثينة الإرهابية إلى فتاة مسالمة، لم تعد حتى فكرة.

وبما أنها بدأت بالسر فينبغي أن تنتهي بالسر من دون أن تخلف وراءها أية آثار سلبية.

لم تكن الآثار السلبية سوى أن أدامز وأمثاله سيتعرضون إلى نقد شديد. كانت مطالبتهم في البداية بجدية التحقيق مع أبي سعيد، مع أخذ ظروفه بعين الاعتبار، توطئة لمعاقبته بشدة، لئلا يتعرض أحد منهم لأية محاسبة. لكن بيرنز شاهد الإثبات الوحيد لم يكن متعاوناً، صحيح أنه تكلم أخيراً، لكنه لم يقل شيئاً مهماً، لم يُدن أحداً سواه، وطالما هو عالق بين الغياب

المديد والحضور المؤقت، يترجح بين الصمت والشرود، فلن يفيدهم. خلافي مع أدامز تركز حول أبي سعيد، إذا كان مذنباً، فلأنه أراد إنقاذ المعتوه بيرنز، هل في هذا جريمة؟ كان بوسعي إيجاد أكثر من مبرر لعدم تواطؤه مع بثينة. كنا نعرف أن بيرنز أقنعه بأن المهمة رسمية، فاضطر إلى مرافقتهم بصفة مترجم لتسهيل تنقلاتهم.

قلت لأدامز: أبو سعيد لا يعدم أسباباً مخففة، تدفع عنه أي اتهام، على رأسها، أنه طوال رحلة خطرة استطاع المحافظة على حياة بيرنز.

لم يهتم بما قلته، لأن حياة بيرنز لم تعد تهم أحداً، وأصر على تنبيهي إلى أنه مهما كانت الأسباب، لا يمكن الوثوق بأبي سعيد. وعلى هذا لا عمل له في المنطقة الخضراء. كان هذا عقابه، لكنه كما يبدو سبقنا، كان قد قرر الاستقالة من عمله مترجماً في القيادة.

لم يبق سوى بعض الإجراءات الطفيفة لكي تغلق قضية بثينة، أسهم أبو سعيد بجزء حساس منها، بإنهاء عمله في القيادة. مع أنه كان هناك أمل بإبقائه في وظيفته، لو طلب من الكولونيل جاكمان التدخل لصالحه، لكنه لم يطلب. حذر كيلي أبا سعيد:

«إنها مقامرة، تركُ العمل معنا».

«أنا لا أقامر، إنها صفحة سوف تطوى قريباً».

كانت استقالته لأسباب تخصه، عبّر لي عنها بصراحة، إن عمله لدينا يساعد على إدامة الاحتلال. لا مسمى آخر لما يقوم به، سوى أنه عميل لنا، ولا شيء يشفع له فعلته:

«ضميري لم يعد يحتمل هذه الخيانة».

اعتقدت أن أبا سعيد كان عصياً على هذه النوبة الوطنية، للأسف وقع أسيرها.

منذ البداية لم أقل له إنه تحت التحقيق والمحاكمة، اعتقد أن إقامته الجبرية غير المؤقتة ستنتهي به أخيراً إلى السجن. لم أبدد قناعته، مع أن قضيته كانت على وشك التلاشي في العيادة، وإطلاق سراحه مسألة وقت لا أكثر.

جربت استغلال هذا الوقت للتحدث عن كل ما يمكن أن نختلف حوله. كان قد مضى أكثر من أسبوع على احتجازه، وبدأت أميل إلى رأيه؛ بثينة لن تنتحر.

قلت له بوسعنا النظر دائماً إلى الأمور حسبما نريد بطريقة سهلة ومتسامحة، أو معقدة ومتشددة، كانت مسألة العار التي اصطدمتُ بها أثناء المعالجة مُبالغاً بها كثيراً من طرفه. حادثة كهذه، أن تفقد الفتاة عذريتها بهذه الطريقة الوحشية، لا بد أن تهشم جانباً من شخصيتها، من الممكن إصلاحه. لكن لماذا العار والتفكير بتفجير نفسها؟! أعتقد أن بثينة راجعت نفسها. ولهذا قالت له إنها لن تنتحر. تشبثت بالحياة لأن هناك دافعاً جعلها تتعلق بها، لو أنها أخذت العار كمسألة

كرامة لا يمكن التنازل عنها إلا بقتل النفس، أو على أنها مسألة حياة أو موت، لخسرت حياتها وفقدت أخاها.

قال أبو سعيد: إذا كانت تجاوزت هذه المشاعر، فهذا لا يعني أنها تخلصت من هذا الإحساس، صحيح أنها تغلبت على ما يمكن أن ينجم عنه، لكن مازال يؤذيها في الصميم. ربما تخففت منه ككابوس، لكن في سبيل هدف أرضاها.

ألمحت له إلى أنه لدينا مشكلة مشابهة، لكن على مستوى أكبر، ولا تشمل بضعة أفراد، بل بلدناً وشعوباً. يبدو أننا نحن وأنتم، نجحنا في تجاوزها. أقصد مسألة الاحتلال.

قال، إذا كنتم تجاوزتم ما قمتم به من قتل وتدمير وتعذيب وما أدت إليه من إذلال وامتهان للكرامة، فهذا هو العار.

وكانت الليلة الأخيرة مثار حديث متشعب بينهما، ذهبت بهما إلى الحديث عن طقوس أيام عاشوراء، وكانت على الأبواب، وكان أبو سعيد يأمل الخروج قبل أن تبدأ. وكان كيلي قد طمأنه إلى إطلاق سراحه القريب.

«هل ستشارك بها؟».

سأله واسترجع في خياله مواكب الضرب والدم. لم يستطع تخيل المترجم واحداً من هؤلاء البشر الذين يتوافدون إلى الشوارع بخشوع وخنوع وخضوع، يضربون رؤوسهم ويجلدون أجسادهم، بلا مبالاة بما يحصل لهم. سأله يستوثق منه:

«لن تشارك باللطم والجلد، أليس كذلك؟!».

«سأكتفي بالبكاء، أريد أن أبكي فقط».

مع أنه كان من المفترض أن أبا سعيد محصّن من التأثر بفجيعة حدثت منذ زمن بعيد، وإذا كان سيبكي، فبكاؤه جزء من دراما قيامه بالواجب نحو الإمام الشهيد!!

لم أستغرب، أبو سعيد واحد من هؤلاء الناس، وقد يؤمن بما يؤمنون. لا إيمان خالياً من الخرافة والشعوذة، وربما كان يصدق أن هناك بشراً مقدسين يتلقون أوامر إلهية تدفعهم إلى الموت ليقدموا أمثولة في الفداء، وينالوا الثواب العظيم.

على كل حال مضى ما مضى، لم يعد هناك سوى القليل من التساؤلات، قد يجد كيلي إجابات عنها تروي فضوله لا عقله.

لم يخف كيلي عجبه من طقوس السيف والدم، كيف تلاقي كل هذا الإقبال من جميع الناس، كبارهم وصغارهم، الرجال والنساء، الفقراء والأغنياء، الظالمين والمظلومين... لا تستثني أحداً، سوى الشيوعيين والعقلانيين الملاحدة. فقال أبو سعيد:

«كانوا يسخرون منها، اليوم يؤيدونها لأسباب سياسية».

منذ كان طفلاً اصطحبه أبوه معه إلى المجالس الحسينية، كان يُجلسه إلى جواره، ويُلبسه السواد، يسمع المراثي، ويؤدي معه النذور، ويعاونه بحمل الرايات السوداء... عندما كبر بات يشارك في هذه المراسم تلقائياً، وأصبح ملتزماً بها.

قال أبو سعيد، من الممكن فهمها بشكلها البسيط، يمارس فيها الناس، كل واحد، ما تتوق إليه نفسه، النساء في مجالسهن، ينفسن عن عذاباتهن، فيندبن ويردحن على إيقاع الدفوف، ويرقصن رقصة الوداع. أما الرجال، فصاحب الصوت الجميل ينعى الحسين بغناء حزين، وذو الجسم القوي يرفع الرايات الثقيلة، والغني يبذل ماله للفقراء، والمغلوب على أمره يشكو حاله في سره ويلطم على صدره، المظلوم يضرب رأسه بالسيف، الفقير يأكل الطعام ويشبع على روح الحسين، الضعيف رقيق الحال يذرف الدموع. بينما الذي يقف ويكتفي بالفرجة، يأخذه شيء أشبه بالطرب مما يراه... وجميعهم يلتمسون أجرهم في الآخرة.

«أنا لدي الكثير من الدموع».

كانت ذلك هو اللقاء الأخير بينهما. تواقت في اليوم التالي مع توجيه بإطلاق سراحه، وقبول استقالته على ألا يتأخر عن المغادرة فور قطع علاقته بالقيادة.

لم يحتج أبو سعيد لمن يحثه على المسارعة لإنهاء علاقته، غاب يوماً واحداً لرؤية أولاده ثم عاد وباشر على عجل الترتيبات الأخيرة لإجراءات استقالته.

ولقد تحقق الشق الأول من أمنيته خرج من المنطقة الخضراء قبل طقوس عاشوراء، لكن لم يتحقق الشق الثاني، أبو سعيد لم يهنأ بالبكاء.

32

نحن الجنون الذي سيصنع العالم الجديد

أنجز أبو سعيد الإجراء الأخير، ورفض طلب أي تعويض مادي عن فترة عمله معنا، وبذلك أرضى ضميره. مع حلول الظهر، أصبح حراً.

خرج من المنطقة الخضراء، لم يبتعد سوى بضع خطوات عن بوابة التفتيش عندما مرت سيارة كيا رمادية اللون، خففت من سرعتها وتوقفت، انفتح الباب وخرج منها رجل ملثم، يحمل رشاشاً سدده نحوه، أطلق الرصاص عليه، ثم اختفى في السيارة التي انطلقت بسرعة. أصيب أبو سعيد بعشرين طلقة قبل أن يسقط أرضاً بين الموت والحياة.

علمت بعد دقائق بالحادث، اتصل بي كليف، قال لي، اغتالوا صاحبك المترجم، تعال للتعرف إلى الجثة. انطلقت على الفور نحو المدخل، خرجت من بوابة التفتيش بصعوبة، عرقلني الزحام والإجراءات الأمنية. عندما تمكنت من الوصول إليه، كان جثمانه ما يزال طريحاً على الأرض وحاراً، ينزف دماءه وقد ضُرب حوله نطاق من الفراغ. لم يدعوا أحداً يقترب منه. طلبت من وحدة الإسعاف نقله إلى الداخل. ما فعلته كان متأخراً. في طريقه إلى المستشفى لفظ أبو سعيد أنفاسه الأخيرة، وكان فاقد الوعي.

أدركت خطئي بعد فوات الأوان. كان يجب أن أحذره، كنا نعمل على قضية خطرة، أو على الأصح مع أناس خطرين.

ساءني أن أخسره على هذه الصورة، بشكل مفاجئ ونهائي، غدروا به، مثلما غدروا بي، لم أتخيل مقتله بهذه السرعة. أقولها لك، لقد افتقدته فعلاً.

كما افتقدت شعوري أنه في مكان ما في العراق، يوجد شخص اسمه ليس أبو سعيد، لكنني عرفته بهذا الاسم، سيشاركني ويترقب مثلي من غير أن نلتقي حدثاً لا ندري كيف سينتهي، ويهمنا نحن الاثنين. هذا الشعور كان سيؤنسني ويبدد شيئاً من عزلتي، من دون الالتفات إلى من منا سيكون الأكثر خيبة.

اقتحم أدامز جناح الإسعاف في المستشفى، كان غاضباً، أثار ضجة، واتهم كيلي بتوريط القيادة بجثة المترجم. كانت جعجعته

احتجاجاً على نقلها إلى الداخل. هناك جهات سوف تشكك بمقتله، وتلمّح إلى أن الأميركان وراء اغتياله.

كان أدامز قد ابتكر مشكلة أمنية، كيف سيتخلصون من الجثة؟ وحمّل كيلي مسؤولية إخلائها بأقصى سرعة، لا صلة تربطهم بالمترجم، وليسوا على استعداد لتحمل مسؤولية مقتله. وهدده من أن تبات جثته اليوم في المشرحة، لا بد من نقلها الليلة خلال ساعات منع التجول من المستشفى إلى خارج المنطقة الخضراء، ورميها في نهر دجلة، أو تحت جسر، أو في حاوية نفايات. لم تكن هناك صعوبة، كانت الشوارع مسدودة بالنفايات.

رفض كيلي الانصياع لأوامر أدامز، وصمم على عرض الأمر على القيادة. وريثما يجري اتصالاته، طلب من الممرضات التحفظ على الجثمان وعدم تسليمه لأحد إلا بموجب أمر رسمي. لم يغادر المستشفى، خشي أن يسرق أدامز الجثة ويتصرف بها. اتصل بالكولونيل جاكمان وأعلمه بموت المترجم مرؤوسه السابق، والتمس منه العمل على إصدار أمر بنقل جثمانه بطريقة لائقة وتسليمه إلى أولاده.

لاح الكولونيل متحيراً على الهاتف، كان يفكر باستشارة أدامز، سارع كيلي وأكد له أن إفلات العنان لأدامز يعني اقتراف سابقة ستثير الحنق لدى عملائنا من الأشخاص المحليين، عندما يرون كيف نتنكر لإجراءات بسيطة ليست أكثر من احترام ذكرى أصدقائنا الموتى، هل يجوز التخلص منهم بطريقة بالغة الحقارة، بإلقائهم إلى النفايات؟

تأسف الكولونيل جاكمان، لكنه لم يتحمس لثورة كيلي على أدامز.

ومع هذا خلال ساعة من الزمن استحصل جاكمان على أمر رسمي من القيادة بمنحه كل التسهيلات للتصرف بجثة المترجم وتسليمها حسب الأصول إلى عائلته على ألا يقوم بأي إجراء لافت للأنظار، شريطة أن تتم العملية خلال الليل، إن لم يكن اليوم فغداً.

اتصل كيلي بمنزل أبي سعيد، جاءه صوت ابنته، تكلمت معه بلغة إنكليزية سليمة، وكأنها تقرأ من كتاب مدرسي لتعليم اللغة الإنكليزية. حاول قدر الإمكان عدم مفاجأتها بهذا الخبر المؤسف، لكن الموت بحد ذاته كان مفاجأة رهيبة وغير متوقعة. قال لها إن أباها توفي إثر حادث عرضي، ووعدها بأن تقوم دورية بإيصال جثمانه إلى البيت خلال الليل.

على الطرف الآخر، سمع رد فعلها، صوت نشيج مخنوق، ثم لم يسمع شيئاً، كانت السماعة قد سقطت من يدها.

أعتقد أننا نحن الأميركان كانت لنا اليد الطولى في إنهاء قضية أبي سعيد على هذا الوجه المحكم، ومن دون ترك أي أثر وراءنا على الإطلاق. لا أريد أن أحيل قضية المترجم إلى قصة تصفيات بوليسية، لكن لا يصح استبعادها، الجانب البوليسي يفرض نفسه، حتى على قصص الغرام فما بالك بالعمليات السرية، تلك التي لا تقف وراءها الاستخبارات الأميركية، وحدها، بل كل من يزعم أنه يريد القضاء على الإرهاب.

القتل هو إحدى الوسائل المجدية لإخفاء الحقائق، لذا تُرتكب الجرائم، بعضها لإخفاء الفشل، ولهذا لم أستبعد أدامز، هذه القضية جزء من قضية أكبر، كانت

واحدة من مهماته القذرة التي تحمس لها، وأخفق فيها.

وربما لم أكن لأتجرأ على قولها لك، إلا لأن أدامز لقي حتفه في محافظة الأنبار بعد أسبوع واحد، وكان في مهمة كالمعتاد سرية، بحادث سيارة تافه، أو هناك من جعله تافهاً، ليخفي فشله أيضاً، وكأننا كنا نخوض حرب الإنجازات الكبرى، بينما كانت حرب الإخفاقات الكبرى، حرب لا تضيرها إخفاقات صغيرة كهذه. إلا إذا بدأت تنحو إلى مسارب إنسانية، أو أن وجودنا في العراق أصبح نظيفاً. لكن لابد تعرف، لا علاقة للحرب بالإنسانية ولا بالوجود النظيف، هؤلاء الأشخاص ارتكبوا جرائم حقيقية، سواء الذين رحلوا، أو الذين ماتوا، يأتي دائماً من يحل محلهم، ليتابع مهماتهم نفسها، أو الأخرى الأكثر إجراماً.

التاريخ أكثر إنصافاً منا، يعاقبهم على طريقته، لا يعترف بظهورهم ولا باختفائهم، يرصد فقط مرورهم العابر، كأن لا وجود لهم، مجرد أشباح، يخوضون مؤامرات الخطوط الخلفية، ويتركون وراءهم الخراب.

قلت لأدامز قبل مقتله: من حسن حظك أن التاريخ لا يأتي على ذكر فضائحكم.

قال لي: التاريخ هراء.

قلت له: لكنه يفسر لنا لماذا يمضي العالم نحو الجنون.

قال لي: نحن الجنون الذي سيصنع العالم الجديد.

هذا الجنون ذهب به.

لن أبالغ في الاستنتاج، كثيراً ما تساءلت كيف حافظت على حياتي؟ يبدو أن حياتي مثل موتي لا يعنيان أحداً.

على كل حال، سأبقى في حدود افتراض بريء، وهو أن هناك من رصد المترجم وقتله. أبو سعيد توقع شيئاً من هذا القبيل: ألم يوقع عقداً مع الموت؟ كان عالقاً داخل دائرة جهنمية لا نجاة منها، سواء كان من قتله نحن أو الإرهابيون.

33

ما دام الظلام يسترني

ليلاً بمساعدة من الليفتنانت كليف، رافق كيلي دورية من الشرطة العسكرية الأميركية، مدعمة بمدرعتين من نوع برادلي، تسللت إلى الأعظمية تحت جنح الظلام، وقد أطفأوا مصابيح عرباتهم. كانت الدورية تحمل جثة المترجم.

الواجب دعاني ألا أتخلف عن مرافقتهم، لم أكن متأكداً ما إذا كان باستطاعة ابنته وحدها القيام بمهام تشييع جثة أبيها، فكرت بعرض المساعدة عليها، مع أنني لم أعرف كيف يمكنني مساعدتها.

تحت سماء عارية ومظلمة، بلا قمر ولا نجوم، تتابعت في العتمة أشجار السرو العالية على جانبي الشارع الخالي من البشر. العرائش اليابسة تتسلق أسوار البيوت، سكون الليل يزيد الشارع خواءً ووحشة. من خلل القضبان الحديدية تلوح أشجار الدفلى بأزهارها

الحمراء باهتة، القناديل مطفأة فوق الأعمدة الحجرية. أحد هذه المنازل كان يسكنه أبو سعيد، يخرج منه صباحاً ويعود إليه قبل الغروب.

سلط جنديان الأضواء المحمولة على أبواب البيوت بشكل خاطف، من النوافذ تلامحت الأنوار واهنة، صادرة عن مصابيح وشموع، المحظوظون لديهم مولدات كهربائية والقدرة على تأمين وقود لها. توقف الجنديان أمام بيت، أشار أحدهم بيده إلى المدخل وابتعد، بينما تقدم كيلي صوب الباب.

قرع الجرس، ففُتح على الفور. كانوا بانتظاره. فتاة متوسطة الطول، كانت الأكبر سناً، إلى جوارها فتاة أقصر وأصغر منها قليلاً، لابد أنها أختها، ثم فتاتان صغيرتان، وصبي يحمل بين ذراعيه طفلاً صغيراً.

كنت أعرف أن عدد أفراد عائلة أبو سعيد، ثلاث فتيات وطفل صغير. بينما كان الذين أمامي، يزيدون فتاة وصبياً!!

لم أتبينهم بوضوح، ظهروا أمام الباب تلفهم الظلال الخفيفة، بدوا بوقفتهم هذه، متجاورين، متضامنين ومتكاتفين إزاء مصيبة حلّت بهم، تجمعهم صورة جماعية في مناسبة مفجعة. توقعت أن عيونهم كانت مخضلة بالدموع.

ابتعدوا عن الباب، فيما كان الجنود يدخلون إلى البيت يحملون جثة المترجم إلى الصالة الواسعة. أنجزوا المهمة ومددوا أبا سعيد على الصوفا، وغادروا من دون إحداث ضجة، باذلين أقصى

جهدهم كي لا يلمحهم أحد من الجيران. طلب كيلي من الجنود أن ينتظروه في نهاية الشارع، على أن يلحق بهم بعد قليل.

الستائر المزركشة مسدلة على النوافذ، وشذا البخور عابق.

الفتاة الأخرى تحمل بيدها فانوساً معدنياً أصفر اللون يصدر نوراً مرتعشاً أصفر كالحاً. فيما أختها الكبرى، ابتعدت عن المجال الباهت للنور، ممسكة بيديها بالبنتين الصغيرتين. أجلستهما بعيداً على كرسيين منخفضين.

كانت نحيلة الجسم، يابسة العود، نظرت نحوي بثبات، أدركت هذا من تصلب وجهها باتجاهي. لم أر عينيها. كانت واقفة في العتمة. ثم التفتت صوب جثة أبيها، كان أشبه بالنائم مرتاح البال، قد أغمض عينيه بوداعة وطمأنينة في مكان يضج بالأنفاس المضطربة والقلق، وكنت أكثر منهم اضطراباً وقلقاً.

ثم ارتدّت تنظر إليَّ، اقتربت مني، فظهرت في مجال الضوء الواهن، ملامحها تبدت على مهل وتجسمت بهدوء. دهمتني رعدة شلّت أطرافي، لم يكن ما ظننته صحيحاً، لم تكن هي الأخت الكبرى. كانت بثينة، عيناها لم تعودا تائهتين، ولا نظراتها شاردة، ولا على وشك أن تنفجر. لم تتجنبني، واجهتني وكانت قوية، أقوى مني.

سارعت أعيد ترتيب المنظر، لم تكن بثينة وحدها كان معها أخوها محمد، الصبي الذي يحمل الطفل الصغير.

كانت قد عَرفتني منذ دخلت. أما أنا فتظاهرت بأنني لا أعرفها.

سألته الفتاة الأخرى بلغة إنكليزية سليمة، فتأكد أنها ابنته التي تكلم معها بالهاتف:

«هل أنت الطبيب كيلي؟».

هزّ برأسه.

«قال لي أبي أن أتصل بك إذا حدث طارئ».

«لقد حدث هذا الطارئ».

«نشكرك على قدومك، هذه قريبتي جاءت للعناية بنا».

وأشارت إلى بثينة.

أدركتُ من دون شرح، أن أبا سعيد أوصى بثينة بأولاده. وقدم لها ما أخفاه عني: سبباً آخر للحياة.

«أحسنتِ صنعاً، ما الذي بوسعي أن أفعله لكم؟».

«لا شيء، لقد اتصلنا بأقربائنا، لم يتمكنوا من القدوم اليوم، الوقت متأخر، والطريق غير مأمون، لكنهم سيأتون صباحاً، ويتولون الدفن والعزاء».

تحير كيلي في وقفته، أحس أنه غير مرغوب بوجوده، ولم يبق ما يفعله. التفت نحو جثمان أبي سعيد.

«حسناً، سأودعه».

تقدم نحوه، لكن اعترضته ابنته:

«ماذا يكون هذا الحادث؟».

«لقد قتلوه».

لم يتمكن من إنكار القتل، عشرون رصاصة، أغلبها لم ينتزع، ما زالت في جسده، وبضع قطرات من الدم الجاف أهملوا في المستشفى تنظيفها.

قال يعتذر:

«حادث مؤسف، والفاعل مجهول».

رأى الدموع تنفر من عينيها. فحول بصره عنها نحو أبي سعيد. أحس أن لحظات الوداع القليلة اختصار غير عادل لعلاقة حميمة ولو أنها تطورت بسرعة، وانتهت بشكل خاطف، ومن الغبن لكليهما أن تستعاد بهذه العجالة.

«هل تسمحون لي بالبقاء بعض الوقت؟».

«بوسعك ذلك».

وقف على مقربة من أبي سعيد. انسحبت الابنة نحو الخلف، غابت قليلاً، ثم عادت بملاءة رقيقة بيضاء، غطت جثمان أبيها وتركت وجهه مكشوفاً. وكانت بثينة قد حملت مجموعة من الكتب، ناولت ابنة أبي سعيد، وإحدى الصبيتين، والولد، كلاًّ منهم واحداً غلافه مُذهّب.

لم يكنْ سوى نساء صغيرات، وصبي وطفل، سيقضون ليلة موحشة وقاسية مع جثة هامدة سواء كانت لأبيهم أو لا. هل يمكنهم تحمل ثقل هذا الموت بين جدران أربعة، تحت أضواء

خافتة، ترتعش مع كل نسمة هواء؟!

> **قررتُ البقاء معهم حتى الصباح، ربما وجودي يجعلهم يتحملون رهبة الموت، ويألفون فقدان أعز إنسان عليهم.**

قال كيلي: اذهبوا إلى النوم، سأبقى معه.

قالت الابنة: لسنا خائفين، هذا قضاء الله.

قال: غداً لديكم يوم شاق.

قالت: هذا وداع ليته يطول.

حدقت إليه بثينة، فحاول استرضاءها، كان واثقاً أنها تفهم ما يقصده:

«في الفترة الأخيرة أصبحنا أصدقاء».

«بوسعك أن تذهب مطمئناً».

وطلبت من ابنته أن تترجم ما قالته.

أحس بالارتياح، لأنها صدقته.

«قال لي إنك لن تخطئين الصواب».

كان قد أفسحت له طريقاً للذهاب.

لم يتوجه نحو الباب، أحس في تلك اللحظة أنه لا يجوز له أن يغادر، كان واجبه أن يشاركهم مصابهم، التفت نحوها:

«هل يمنع دينكم أن أشارككم السهر على الفقيد؟».

التفتت نحوه وسألته:

«هل أنت مسيحي؟».

> **لم أدر ما إذا كنت مسيحياً، أو لا. لكنني في تلك اللحظة شعرت أنني يجب أن أنتمي إلى دين.**

«نعم، أنا مسيحي».

«لا شيء يمنع بقاءك معنا».

اتصل بالدورية وطلب منهم أن يعودوا صباحاً قبل شروق الشمس، سينتظرهم في نهاية الشارع.

اقتعدوا الأرض متحلقين حول الجثمان وفتح كل منهم كتابه.

> **جال بذهني خاطر لم أتلكأ في الإفصاح عنه؛ بثينة وأخوها من السنّة، بينما أولاد أبو سعيد من الشيعة، لابد أن لكل منهم كتاباً يختلف عن الآخر. لكنه بدا الكتاب نفسه!!**

«هل تقرأون جميعكم في كتاب واحد؟».

«نعم، القرآن الكريم».

«هل هو القرآن نفسه؟».

كان القرآن نفسه.

قعد مثلهم على الأرض وظهره إلى الحائط.

«سنقرأ على روحه آيات من الذكر الحكيم. ربنا سيغفر له، رحمته تسع كل شيء».

تشكل أمامي منظر خلال لحظات:

أبو سعيد مغمض العينين ومسبل اليدين، الأولاد عيونهم تشرق بالدمع، يكفكفونها بين الآونة والأخرى، لا شيء يميزهم بعضهم عن بعض، يقرأون بأصوات منخفضة.

قالت بثينة، هل ترغب بسماع ما نقرأ.

قال لها، بودي ذلك.

فعلا الصبي بصوته.

كان تنغيمه لما يقرأ من الروعة والجمال بحيث طاب لي التخيل أن روح أبي سعيد ترفرف فوقنا.

منظر كان على علاقة بعالم مختلف، ولأكن دقيقاً، على علاقة أليفة بالموت. أما الحياة، فالرضا بما قسمه الله للبشر من سعادة وشقاء.

تقبلت هذا الاستسلام المطلق للقدر، إزاء حضور الموت لم يكن بوسعي إنكاره، ولا بوسعي أن أقدم لهم بديلاً، أو تعويضاً مناسباً. في ساحة المعركة، لا شيء نسخو به سوى المزيد من القتل. وهكذا كان الصمت رحمة.

وإذ نظرت إلى بثينة، لمحت على وجهها أمارات لم تخف عني، لم تكن مستسلمة للعبة القدر، نظراتها تجاوزتني نحو الظلام الذي كنت فيه، عندها أدركت في أي جانب أقف، كنت في الجانب الظالم، قلب ذلك العالم الجبار.

في ذلك الليل الطويل، أحسست أنه ما دام الظلام يسترني، فبوسعي أن أبكي.

لم أكن مثل أبي سعيد، هو أراد البكاء على بلده. أما أنا فشعرت بالخوف، وأردت البكاء على هذا العالم القاسي الذي نعيش فيه. قد تجد في ما أقوله نفحة من النزوع إلى المحبة أو السلام، تلك اللازمة المعسولة من الطية السخيفة. وهذا ما لا أرضاه.

ما أحسست به ليس تحت تأثير الحزن، بل تحت تأثير الشعور بالذنب، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا، أن تكون اعترافاتنا وتصرفاتنا ومشاعرنا، وما ننوي إصلاحه أو فعله تحت وطأة هذا الشعور فقط.

لن أطلب الغفران مثل بيرنز، ولن أبرئ نفسي.

أنا أقسى مما تتصور. ما دمت ماضياً في طريقي، فأنا بيرنز آخر بلا قلب.